ثلاثية عبد الجليل الغزال

بريد الغروب

أحمد علي الزين

دار الساقي

ثلاثيّة عبد الجليل الغزال

بريد الغروب

أحمد علي الزّين

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© دار الساقي،2015

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، 2014

الطبعة الإلكترونية، 2015

ISBN-978-614-425-675-6

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 5342/113.
الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى ندى؛ رفيقتي في الأوجاع والمسرّات.

"حيث ولد الحرف، قتلوا الكلمات"

عبد الجليل الغزال

وقائع اغتصاب تالة سويحان

كانت ليلة عاصفة عمياء كعينيّ.

نعم هناك ليالٍ عمياء أشدّ من عماي بحيث يبدو أنّ كلّ شيء يرتطم بكلّ شيء، كائنات وأشياء وأرواح تتصادم بعشوائية وتزعق في أقصى الألم.

وكان من الصعب علي أن أفرق بين دوي القذائف وصوت الرعد، يبدو لي أنّ القذائف ترتطم ببرج المر على كتف وادي أبو جميل في هذه المدينة بيروت. بيروت أشياء كثيرة تتبدل فيها وأشياء كثيرة تزول، أشياء يتلفها أسيد الزمان وأخرى تأكلها الحروب، ويبقى اسمها بيروت، الأسماء وحدها تنجو من التلف.

ليلة عمياء حدثت فيها أشياء كثيرة.

لكنّني كنت أرى، أو كأنّني أرى البرق الخاطف من شقوق النافذة حيث تصفر الريح. في هذه الليلة كانت الريح تعوي كأنّها كائن خرافي مطعون في حلقه، كنت أرى وكأنّني لا أرى، هذه حالتي منذ أن أصبت بهذا المرض اللعين الذي يسمونه العمى الهستيري. قلت لنفسي وأنا أفرك عينيّ: ربما أحس البرق أكثر مما أراه، أو أنّه يتهيأ لي أنّني أراه، لشدّته، ثم أعاود فرك عينيّي وأختبرهما في فحص ما أسمعه، لإحساسٍ تملّكني أن بصري بدأ يعود إلي، وأن الله قد أعاده تحديداً في هذه الليلة لأتدبّر أمر خلاصي، لقد عزّ عليه أن يترك امرأةً عمياء ووحيدة في ليلة هي أيضا عمياء، عزّ عليه أن يتركها بدون بصر، أليس هوالسميع البصير؟ لا شك أنّه يراني أرتطم بنفسي وبالجدران، أقف على حافة الجنون، فقدت بوصلة الجهات في هذا العماء الكلي؛ لا بد أنه لمحني في وحدتي هذه، في تخبطي وحيرتي، وأشار بيده للبرق أن يضيء عينيّ، ففعل البرق منفّذاً مشيئة الله، فعاد إليهما الضوء وعاد الله إلى شأن تسيير الأكوان بعد أن اطمأنّ لتحقق إرادته.

شعرت أن منسوب إيماني ارتفع في هذه الليلة، بحيث كنت قبل ذلك عديمة الإيمان تقريباً، أو أني لا أفكر بهذا الأمر. يبدو أننا في الشدائد نتعلّق بحبال الغيب. لقد شحّ عندي الأيمان منذ تلك الليلة التي انتهك فيها جسدي من أقرب الناس إلي. ليس الإيمان فقط الذي خفّ، بل ثقتي بالناس تزعزعت. الفرس التي كنتها، صارت جريحة أو معطوبة، وعادةً الخيل التي تعطب كان يريحونها بالقتل، وهذا ما حدث لي، قتلوني لكنني لم أمت تماماً. يا إلهي، كم نحن قتلة!!!

كانوا يلقبونني بالفرس، وكنت شقية، نعم، وكنت أقف كالصهيل حينما أسمعهم يقولون طلّت الفرس... على كل حال.

يوم حدث لي ذلك وهُتك بدني، كنت في السابعة عشرة من عمري ولا أزال طالبة في الثانوية في بلدتي. استيقظت في ليلة عاصفة من شتاء ذاك العام، وجدت أمي فوق رأسي والداية عيشة بين فخذيّ، لم أصدّق عينيّ، ظننت أنّني أحلم، لو لم أشعر بإصبعها داخل لحمي، يبدو أنَّ أمي خدرتني لفحص عذريتي لكنّني لم أغب طويلاً وبشكل كامل بل استفقت فجأةً من عملية التخدير، لسوء حظهما وحظي أيضاً، لأشهد على الجريمة. نظرت في عينيها، عينيّ أمي، لم أصدّق أنها قد تفعل ذلك، أن تخدعني، أن تشارك في اغتصابي. نعم كنت أُغتصب وبتدبير منها، وربما ما قامت به أشدّ من الاغتصاب. نظرت في عينيها لعلني أجد عذراً لها لكي أفهم، أو لكي أغفر لها، أمي؟ أنت...؟ وددت لو تنشقُّ أرض البيت وتبتلعني. نظرت إلى الداية عيشة، حاولت أن أبصق في وجهها، لكني لم أفعل، لم أستطع، لم أفعل أي شيء، حتى رغبة البكاء تبخّرت، رغبة الصراخ تلاشت حتى الموت، شعرت بالعجز التام، لقد خُدعت، ماذا افعل؟ ما هو الشيء الذي يلغي ما حدث؟ الموت أو النسيان وحدهما قادران على ذلك، فقط بالنسبة إلي. وقعت في

الصمت والاستسلام، نظرت إلى بدني المسبيّ، شعرت أن جسدي ليس لي، أردت أن أنفصل عني، لا أريد أن أرى ما فعلتاه بي، لا أريد أن أرى أحداً من أهلي من بلدي من أقربائي، لو أستطيع أن أختبئ في ظلمةٍ دائمة، في مطرحٍ لا أرى فيه أحداً ولا أحد يراني، لا أريد أن أرى حتى نفسي.

كنت ممددة بينهما، واحدة عند رأسي والثانية جاثية على ركبتيها بين رجلي المنفرجتين على أقصاهما، عاريةً حتى حدود صرتي. شعرت بحزن عميق وبخيبة وأغمضت عينيّ، أردت الاختباء في عتمة عينيّ. ظنّت أمي أنّني متّ، ويا ليتني متّ، صارت تهزني من كتفي وتناديني بصوت مذعور: هداااا هداااا... هداااااااا، أرجوك ماما، افتحي عيونك، أرجوك ماما، أرجوك. فتحتهما لأهدّأ روعها، لكنّني لم أرها، لم أرَ أي شيء، فقط شيء بعيد كنجمة في الليل كان يلمع خافتاً هناك في مكان ما من الكون.

يومها ظنّوا أنّني جننت، هكذا قالت الداية، إنّ هذا الذي أنا فيه نوع من الجنون. في الواقع، الذي جنّ هو بصري، كان يغيب طويلاً ويعود كشمس الشتاء التي تختفي وراء السحب وتعود للسطوع في انفراجات قصيرة. عندما كنت أرى وأشاهد، يبقى سلوكي سلوك الأعمى، أتصرف كما لو أنّني لا أبصر، لانعدام ثقتي، أو لظنّي بأنّ ما أراه هو حلم أو تهيؤات. كنت دائماً أتحسس الأشياء بيدي حتى لو كنت أبصرها. بعد أيام صارت فرس والدي رفيقتي تصطحبني إلى النهر حيث كنت ألتقي شوقي سابقاً، كنت أنتظره كعادتي، لكن شوقي لم يأتِ، ورغم ذلك بقيت أزاول انتظاري.

في بيروت، بعدما استقريت في بيتنا في وادي أبو جميل، بعد خروجي من المستشفى، كنت أبقي على عكّازي في يدي وأنا أسير في الطريق، أمشي وكأنيّ لا أبصر حتى لو كنت أبصر، ويؤلمني ذلك، أتعذب وأرتبك وأرى الناس ينظرون إليّ في ريبة تارةً أو بشفقة تارةً أخرى، وكلا الأمرين يسبّبان لي ألماً. أحياناً عندما أسمع جلبة التلامذة في الثانوية التي بقربي، الأهليّة، أعلم أنها استراحة العاشرة صباحاً، أنظر إلى ساعة يدي التي لم تفارق معصمي، كانت هديتي من شوقي، أراها فعلاً العاشرة، فأخرج إلى الشرفة لكي أشاهد الطلاب، كي أتأكّد من أنّني فعلا أرى، ورغم ذلك، بعد أن أشاهد التلامذة أبقى في الشك، وأحياناً حين أعود إلى عتماتي الطويلة كثيراً ما أظنّ أنّني نائمة وهذا الذي أنا به حلم.

يبدو أنّني كنت أفضّل أن أبقى في عتمتي وأرى ما أريد أن أراه.

تناقلوا خبر عمائي وقالوا إنّ والدي هو الذي سبّب لي فقدان بصري بضربة من عصاه العمياء على رأسي، وبالطبع هو لم يضرب بقصد أن يعميني، بل فعل ذلك بقصد قتلي للتخلّص من عاري بعد علمه أنّني فقدت عذريتي، هكذا قالوا. في الحقيقة لم يضربني والدي، ولم يسبق له أن فعل ذلك، وهو ليس من الرجال الذين يصونون شرفهم بقتل بناتهم. هناك خبراء في وضع أسباب تبدو حقيقية لمآسي الناس. بكلّ الأحوال، من ضربني كان يقصد قتلي، لكنّني لم أمت، نجوت بروحي وخسرت شيئاً من عينيّ. ليتني مت، كثيراً ما أردد هذه الأمنية، تلك قصة أخرى.

قبل تلك الحادثة كنت أشعر أنّ شيئاً ما ينتظرني كلما عدت إلى البيت، كان حدسي يقول لي إنّ أمراً سيغيّر حياتي، يقلبها رأساً على عقب. كنت أقول ذلك لشوقي: "أشعر بالخوف عندما أطلّ على بيتنا من ناحية الوادي، ربما شعوري بالذنب هو الذي يجعلني في هذا الحالة". كان يقول: "الأوغاد يساوون بين الحبّ والجريمة. الحبّ خطيئة، أما الحقد والقتل والذلّ والظلم أشياء فلا تقع في هذه الخانة. لا تخافي، هذه وساوس". في الحقيقة كنت أخاف من أمي أكثر من أبي الذي كانت تهددني دائماً به؛ كنت أخافها

وأشعر أنها تغار مني. كانت تلبس ثيابي لكنها لم تكن تخرج بها بل تتأمل نفسها في المرايا وتقول لي: أنا ما زلت أجمل منك. هي كانت جميلة بالفعل.

يوم ذاك، كنت عائدة من المدرسة التي كانت هناك على ذلك التلّ المشرف على السهل، كان بيتنا هو أيضاً واقفاً كقلعة على تلٍّ آخر في أعلى البلدة – بيت قديم، محاط بشجر السنديان، درجه نحو المدخل نصف دائري. صعدت درجاته السبع، مطأطاة الرأس كعادتي خشية أن تتصادم عيناي بعيني أبي، الذي كثيراً ما كان يجلس على الشرفة تحت القناطر يتأمّلُ السهل كأنّه يحصي شجره أو بيوت الفلاحين المتناثرة. كان واحداً من بقايا إقطاع ذاك الزمان، وريث والده الذي كان يملك حتى نساء الفلاحين، كان والدي عكس جدي، مسرفاً، مولعاً بالموسيقى والرسم، كان يهب بعض أملاكه للناس، كان يبدو مصاباً بلوثة الاشتراكية، وكان بيتنا هناك ملتقى للكتاب والشعراء والهاربين من حزب البعث الذي أمّم ملكيات والدي التي تقع وراء النهر الكبير، ونجا من التأميم القسم الذي يقع جنوب النهر في أراضي الوطن العزيز، كما كان يقول: هذا هبة وحسنة من حسنات سايكس بيكو أنه أبقى لي بعض الملك.

كنت ألمحه بطرف عيني جالساً على كرسي الخيزران، يحمل كتاب **مصارع العشاق** أو جزءاً من كتاب **الأغاني**، أو **جواهر الأدب**. أصل، أبادره التحية: مساء الخير. يردّ التحية بسؤاله التاريخي: ليش تأخرت؟

- كنت مع رفيقتي، أجيبه على عجل دون التطلع في عينيه كي لا يلمح حيرتي وارتباكي. في الواقع أكون مع أستاذي شوقي، لا أدري إذا كان يصدق ما أقوله، كنت أسمع في صمته شيئاً آخر. كانت أمي تعرف أنّني عندما أتاخر أكون عند شوقي، وكنت أسمعها تقول لوالدي: "يا ريت هالشب مش غريب، كنت زوجتو هدى". كان يلوذ بالصمت، لا يعلّق على كلام أمي. كانت تمزّق أحشائي هذه الكلمة: "غريب"، كيف يكون غريباً من أحبه حدّ التوحد به؟ كانت أمي تقول ذلك لوالدي ليس همساً بل بقصد أن تُسمعني ذلك. مرة واحدة قال لها بالفصحى: "هذا شأن يعنيها وحدها". صعقني بهذا الجواب، وشعرت أنّ ما أفعله هو طعن في الظهر ونوع من الخيانة. كان والدي يعرف شوقي الذي كان يشارك في بعض الأمسيات في بيتنا ويقرأ الشعر، وكنت أجلس وأستمع، ولعلني أصبحت أسيرة شعره في تلك السهرات قبل أن أصبح أسيرة هواه.

في غروب ذلك اليوم لم ألمح أبي على كرسيه الهّزاز في الزاوية المشرفة على السهل، ولم أسمع صوت الفرس في القبو، التي كانت تصهل كلما شاهدتني أو سمعت صوتي. عندما وصلت العتبة، عتبة المدخل، لمحت الداية عيشة في نهاية صالة الضيوف تخرج من باب موارب لتتوارى في الداخل. انتابني شعور مقلق من حضورها المباغت أمامي، دخلت غرفتي، وجدت أمي جالسة حيث أجلس عادةً على الكرسي المواجه للنافذة المطلّة على السهل وعلى جانب من غابة السنديان المحيطة ببيتنا التاريخي الذي توارثه والدي من سلالته ذات الأصول التركية. كنت أحبّ هذا البيت الذي يصلح لحكايات الحب، رغم هيبته الاستعمارية، كان مبنيّاً على الطراز التوسكاني، فيه بعض الشبه لقصر المير أمين في المنقلب الآخر للجبل.

كان أستاذي شوقي حين كنا نمضي الأصائل على ضفة النهر ويزاول تدريبي على أصول الهوى، ويلوح بيتنا على التلّ عالياً بين شجر السنديان، كان يقول لي: هذا البيت لا يليق إلا بك وحدك أميرتي، وأكون أنا خادمك، تناديني من جناحك السلطاني شوقي، نعم سيدتي، الشاي، أمرك مولاتي، وآتيك بإبريق الشاي النحاسي على صينيته وسط قدحين من الكريستال الإيطالي، مع طبق صغير من الحلوى، أصل باب جناحك، أطرق طرقاً خفيفاً على الباب، ادخلْ، تأمرينني، أقول: الشاي مولاتي، وألمحك بطرف عيني على

سريرك في غرفة نومك المجاورة لغرفة جلوسك متكئة على نصفك، يدك تسند خّدك الوردي، ساقك اليمنى تلتف على اليسرة بتراخٍ، يتثاءب بدنك تحت قميص نوم شفيف بلون زهر الرمان، ثم يرتجّ النهدان حين يتوثّب البدن كاللبّوة وتظهر ساقية الشهوات المنحدرة من الكتفين حتى النهايات، وحين تستديرين نحوي يلوح فرخ أسود في الدغل، وتعبق رائحة الصندل والعنبر، تناديننني وأكون لا أزال منحنياً في الباب أتلصّص على بدنك الشهي، شوقي، أمرُ مليكتي، أجيب بخشوع وأعليك رتبة في الملك كلما تقدمت خطوة نحوك، هو ليس أنا من يرفعك رتبة في الملك، بل أنت تتسامين كلّما اقتربت منك، أو يتّضح لي مقامك، يااا إلهي كم أنت ملكة... المهم، تأمرينني: ادخل، فأدخل مطأطأ الرأس، أقف ثانيةً في باب غرفة نومك كأنّي أقف على حافة الكون، أشعر أن احتراقاً بدأ في بدني، أمرك مولاتي، أنحني وأقول. تعال يا شوقي، تطلبين بنبرةٍ تشي برغبة، أتقدّم حافّياً على سجادة الحرير الأصفهاني، تتمددين بكل جمالك وشهواتك على السرير وتأمرينني أن أدلّك لك ظهرك، تنقلبين على بطنك، يرتجّ جسدك ويرتجّ بدني ويرتجّ الكون، أمدّ يدي إلى ظهرك الفرسيّ المنتهي عند منحدر الشهوة كسقوط القلب حين نخطو خطوة في الفراغ. وتدور الأرض بنا حتى يوم القيامة.

مرّ سريعاً هذا الشريط بذاكرتي عندما شاهدت أمي تجلس على الكرسيّ خاصتي، تماماً حيث كنت أجلس وأمضي وقتاً طويلاً أتأمّل من النافذة أحوال السهل والطير، وهذه خصلة من خصال أبي التي ورثتها. وقفتُ في الباب، أنظر إلى أمي التي تبدو في هذه الساعة من النهار ومن هذه الزاوية تحديداً بدون ملامح بحكم جلوسها عكس الضوء مما يجعلها كخيال سيلوات، مشهد رومنسي، فيما لو كان الهدف من هذا الحضور يحمل هذا البعد.

هدى، لم تمد نهاية اسمي كعادتها بحيث تصبح الألف المقصورة الفا ممدودة، بل بترت آخر الحرف، نادتني بنبرة المحقق. أجبتها بتهذيب: نعم يا أمي. كيف شوقي؟ سألت ولم تتردّد في الدخول مباشرةً في صلب الموضوع، أرادت أن تباغتني كي لا أراوغ في أجوبتي، وبدوري لم أتردد في الإجابة المباشرة التي تؤكّد علمي بأحواله: شوقي منيح، بسلّم عليكي، أجبت بيقين وشعرت أن حرارة بدني ارتفعت. شو كنتو بتعملو على النهر؟ نبرة صوتها تحمل اتهاماً مباشراً. بلعت خوفي وارتباكي وأجبت بسرعة: اللي بيعملو عادةً شب وصبية بحبو بعضن. هدااا، مدّت حرف الألف المقصورة بضعة أمتار صعوداً، هدااا، وبدا في آخر الاسم في صوتها نصف حرف هاء، هدااااه، وحمّلت صوتها نبرة تهديد لا تليق بها كامرأة جميلة ومثيرة. أجبت بحياد وبرودة: نعم يااا أمي. خبريني بالتفصيل، حتى أعرف شو أعمل. ضغطت طلبها وقذفته في وجهي.

ودارت الدنيا بنا... علمت والدتي أن علاقتي بشوقي تجاوزت العناق والقبلات، علاقة حبيبين، عاشقين، علاقة امرأة ورجل، علاقة كاملة. قلت لها: نعم أحبّه، ولأني أحبّه أعطيته ما يشتهي، أعطيته ما يريد. هذه الكلمة جننت أمي، فاستفسرت، وهي تتأتىء: وضحي أكتر شو أعط أعطططط أعطيتيه؟ أخدك يعني؟ وهذا الفعل "أخذك"، وبالدال، يعني في قاموس المنطقة "فضّ بكارتك". كنت أحاول أن أخفّف من وطأة الصراحة فأجبتها بنعم ولا. هددتني بأنّ والدي سيذبحني من الوريد إلى الوريد لو علم بذلك، ومثّلت بحدّ كفّها فعل الذبح على عنقي. مجنونة! سلّمت نفسك؟ بعت شرفك وشرف عيلتك لواحد مش معروف قرعة بيو منين، مين هيدا شوقي؟ صرخت بها: شوقي أستاذ وشاعر. ضحكت: شاعر، طز، شاعر قال، بتاكلي وبتشربي حكي، شاعر، شو يعني شاعر؟ جيل بينشرى وبينباع بالكلام الفاضي، عقلكن يوك، ضيعان

جمالك. وقبل أن تخرج بلّغتني بما توقعت، طلبت من الداية عيشة أن تكشف عليّ لترى إذا كنت فعلاً قد فقدت عذريّتي، كي تأخذني إلى بيروت لرتيها، لأن ابن خالي المهاجر في كندا، الذي كان يخطبني نظرياً، قد يفجع لو دخل عليّ ووجدني فاقدةً عذريتي. كنت لا أعرف ابن خالي إلا في الصورة، هذا سيناريو آخر من خيال أمي، هي هكذا رسمت مسار حياتي ومصيري منذ وضعها لي بين يدي عيشة، التي على ما يبدو كانت حافظة أسرارها. رتيها؟؟ مزقت أحشائي هذه الكلمة كأن بدني ثوب أو قطعة قماش أصابها الضرر تمزقت وينبغي إصلاحها كي لا ترمى أو تهمل. نفّذت أمي ما وعدتني به، وحصل ذلك في ليلة عاصفة كهذه الليلة بعد أيام قليلة.

بعد حفلة الاستجواب تلك خرجت أمي وبقيت في غرفتي، واقفةً قبالة النافذة أتفرّج على رذاذ المطر المتساقط على الضوء الذي يتدلى من عمود الكهرباء. بقيت لوقت طويل، فكرت أن أقفز من النافذة وأهرب. عادت أمي ودخلت إلي وخلفها الداية، يبدو أنها جادة ومستعجلة في تفقد عذريتي، هددت بأن ألقي نفسي من النافذة إذا اقتربت إحداهن مني، صرخت بلا وعيي: بابا. لا أعرف لماذا ناديت على والدي الذي، حسب أمي، هو من سيتكفل بذبحي لو علم ذلك: باباااا باباا. سمع والدي صوتي، ناداني، يبدو أنّه وصل لتوه: هدى هداااااا يا هداااااا. خرجتا على الفور كي لا تثار شكوك أبي، وكلتاهما على ثقة من أنني، فيما لو سألني عن سبب صراخي، سأخفي السبب الحقيقي وأخترع أي حجة لأنني يستحيل أن أصارحه بالحقيقة. دخل عليّ والدي وشاهدني أبكي، لم يسألني شيئاً ولا لماذا كنت أناديه، بل خرج، نادى أمي وسألها ما بي، كأنه أدرك أنها هي التي سببت لي شيئاً آلمني، لا أعرف ماذا قالت له، كان صوتهما بعيداً، بالتأكيد لقد وجدت أمي مبرراً له، كعدم رضاها عن ملابسي، أو تأخري في العودة، هي أيضاً لا تتجرأ على أن تصارحه بالحقيقة كاملة.

على كل حال كانت أمي مصرة على أن تعرف أحوال بدني، فعدم تمكّنها مني في تلك الليلة لم يمنعها من فعل ذلك في ليلة أخرى، خدرتني في المرة الثانية قبل أن تصل دايتي، بوصفة منها، حبتان منومتان في قدح الشاي كما في الأفلام، لكن حظهما كان أسوأ من المرة الماضية لأنني عندما صحوت من الخدر كان إصبع دايتي لا يزال في فرجي يبحث عن الغشاء، عن الجدار الذي يصون شرف العائلة، ووجه أمي فوق رأسي ينتظر النتيجة التي على أساسها سيتغير مجرى التاريخ. كم كرهت أنّني أنثى في ذلك اليوم، كم كرهت ذلك. تركتهما، لم أقاوم ولم أصرخ، لم أتحرك، حتى أنّني بقيت ممدّدة على ظهري ترفع مؤخرتي مخدة، ساقاي منفرجتان كالولاّدة، كأنّ صراخاً عميقاً فجّني من داخلي، وبدل أن يخرج من فمي غار عميقاً في القلب واستقر هناك إلى الأبد، شعور هائل ما بين الحزن والعتب المرير. بعد أن انتهيا حاولت أمي تخفيف صدمتي فقالت: "هنيال شوقي"، أي هنيئاً له، ليتها بقيت صامتة. لم أتحرك، حتى أني أشحت بعيني بعيداً نحو الضوء الذي يتدلّى من عمود الكهرباء، وراء النافذة، كان يتراقص تحت المطر، يتأرجح في الهواء، هذا آخر ما شاهدته ربما...

"هدى هدى هدى"، اقتربت أمي، وضعت خدّها على وجهي، ظنّتني مت، ثم هزّتني من كتفي. نظرت في عينييها، لم أرَ فيهما أمي بل امرأة عاهرة تخون أبي وتخونني. لم أصرخ، لم أفعل شيئاً، كان بدني ملكهما، ليس لي شيء فيه، لا يخصني كأنّه لفتاة أخرى. ألبستني ثيابي، حملتني إلى سريري، ساعدتها الداية عيشة على حملي، لم أكن غير قادرة على المشي بل كنت غير قادرة على تقبّل جسدي... جسدي المغتصب. أغمضت عينيّ كي لا أرى أمّي، كي لا أرى العالم، ودخلت في عتمتي كما المحارة في صدفتها، ألحس ملح

جرحي لتصبح حياتي حبة لولو، وهكذا صرت أرى ولا أرى، أرى ولا أصدق، وحين لا أرى أيضاً أظنّ أنّني أحلم.

صارت فرس أبي هي رفيقتي، تأخذني إلى النهر وتعود بي، أروي لها وأسجّل، كنت أسجّل على آلة تسجيل يومياتي وأنا أرويها لفرسي، كنت أستمتع بذلك وخاصةً حين أستمع إلى صوتي وحكاياتي... سمعتني مرة والدتي، كنت في غرفتي أسجل بعض القصائد التي أحفظها، دخلت علي وسألتني مع من أتكلم، قلت لها: مع نفسي. اقتربت من النافذة وفتحتها وقالت لي: غرفتك بحاجة للهواء، ثم اقتربت مني، شاهدت وجهها كأنّي أشاهد وجهاً في مرآة غبشة مرطبة بالبخار، رجوتها أن لا تقترب أكثر، أن تتركني لوحدي. فعلت ذلك وأغلقت الباب بقوة.

مرة كنت قادمة من عزلتي في النهر، هذا النشاط الوحيد الذي كنت أقوم به، أدخلت الفرس إلى القبو، داعبت غرتها، قبلتها على أمل اللقاء في اليوم التالي، وصعدت درجات البيت، وما أن وصلت العتبة شعرت أن رأسي انفلق وضوء خاطف خرج من عينيّ، كأنّي لمحت الداية عيشة أمامي وأنا أهوي على العتبة.

جاؤوا بي إلى المستشفى الأميركي في بيروت بعد غيبوبة دامت لشهرين تقريباً، قالوا إنني وقعت على رأسي، وأن هذا ما سبب لي فقدان بصري، وهذا ليس صحيحاً، سمعت أمّي تقول ذلك لغرباء كانوا في غرفتي، سألني أحدهم: كيف وقعت، هل تذكرين؟ أجبتهم أنّني لا أذكر شيئاً، وودت للحظة أن أستوقفهم لأقول لهم الحقيقة، أنّني إذا فقدت بصري هذا لا يعني أنّني فقدت ذاكرتي، ولكني خجلت من ذلك، شعرت أنّني ساكون رخيصة وعديمة الشخصية، طحنت حزني بين أسناني، طلبوا مني أن أوقع على أقوالي، فلم افعل، قلت لهم: كيف تريدونني أن أوقع وأنا لا أرى ماذا كتبتم؟ فطلبوا من أمي توقيعها، ثم غادروا...

أنا لا أعرف لماذا اتُّهم أبي بذلك، لم أره يضربني، وما من مرة فعل ذلك، كان رجلاً قليل الكلام، كنت أخافه، ولكن لا أدري سبب ذلك، في الواقع كنت أهابه، وأخاف من أمي التي كانت توبخني دائماً على سلوكي المستهتر وعلى طريقة لبسي المثيرة دائماً. كنت أرتدي غالباً ملابس ضيقة تظهر مفاتن بدني، حتى شوقي كان يقول لي: خففي استعراض جسدك يا فاتنة. ما من مرة احتج والدي على طريقة لبسي، ترى لماذا اتُّهم والدي؟ لماذا لا تكون دايتي هي الفاعلة، كي لا أفشي سرّ ما فعلته بي؟ لماذا لم تكن أمّي؟ من يغتصب يقتل، ليس من فرق كبير، لأن الاغتصاب نوع من القتل. لا أظن أن انقطاع أبي عني كل هذه السنوات أسباب كافية لاتهامه، لعلّه يغرق في الحزن الذي سببته له فضيحتي. حتى أمي ما عدت أسمع صوتها منذ زمن بعيد، ولا أنا رغبت في ذلك.

هناك، في بلدتي، قيل إنني حبلت من أستاذي، وهربت إلى بيروت. منهم من قال إن عائلتي تخلَّصت من عاري، وأن والدي هو الذي ضربني، ولكن ضربته لم تقتلني بل عمتني، وتلك مشيئة الله كي أبقى عبرةً للناس، هكذا أراد البعض أن يصور حياتي. منهم من قال إنني هربت مع أستاذي الذي اختفى أثره صبيحة اليوم التالي. أيضاً هناك من قال إنه عميل لإسرائيل ربما صفّته المقاومة في بيروت، ومنهم قال إنه هرب إلى الأردن. أسهل الحلول أن تخوّن أحداً في زمن الهيجان الثوري، الذي هو نوع متقدم من العماء.

هكذا اختفى شوقي من حياتي كاختفاء بصري، وفي الانفراجات التي كنت أعيشها وأرى جزئياً بقي هو كلي الاختفاء، كل ما روي عني وعنه يصلح فقط للأفلام. خيال الناس خصب حين تقع المأساة خارج بيوتهم، كلهم يصبحون روائيين وكاتبي مسلسلات، حتى أنّي كنت أصدق بعض ما يقال، ولعلَّ اتهام أبي ناتج عن خيال كخيال الداية عيشة أوقصة من قصص تاجر الأقمشة نبيل الحمصي الذي صار ماهراً في سرد

الأكاذيب بعد ضمور سوق الأقمشة وازدهار الألبسة الجاهزة. صار شارع حمزة في طرابلس والحمراء في بيروت كأنهما حلبة لعرض الأزياء. ضمر سوق الخياطين حيث كان أبي يفصِّل بزاته وعباءات المرعز وقمصانه الحرير، كان شابا جميلاً وصامتاً كأنه يخفي جرحاً في قلبه.

في ذاك الزمان كان الخيّاطون يتبارون في تفصيلاتهم. أشياء كثيرة أصابها الضمور والكساد، حتى عقول الناس وعواطفهم...

عندما سألت أمي مرة عن أيامي الأخيرة في المستشفى: من ضربني يا أمي؟ أقسمت لي على المصحف أنها لا تعرف. وحين أسألها عن والدي تقول إنه منذ تلك الليلة لم يعد يخرج من البيت ولا أحد يأتيه، حتى أنه عاف الشرفة وطلب مني أن أبيع الفرس والمهر وأرض السهل وأضع ثمن هذه الأشياء باسمك، وهو الذي أوصاني أن تسكني الشقة في بيروت.

هل هذا ثمن عينيّ؟ لا أدري.

في ذلك المساء حين وصلت أمي وجدتني مكوّمة على العتبة، كنت مغسولة بدمي، ربما صرخت ولكني لم أسمع صرختها، وربما بكت ولكني لم أرَ دموعها. حملتني، كما قالت، مع الداية عيشة، التي كانت في دارنا، وروز الحلبي وقادت أمي بنفسها سيارة الشيفروليه مباشرةً إلى مستشفى المظلوم في طرابلس. قال لهم الدكتور نزيه: سأحاول إنقاذها، إذا ما مشي الحال سأحولها إلى الجامعة الأميركية. وهكذا نجوت ناقصةً عينيّ تقريباً.

الموت أهون من أن يعيش الإنسان ناقصاً بعض جسده.

كنت أفرك عينيّ بعد كلّ دويّ؛ بعد كل انخطاف برق، كنت أحسّه ينفذ منهما إلى داخلي. بدأ الدويّ يشتدّ حتى بدا لي كأنّ من يفعل ذلك قد فقد السيطرة على آلة الموت فراحت المدينة تُمطَرُ بالقذائف بشكل جنوني، ولم أعد أستطيع أن أحدّد أو أميّز ما إذا كان ذلك قصفاً أم رعداً، ووللمرة الأولى كنت أسمع تلك الانفجارات الهائلة الدويّ، شعرت أن جسدي يتفسخ وأن الهواء يُسحب من رئتي، فارتميت أرضا وصرخت بأعلى بصوتي: يا الله... ياااااااا... فوقع الصمت طويلاً طويلاً، تقطعه استغاثات بعيدة وعواء كلاب جريحة ومواء قطط مصابة بالذعر والهلع. والريح تتابع نواحها دون كلل، تشتدّ وتخفت. كانت هذه الأصوات تعيدني إلي، تلملم شتاتي من الجهات وتضعني من جديد أمام وعيي وعجزي وحيرتي.

كلُّ شيء مصاب بالعماء هذه الليلة، القذائف هي أيضاً عمياء، والأصوات عمياء، تأتي من بعيد وتندفع في كل الجهات، تجد مساربها في شقوق النوافذ وتصدّعات الجدران، كنت أسمع بين حينٍ وآخر عواءً جريحاً يصبح أنيناً موجعاً حتى العظم، يبدو لي أحياناً عواء كلب مصاب وأحياناً أنين إنسان – الألم له صوتٌ واحد عندما يصبح في حدوده القصوى.

دويّ هائل لا بد أنّه اقتلع نصف مباني الوادي وقذفها في الفضاء فصار الركام يتساقط كأنّ السماء تمطره. حجارة ونوافذ وأبواب وقطع أثاث تتساقط على الأسطح والشرفات وعلى طول الشارع والأزقة المجاورة، لكلٍّ منها صوت ارتطام وتكسّر. أشياء أخرى تتساقط تبدو طريّة، ليّنة لا صلابة فيها، أظنّها أشلاء كائنات مزّقها الانفجار. لا أدري لماذا وجدت نفسي ملتصقةً بالحائط، كأنّي جزءٌ منه، تهيّأ لي أنّ البيت أصبح بدون سقف وبدون جدران، فقط بقي منه هذا الحائط الذي ألتصق به. أصغيت جيداً لأتبيّن ما حولي في فسحة من الصمت امتدت فوق نهايات الأصوات؛ أصغيت بكلي لأتأكّد من موضعي فيما تبقّى من البيت، أدركتُ أنّه ما زال قائماً بسقفه وجدرانه، وذلك من صوت الريح التي تتسرب من شقوق النافذة،

كأنّها الفجيعة. كانت تشتدّ أحياناً وتحمل أشياء وتدحرجها كأنّها تتسلّى بها وبي. صرت أتحسّس الحائط، ألمسه – كان بارداً كجسد ميت.

صمتٌ ممتد في العتمة فوق الركام كمرآة بدون عينين، بدا لي أكثر رعباً من القذائف، وتلك الريح، التي تصفر كأنّها تشطره وتشطرني، كلما صفرت من هذه الشقوق، ومنذ سنين، كانت تولّد في نفسي شعوراً من الغربة، أو الوحشة.

سامحك الله يا أمي...

لم أحقد على أمي، نعم لم أحقد، فقط حين أتذكّر ما فعلته بي أبكي، فقط أبكي وأشعر بالخيبة، وبالألم يجتاح حوضي ويصعد الحريق في سلسلة ظهري، كأنّي لم أتذكر ولم أنسَ، لأنّ ما حدث لي هو شيء متواصل ودائم، ألم لا شفاء منه، لذلك ليس للنسيان أي ممرّ في هذا الليل الطويل الذي هو ليلي وحدي. وعندما أتذكر لا يعني اني أتذكر ألمي، أتذكر أسبابه التي تضاعفه.أحياناً تلك الانفراجات التي أعيشها في عودة بصري كانت تسبب لي، هي أيضاً، ألماً إضافيّاً، فالأشياء التي كنت أراها في هذه الفسحات من الضوء، والتي كنت أسمعها أيضاً، لا تحتمل. كنت أرى المدينة تُهتك وتُغتصب كبدني، من ميليشيات الحروب وجيوش التحرير؛ كنت أشعر أن بدني هو الذي يُغتصب حين بدأوا نهب الحي الذي أسكنه. لا أدري لماذا والدي اختار التملك في وادي أبو جميل وليس في مكان آخر من بيروت. لقد اشترى هذه الشقة في أربعينيات القرن الماضي. كنت أسمع أنه كان مغرماً بامرأة يهودية هنا في هذا الحي، وأنه اشترى هذا البيت من أجلها، "عشّ الغرام" كانت أمي تسميه. في نهاية المطاف صار مأواي. ربما بقيت الوحيدة أنا وجيهان في هذا الحي من سكانه الأصليين: الآخرون هاجروا، والساكنون الجدد هنا مهجّرون ومنتحلو صفة المهجّر، وهم كثر وأعرفهم، وهذا أيضاً يسبّب لي ألماً وخيبة.

عندما وصلوا في عملية النهب إلى بيتي سمعت واحداً منهم يقول: "لا أحد يقترب من هذه الشقة، مفهوم؟"، أجاب حشد من الحرامية: "حاضر معلّم". لم أرَ وجوههم رغم أني كان باستطاعتي أن أراهم لكني فضّلت أن أبقى كأنّي في عمائي. عرفته من صوته هذا الثوري أبو لنبه الذي تولّى عملية النهب، وفي الوقت نفسه متولي عملية تحرير فلسطين بعد "تطهير الداخل من العملاء". كنت أشعر بالغثيان عندما أسمع هذا الكلام المنافق.

"يا ضيعانك يا بيروت!"، أقولها بحسرتين بحسرة المبصرة وبحسرة العمياء، أعرفها في الحالتين وأحبّها. كان والدي في كلّ صيف قبل الحرب يصطحبنا إلى بيروت، كنت أعشق ذلك، كنت يومها أنا والمدينة نتفتّح كالورد، قبل الحرب، قبل أن نهتك ونغتصب، كان الناس يذهبون للاصطياف في الجبال ووالدي يأتي بنا من جبلنا للاصطياف في بيروت، هنا في وادي أبو جميل، "بعكس خلق الله" كما كانت تقول له أمي. لا أذكر أنها كانت تفرح أو تستأنس في هذا البيت، كانت تقول لوالدي: "ما بحسو بيتي، شو محببك فيه؟"، بالطبع كانت تلمّح إلى حكاية الغرام. كانت ملامح والدي توحي بالشدة والجدّية، لا يعلّق على تعليقات أمي. كنت أتشوّق لمعرفة الحقيقة، لكن شخصية والدي لا تسمح لي بسؤال جريء يتعلّق بحكاية حب، ولو أني أعبد هذه الحكايات. هناك ألبوم من الصور خاص بوالدي برفقة كثيرين معه، نساء ورجال، كنت أقلّبه في ذلك الزمان وأتحرّر عن الامرأة التي يمكن أن تكون أو كانت عشيقته؛ صور قديمة تعود إلى فترة الأربعينيات والخمسينيات، هناك صورة لامرأة تجلس بالقرب منه على طاولة تضم آخرين، كأنّها في "عاليه"، في قصر أسمهان،لا أدري لماذا شعرت أنّها هي، لعلّها هي، تشبه ليلى مراد.

حين جئت بيروت، في أوائل السبعينيات، للاستشفاء، كنت في الغيبوبة، كان كلانا مصاباً، المدينة وأنا، كأنّي كنت أسمع صراخها، نعم كأنّها كائن مثلي موجوع ومهان ويصرخ. لا أذكر حين صحوت ماذا شاهدت، كنت أيضاً لا أرى. سمعت صوت أمي وصوت امرأة لا أذكر أني سمعته من قبل، لكنه ليس غريباً تماماً، له مطرح ما في بالي، قالت لأمي إنها ستعود غداً لتتفقدني، فشكرتها أمي بجفاء ولفظت اسمها: جيهان، جيهان!! لم أتوقع على الإطلاق هذه الزيارة، عرفت لاحقاً أن والدي أوصاها بي، غريبة هذه الوصية من والدي، كنت أعرف جيهان منذ طفولتي في زيارات الصيف، كنت ألتقيها كثيراً، كانت بالنسبة إلي ليست أكثر من جارة لنا، كانت أكبر مني، هي الأخرى تشبه ليلى مراد كثيراً، واكتشفت لاحقاً أنها تغني أيضاً، وهذا شيء عجيب، كأنّ الناس المتشابهين يحملون نفس المواهب. وعندما خرجت من المستشفى جاءت جيهان ورافقتني إلى البيت، لأنّ أمي كانت قد غادرت ولم تستطع العودة، لأن المعابر أقفلت، ولعلّني فرحت بذلك، لأنني كنت أرغب في البقاء وحدي، وصرت وحدي، وكان قدري أن أعيش حياةً كانت على البرزخ الفاصل بين الأشياء، وبدأت أسجّل ما أعيشه – تلك كانت سلوتي.

كنت لا أزال ملتصقةً بالجدار أحاول التقدم في عتمتي، أتحسّس الفراغ بأطراف أصابعي، ألمسه فيتراجع، يفرّ كطائر. نعم، للفراغ جسد لا أحد يراه إلا من هو مثلي، يراه كما أراه بأطراف أصابعي، كلما اقتربت منه ولمسته يفرّ أو يتراجع أو ينحني لأمر، فأمر ويسبقني ويحيط بي كالحرس. كأنّي أشاهد الفراغ.

لم يطرق أحد بابي هذا اليوم، شعرت أني وحدي بقيت هنا في هذا الحي المقفر. يا الله، كيف تستطيع التخلّي عن عبادك وتجعلهم في هذا الجنون، في هذا الموت؟

يبدو أنه لم يبقَ أحد سواي هنا في هذا الوادي اللعين، جميع الناس ناموا في الملاجئ أو تكوّموا في الطوابق السفلية، وأكثرهم غادر إلى القرى والأمكنة البعيدة عن بيروت. هي منذ الصباح تمطر قذائف، وكنت أتمهّل بانتظار فسحة هدوء كي أغادر، لأن عماي قد يقتلني فيما لو حاولت الركض للاختباء إذا اضطرني القصف على ذلك: كيف لأعمى أن يسابق الموت في الطرقات؟ الأعمى هو نصف مشلول في زمن الأمان وكامل الشلل في الحروب والمصائب. هذه هي المعادلة الثابتة، سامحك الله يا أمي.

ليتني مت.

كنت كلّما هممت بالخروج في فسحات الهدوء يبدأ القصف من جديد فأغلق بابي وأسند عكازي قربه، أتلمّس دربي إلى الكنبة، أعيد تشغيل الراديو، أنتظر الفلاشات، الراجمات تمطر بيروت مجدداً، تطال أماكن جديدة من العاصمة، الصنايع ومحيط برج المرّ، رغم ذلك كان بيتي هو الاحتمال الأكثر أمناً، لأنني أعرف أشياءه وزواياه، أقدّر حجمي في مساحته، أعرف موضع كل شيء فيه، غرفة نومي المطلة على الثانوية الأهلية، والكنبة التي أجلس عليها منذ سنوات، أعرف بابه الذي يفضي إلى سفرة الدرج، أحفظ عدد درجاته، كنت أعدّها في صعودي وهبوطي في أول أيام سكني، بعد فترة صرت أصعد وأهبط بدون أن أعدّ، صرت أصعدها بمهارة المبصرين حين أغرق في عتمتي وحين أبصر، أصعدها بحذر عمياء وذلك لخوفي أن أعود للعتمة مثلما هي حالي الآن.

قلت بيتي، أعرف موضع كل قطعة فيه في الحالتين، تدرّبت أن أفعل كل الأشياء بنفسي، قهوتي وطعامي وغسيل ملابسي وترتيبها ومسح الغبار وتلميع المرايا التي كنت أنظر إليها، كما كنت أفعل قبل فقدان بصري، كأنّي أرى وجهي حين أفعل ذلك. كثيراً ما ظننت أن عماي حلم طويل، لكن حقيقةً كنت أرى وجهي أحياناً، ويلتبس علي ذلك، يلتبس علي وجهي، أهرب منه، ألهو بشيء آخر لا يجعلني في الألم أو لا

يسبّبه لي، أحياناً كنت أعود إلى ألبوم والدي حين أكون في حالة الإبصار، فقط لأرى صورة تلك الامرأة التي تشبه ليلى مراد وتشبه جيهان أيضاً لأختبر بصري، كنت أتمعّن فيها حين تسعفني عيناي، وأعجب من شعوري نحوها الذي فيه مقدار من الشوق، فعلاً كأنّي أشتاق إليها كما أشتاق إلى طفولتي وشقاوتي مع أول رجل في حياتي – أستاذي شوقي، شاعري وحبيبي.

هذا اليوم لم يطرق بابي أحد، كما هي العادة في أيام مماثلة، أيام الرعب، حتى أنا لم أفتح بابي عند الصبح عندما سمعت جلبة الجيرة لأسال عن وجهتهم كي أنضمّ إليهم. لم أفعل أي شيء من ذلك، ولا هم فعلوا، حتى جارتي التي أوصاها أبي بي، جيهان التي عرفت أنها أيضا مذيعة وصاحبة برنامج "أصوات في الظل"، والتي تسكن فوقي، لم تسأل عني، ولم أسمع وقع سكربينتها على رخام صالونها وهي تستعدّ للخروج، ولا على السلّم بخطواتها الحذرة حين تهبط، ولم أسمع صوتها في الإذاعة، ارتبت حين انتظرت برنامجها تمام الثالثة ولم يُبث، عُوّض عنه واستُبدل ببرنامج آخر. راودني فضول أن أصعد إليها وأطرق بابها لكنّني تريّثت، قلت ربما يكون حبيبها عندها ومنصرفة له، كنت أشعر به حين يأتي ويمضي ليلةً من ليالي النبيذ، كما كانت تسمي ذلك، كانت تغنّي ويرافقها على العود، "أهل الهوى ياليل" و"الحب كده" و"ليه يا بنفسج بتبهج وانت زهر حزين". الله! الله كم كنت أطرب لصوت جيهان وكم كنت أرغب في أن أشاركهما الكأس والغناء، لكنّني كنت أخجل رغم أنها كانت تدعوني باستمرار.

مرة واحدة شاركتهم السهر والغناء والنبيذ، وفاض حنيني، وغنيّت حتى طلوع الفجر، وكانت فاتحة لأحداث كثيرة وقعت بعد ذلك في تلك السهرة. كان أيضا جاري عبد الجليل الغزال، شاعر من أصول العراق، واكتشفت أنه هو أيضا يغنّي، غنّى حينها قصائد لمظفر النواب وغنّى للجواهري "يا دجلة الخير يا أم البساتين"، كان يرتجل الألحان. حين غنّى في تلك الليلة قصيدة لطلال حيدر على طريقته، "لبسوا الكفافي ومشوا/ ما عرفت مينن هن/ يا قلب ما رح يرجعو/ يا قلب حاج تعن"، كرجت دمعة من عيني وأبصرته، كان مغمض العينين يغني من أعماق روحه. انتبهت إلي جيهان، هي كانت تعلم أنّني مصابة بهذا النوع من العمى الهستيري، وعلمت أنّني أبصرت وشاهدته، فقالت لي: ما أردّده غالباً في حياتي، الحب بيعمل عجايب. نعم أيتها الحبيبة الغريبة، الحب بيعمل عجايب. ربما جيهان شعرت أنّ شيئاً من الهوى قد هبّ في ليلة النبيذ تلك، ذكيّة جيهان ولمّاحة. هو أيضاً حين غنّى كان يغنّي لي، ولي تحديداً، كنت أعلم أنه يغنّي لي، عرفت بيقين من ذلك التيار الذي عبرني من ذلك الشيء الذي عصر أحشائي، منذ تلك الليلة تآلفت الأرواح.

كنت أسمع جيهان أحياناً بعض أشياء كنت أسجّلها بصوتي على أشرطة، هي قصص سمعتها وأخرى عشتها وأخرى من خيالي، وكانت على الدوام تشجّعني على نشرها، خاصةً بعد أن استضافتني في برنامجها "أصوات في الظلّ" وبثّت واحدة من هذه الحكايات التي نالت رواجاً عجيباً. كان رجائي لجيهان أن يبقى اسمي سرّاً لأنني أحببت أن أبقى في الظلّ، أن أبقى امرأةً مجهولة لا أحد يعرفها، تراوح بين الضوء والعتمة. كانت تقول لي: "حرام يا هدى أن تخفي هذه الموهبة النادرة". كنت أخاف لو فعلت أن أفضح سري، قلت لها مرةً: "انشريها باسمك، أنت أيضاً كاتبة ومشهورة". سكتت جيهان عندما قدّمت لها هذا العرض، لا أدري بمَ كانت تفكّر، قبل أن تقول لي: "هذا سرّك وهذه قصتك، أيضاً أنا لي سرّي وحكايتي. سأروي لك ذات يوم وأكشف لك هذا سرّي مثلما فعلت أنت، سأفعل ذلك قبل أن أسافر، سأترك معك وديعتي. انشري هذه القصص يا هدى، أرجوك أن تنشريها".

كان إصرار جيهان غريباً، كأنّ هذه القصص سترتّب لها، وليس لي، مستقبلاً باهراً، لقد قامت بنفسها بتفريغ الأشرطة وتحرير النصوص ثم طلبت من مدقق لغوي تصحيح الأخطاء. أعدّت المخطوطة للنشر، وذات يوم حملتها إلي وسلمتني إياها: "هذه لك، افعلي ما شئت بها". حملتها كأنّي أحمل كائناً هشاً، مررت أصابعي عليها برفق كأنّي ألمس وجه طفل، ثم دنوت منها قليلاً ورفعتها بالمقدار نفسه، فشممت رائحة الورق، منذ زمنٍ بعيد لم أشم هذه الرائحة، التي تذكرني بتلك القصائد التي كان يكتبها لي شوقي. يوم ذاك كان مصيري يحدّد مساره بدقة مع كل قصيدة، كأنّه كان يكتب السطور الأولى في قصة حياتي. كنت أشمّ الورق قبل أن أقرأ القصيدة بخطه الكوفي الرائع، كنت أعشق كلماته، يسحرني بصيغه في كتابة العشق، لأجل ذلك كنت أشمّ القصائد كأنّي أشمّ الورد. الآن أفعل الشيء نفسه، مع فرق فادح هو أنّني لا أبصر الكلمات بوضوح في هذه اللحظة. سامحك الله يا أمي.

حملتها، ضممتها إلى صدري كطفل. قلت لجيهان: "حياتي هنا على هذه الأوراق، أحملها بكلِّ أثقالها بين يدي، أيعقل؟ كم تصبح حياتنا خفيفة عندما تتحول إلى كلام، خفيفة كالهواء بأفراحها وأحزانها، بألمها، بانسيابها وبتعثرِّها، كأنّها لم تحدث، كأنّها حلم". احترت يومها أين أضعها، خفت أن تضيع أو تقع بين يدي غريب. قالت لي جيهان: "كي يطمئنَّ بالك أنها لن تضيع انشريها على الفور، هكذا تصبح محفوظة إلى الأبد في بيوت الناس". فعلت بوصية جيهان، ولكن بعد حين، ونشرتها باسم مستعار: تالة سويحان. لا أعرف إذا كانت هناك امرأة في هذا العالم تحمل هذا الاسم، وعاشت التجربة نفسها التي أروي عنها، لا أستطيع أن أتخيّل ماذا سيحدث. على كل حال، نشرت مجموعتي القصصية الأولى بهذا الاسم، تالة سويحان. ساهمت جيهان في الترويج لها، وكتب عنها كبار النقاد، وأصبحت تالة سويحان إليزابث اللندي العرب، وصرت أدعى إلى المؤتمرات التي تخص الأدب النسائي أو النسوي، كم كنت أكره هذا التمييز. كانت جيهان صندوق أسراري وبريدي، لا أحد يعرف من هي تالة سويحان سواها وسوى صديقي الرسام شمس. وشمس فيه شيء غير اسمه من شمس التبريزي، صفاء روحي خام يحتاج يد معلم لتصقله كي يصل. كنت أقول له ذلك فكان يجيبني: "أنا أعشق الحياة والكأس والجنون، لا أريد أن أصل إلى مكان". شمس هو الذي صمّم غلاف المجموعة وضمّنها بعض الرسومات، وشجّعني أيضاً على المشاركة في هذه المؤتمرات التي كنت أعتذر عن حضورها لأسباب أؤلِّفها، أي أخترعها، أي أكذب.

كنت لا أريد أن يعرف أحد أنّ تالة سويّحان هي هذه الامرأة النصف عمياء... ولكن بعد نشري لروايتي **امرأة الضوء**، التي نالت جائزة الكاتبات، صارت جيهان تحفزني لحضور هذه المؤتمرات فحضرت مؤتمراً يتيماً في في القاهرة، الشيء الوحيد المهم الذي فعلته هناك هو أنّني شتمت تلك السيدة التي لا أذكر اسمها، والتي قالت إن قصة فقدان عذريتي عمل مقلّد للكاتبة الإنكليزية فيرجينيا وولف، وأن أسلوبي مستعار من بول أوستر. قلت لها: "أنا لم أقرأ هذه الكاتبة، ولا حتى بول أوستر، توقفت عن القرأة منذ زمن بعيد، ليس بسبب أميتي بل بسبب فقدان بصري، ولكن يبدو أنك أنت العمياء ونصف أمية لأنك لا ترين ولا تقرأين". عرفت من لهجتها أنها من بلدياتي، كما يقول أهل مصر، لبنانية، كأنّي أذكر أنّني شممت رائحة كريهة حين تحدثت عن قصصي بتعالٍ وبتصنّع مفرط. لاحقاً قرأت تلك الكاتبة الإنكليزية فيرجينيا والسيد أوستر، وسوف أروي كيف صرت أقرأ. لم أعثر على شبه أو تقليد. يبدو أن هذه الناقدة تحفظ أسماء الكتّاب والنقّاد وتزجّهم في معاركها، واضح أنها امراة مغشوشة، وأعني مزوّرة، تدّعي ما لا تعلم ولا تعلم أنها لا تعلم.

"أنا تالة سويّحان. أنا لست أديبة، أنا أروي"، هذا ما قلته في ردّي عليها. أنا أروي مثلما أروي الآن قصتي مع الرجل الآخر الذي أحببت، أحكي وأسجّل، وما زلت أسجّل ما أرويه على أشرطة، حتى بعد خروجي من القوقعة، من عتمتي. أستمتع بذلك، متعتي تفوق الوصف عندما أضع آلة التسجيل وأبدأ بالسرد كأنّي أبحر في أعماق البحر أو أطير في السموات في هجرة من بلاد إلى بلاد... لا أعرف كيف تطورت عندي هذه الموهبة بحيث صارت آلة التسجيل بالنسبة إلي قلمي وحبري وورقي، وصار لدي منها أشكال وأنواع وأحجام، آخر ما اقتنيت كانت على شاكلة القلم. أما حنيني فهو للأولى، التي كنت أسجّل عليها قصائدي اليتيمة لشوقي.

كثيرون الذين يفضّلون الاستماع إلى قصصي مسجلةً. كانو يقولون لي: "صوتك رائع وعذب، يجعلنا نشعر بروحك". الرجال خاصةً كانوا يقولون: "إنّ صوتك مثير، وعندما تصفين المواقف الحميمة، حمّى القبلات وخفقات القلوب وانزلاقات الأيادي، لا نخفيك يا تالة، نصاب بالحمّى. لكن كيف لك أن تصفي أشياء تستدعي أن تريها بعينيك؟". كنت أجيبهم: "هذا سري"، جواب مفتوح، غامض، يحتمل أكثر من احتمال وتأويل. لكنهم كانوا ينسون أنّني لم أولد عمياء وأني أرى بين حين وآخر. شمس الرسام، صديقي، كان أكثر جرأةً في وصف صوتي، كان يقول لي: "صوتك لا يثيرني أنا فقط بل يثير حتى اللوحات، بس إسمعو بمارس العادة العلنية!"، يضحك شمس، يضحك ويضيف: "حتى فتيات اللوحات اللواتي يتأرجحن عاريات بقوس قزح، كنت كلّما شغلت آلة التسجيل على تلك القصة التي تصفين بها جسدك في صعوده نحو الذروة، كنّ يلهثن ويخرجن من أطر اللوحات ويطرن في البعيد". جميل خيال شمس ومجنون. هو أيضاً كان يقول عني: مجنونة، أحب جنونك. وأنا أيضاً أحب جنون هذا الشمس.

نعم أنا مجنونة، لكني أحبّ هذا الجنون الذي أنا فيه؛ أحبّ أن أروي وأسجّل. كأنّي حين أفعل ذلك أغتسل وأخفّف هذا التوتّر الذي يعصف بي.

كتاب العشق والأحزان

أنا الآن أسجّل ولا أعرف كيف تأتي هذه الأشياء؛ كيف تمرّ في البال؟ شممت رائحة بارود تلتها رائحة جسد ذكوري. شيء عجيب ما يحدث لي.

كان شريط وقائع هذا اليوم الجهنمي يمرّ ويتداعى إلى وقائع أيام أخرى. تتقاذفني التوقعات وتتصادم أفكاري ومشاعري، كأنّها هي الأخرى مصابة بالعماء، تتخبّط وتتصادم ثم تتلاشى لتتوالد مشاعر أخرى تؤرجحني في عتمتي كدمية معلقة بخيط في وسط العاصفة.

انتابني شعور بأن جيهان قد سافرت دون أن تعلمني بذلك، عندما تذكرت ما قالته لي عن سرٍّ ستكشفه لي قبل سفرها، وأنها ستتركه عندي وديعة، وشعرت برغبة البكاء. ثمّ أنّ غيابها هذا اليوم عن الإذاعة رجّح هذا الاحتمال، لذلك فكرت بالصعود إليها لأتفقّدها.

وجدت نفسي في نهاية تبياني لحدود ما يحيط بي، وأنا أتبع يدي التي تسبقني كأنّها كائن منفصل عني، يمهّد طريقي، يزيل من أمامي عوائق، يدلّني على الخطر ويجنّبني الوقوع فيه. يدي هي صديقي الذي لا يخون، تنام معي، تغمرني، تلمس أنحاء جسدي، تتفقده من أوّله لآخره، تفعل كل ما أريده منها، تتعب ولا تشكو، هي عكازي ورفيقي، هي عيناي المعلقتان في طرفها، أبصر بها ما لا أبصره بعينيّ الحقيقيتين حين تتوقفان عن الأداء، وحين أبصر تعود يداً هادئة تنتظر أمري وطلباتي. وجدت نفسي قرب باب المدخل، هممت لأفتحه لأنادي على جيرتي: "يااااا هووووو... يا جيران وينكن.... يا جيهان، يا رندة". فكرت أن أصعد إلى جيهان، وضعت يدي على المزلاج، وقبل أن أسحبه لا أدري ما الذي حدث، وكيف أصبحت دفعة واحدة خارج البيت، هكذا طار جسدي، لا أدري كيف، شيء ما اختطفني ورماني ككرة، لم أسمع دويّاً بل أحسست بانهيار وسمعت هديراً وصفق أبواب.

ثم وجدت جسدي مطوّقاً بذراعين، عرفت بالغريزة أنهما ذراعا رجل، عرفته من رائحته الذكورية ومن جسده الصلب، التقطني ككرة سقطت في مرماه... يا إلهي! ما الذي جاء به إلى هنا! لا أحد في هذا القفر سواي، لا يوجد رجال في هذه البناية سوى الحاج منير وزوجته لطيفة، لقد غادرا منذ ليلة أمس مع ابنتهما هبة، وجاري عبد الجليل، الذي يسكن قبالة بابي، غاب منذ فترة طويلة منذ تلك السهرة في بيت جيهان، لم أعد التقي به، كعادته كان يغيب فجأةً، وكنت أحزن عندما يغيب. أشعر بنقص في أعماق روحي، لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه صحافي وشاعر مقلّ. قال لي أكثر من مرة إنه يعلم أنّني كاتبة سرِّية. يتقصّد كلمة "سرية" للمزاح، ويضيف: "الكتابة هي السرّ الوحيد المعلن...". كان يسعفني في حمل بعض الأغراض عندما نلتقي صدفةً في مدخل البناية، أكون عائدةً من السوق بأكياس من الفاكهة والخضار، ويكون عائداً من جهاته المجهولة. كنت أحبّ لهجته الغريبة، لهجة فيها انكسار وشوق. هو أيضاً لم يسألني مرة عن مصدري وحياتي، كأنّه يعرفها وكأنّنا متواطئان على علاقة غامضة وعلى شيء خفي. أدعوه ويدعوني لتناول فنجان قهوة، أيضاً كنا نؤجل ذلك لوقت آخر قريب. كنت أشعر أنه، عندما يحدثني ونحن نصعد السلم، يتأمّل عنقي وتسرق عيناه صدري. كنت أشعر بذلك ولكنّني لست متأكدة، إنما كنت أشعر أن شيئاً غامضاً كالهواء يلمس ثديي وعنقي، تماماً في موضعٍ تحت أذني. كنت أشعر بذلك، وكان ينتبه إلى أنّني تحسست موضع عينيه فيشيح بنظره بعيداً. أعرف أنه فعل ذلك من تلاشي شعوري بالمسّ الذي أصاب

ثديي أوعنقي، هذه معادلة عجيبة لا أحد يستطيع فكّها. كنت قبل أن التقيه في سهرة جيهان أتخيّل شكله ووجهه ولون عينيه وقامته وشعره على النحو التالي: رجل متوسط الطول، أسمر، عيناه خضراوان، قليل الشيب، على فمه ابتسامة دائمة. عندما أبصرته في تلك الليلة، عندما كان يغنّي، لم يكن بعيداً عن هذه الصفات. يبدو أنّ الحبَّ يجعل المرء يبصر بروحه. الحب بيعمل عجايب!!

على كلّ حال، استبعدت احتمال أن يكون أحداً من جيراني هو هذا الرجل الذي وقعت بين يديه على سفرة الدرج.

للوهلة الأولى لم أشعر بخوف إضافي عمّا أنا عليه، أظنّ أنّني كنت على آخر درجات الخوف أو الرعب الذي هو الذهول. ثم إن طريقته في احتضاني أوحت إلي بشيء من طمأنينة حذرة: يد تُطوّق عنقي وأخرى تلفّ خصري، نصف صدري لصيق صدره وخدي لصيق خده، احتضانه لي أبويٌّ في ظاهره، فيه حنوٌّ وشوق. لا أدري إذا كنت أشعر فعلاً بذلك. تململت بين يديه لكني لم أحاول الفكاك منه ولا تململي أوحى بشيء من هذا بالنسبة إليه. هو أيضاً لم يبادر، لكنّني شعرت أن توتّره قد خفّ، عرفت ذلك من ارتخاء يديه، وكأنّ تواطأً تمّ بين جسدينا بدون علمنا. لم أسأله من أنت، وحين فكرت بذلك خفت أن أعرف من هو، ولم أرد أن أخمّن من يكون هذا الرجل الذي وقعت بين يديه في هذه الليلة العمياء. أردت أن تبقى الأشياء غامضة تشبه المنام. على كل حال حتّى لو قال لي أنا فلان، أنا هيثم الكهربجي جئت لأصلح غسالة جيهان، أو أنا الحاج نقولا أستاذ التاريخ في المدرسة الأهلية جئت لأعلم بنت رندة دروسها الخصوصية. (رندة هي جارتي في الطابق الرابع، مطلّقة، كانت ضحكتها تسبقها، هي جرس قدومها ومغادرتها، تضحك لكل شيء، للبشر والقطط والكلاب. غريب! تذكرت أنّني منذ أيام أيضاً لم أسمع ضحكتها). على كلّ حال، لو قال لي أنا فلان قريبك، ولم يسبق لي أن سمعت صوته، هل هذا كافٍ بالنسبة إلي؟ كيف لي أن أصدّقه في هذا التعريف الناقص؟ أسماء الناس بالنسبة إلي هي أصواتهم، في حالة الغياب الكلّي لبصري، الاسم الذي لا أعرف صوته، وأعني صوت صاحبه، لا يطمئنني بل يضعني في الشك ويجعلني أكثر حذراً وخوفاً. أسماء من أعرف هي أصواتهم وأحياناً روائحهم، وإذا كانوا جزءاً من حياتي أعرفهم حين ألمسهم، يدي تقول لي، أصابعي وهي تتحسس البشرة وتقرأ التفاصيل تقول لي هذا فلان.

أنا الآن في عتمتين، كيف لي أن أرى.

غريب! أحببت أن يبقى هذا الرجل مجهولاً، تمنّيت أن لا ينطق بحرف واحد، كي أبقى في هذا الغموض وأن يبقى ما حدث وما قد يحدث سرّاً.

ظننت أنّني متُّ وأنَّ حياتي كانت تعبر أمامي، وأنّ ما أراه هو جثتي بين بين يدي رجل، لكن كيف أشاهد نفسي وأنا عمياء؟ ترى هل الأعمى عندما يموت يعود إليه نظره كي يلقي نظرته الأخيرة على دنياه؟ لكنّني لست عمياء تماماً.

صمتٌ مريب، امتدّ فوق جسدي، جعل رائحة جسده تنفذ إلى داخلي، اختلط شعوري ما بين الرعب والاستسلام، كأنّ رغبتي في أن يبقى هذا الرجل مجهولاً خفّت. اجتاحت بدني موجة باردة فارتعشت وتسارعت ضربات قلبي. وصلته الرسالة، أدرك أني خائفة، تسرّبت رعشتي في خلاياه، فطمأنني للتو: "لا تخافي يا هدى". يا إلهي! إنه يعرف اسمي. تسرّب هذا الصوت إلى ذاكرتي، أعرفه، صوت دافئ فيه اغتراب وحزن. "لا تخافي"، وحاول أن يفكّ يديه. دويٌّ آخر جعلني أكثر التصاقاً به، كان قريباً وهائلاً، شعرت من شدّته أن جسدي امتزج بجسده، ولا أدري كأنّني لمحت وجهه، هذا يعني أنّني أبصرت، أو هكذا تهيّأ لي،

شاهدت وجهه وعيناه تلمعان. كنت في قميص نومي أرتدي فوقه معطفاً أشدّه على وسطي بزنار، لكنّني شعرت في تلك اللحظة أنّني عارية. تململت بين يديه لأعرف ما إذا كنت عارية حقاً، شيء ساخن سقط على عنقي وكرج بين نهديي، شممت رائحته، يا إلهي، دم! سألته: "أنت مجروح أم أنا؟ في دم على رقبتي"، فقال: "لا تخافي، أظنّه خدشاً خفيفاً في خدي"، ثم اعتصرني قليلاً. انتابني شعور بالنشوة والرعب، شيء فوق الوصف، كأنّي عرفته، لكنّي لم أسأله لأتأكد أنه هو، ولا هو قال لي أنا فلان لظنّه أنّني عرفته فلا داعي ليذكّرني باسمه. تلك المخاطبات الصامتة معادلات يصنعها التوجّس. عرفته من صوته، وصوته الشيفرة التي تفتح على وجهه.

حاولت الفكاك من بين يديه لتدبير أمر خطوة ما، لا أعرف ما هي بالتحديد، كيف لي أن أعرف ماذا علي أن أفعل وأنا في هذه الحال؟ من يستطيع أن يعرف الخطوة الأولى عندما يصبح في الفراغ الكلّي ليس أمامه ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره جهة أو درب أو مسرب؟ من؟ هذا في حال كان مبصراً، فكيف إذا كان أعمى وفي العتمة وتنتظره عتمة ثالثة؟ تذكّرت والدي في تلك اللحظة، افتكرت أنه كان عليه فعل أي شيء لحمايتي عندما سببت لي أمي ما أنا فيه الآن. حاولت إعادة معطفي إلى وضعه السابق على جسمي، لم أستطع، كان نصفه تحت جسده وليس لدي قوة على سحبه، ثم أني لم أصرّ على ذلك، شعرت بخدر في يديي.

دويٌّ آخر أعاد جسدي إليه فالتصقت به، اختبأت فيه، نعم اختبأت فيه،... شعرت أنه هو ردائي وبيتي وجداري الأخير وسقفي الأخير وأرضي الأخيرة في هذه اللحظات. "لا تخافي"، كان يكررها بعد سقوط كل قذيفة، "لا تخافي" ويعتصرني، وأشعر بحرارة جسمه تسري في لحمي. كانت يده تطوّق عنقي بحنو، لا تتمادى في اللمس بل كانت تبثّ دفئاً عجيباً. ربما انتابه شعور مماثل، بحاجته إلي، فأصبح كل منا كأنّه في حياد عن أداء جسده في فعله وفي ردة فعله. كانت يداي أيضاً تطوقان عنقه، وجدته ساخناً ورطباً. "هنا في دم؟"، سألته. "لا تخافي، كما قلت لك، جرح بسيط في وجهي". تلمّست خده، عثرت على الجرح، هنا، ضغطته لأوقف النزيف. "في وجع؟"، سألته. أجابني بصوت مكسور: "شوي، لا تخافي".

هذا هو، هذا صوته، أعرفه وأشتاق إليه، نعم كنت أشتاق إليه وأفتقده كثيراً حين يغيب، لا أدري إذا كان يشعر بذلك، ربما كان ينتبه حين يلتقيني صدفةً في مدخل البناية بعد غياب طويل، يحييني وأجيبه: "أهلاااان بالجار، طولت غيابك علينا، موحش الحي بغيابك". أظنّ أنّ هذا الصدق في التعبير كان يصله كاملاً، ودائماً كان يجيبني: "أنت دايماً في البال يا هدى"، أحبُّ اسمي حين يناديني به. على كل حال نحن الآن هنا، على سفرة الدرج التي تفصل بين بيتينا. كثيراً ما كنا نقف هنا بعد رفقة صعود الدرج وكلٌّ منا يدعو الآخر: "تفضلي"، "لأ، تفضل أنت"، ثم كلٌّ منا يشكر الآخر ويدخل وحيداً إلى عزلته وعالمه، وكنت أدخل وحيدةً إلى عتمتي وأواصلها. كنت أبصره أحياناً، لكنّي لا أدري إذا كان ينتبه إلى أني أبصره، فهو يتعامل معي في الكسوف، في البين بين.

كان الصمت الذي يلي كل انفجار يجعلنا في حالة من الارتباك والريب، نحاول الانفكاك بتململ متواطىء ليعيد التحامنا من جديد دويٌّ آخر.

لا أعرف سابقاً هذا الشعور، مزيج من الخوف والشهوة والترقب، أذكر شيئاً مشابهاً، حدث قبل عشرين سنة، حين فقدت عذريتي، لكنّه كان شيئاً آخر وفي زمن آخر ومكان آخر. الدم الوحيد الذي سال يومها هو دمي، والجدار الوحيد الذي تداعى يومها هو غشاء عذريتي، والصوت الوحيد الذي سمعته يومها هو صوت

شوقي، صوت يرتعش وهو يقول لي جملته القاتلة: "أنت عمري وحبيبتي وأنثاي وامرأتي وحوائي وسمائي وأرضي"، هذا ما كنت أسمعه في العناق الطويل، بعد ذلك كان لهاثه وصهيل الفرس حين صرخت من ألمي، ثم عمّ الصمت طويلاً ونحن نحدّق في سماء صيفيّة عالية الزرقة ودانية كالحلم. كان خوفي محدداً وواضحاً يومها، هو أن تعرف أمي ويعرف والدي فعلتي، وكان ألمي أيضاً مؤقّتاً سيزول عاجلاً، لكنّه يومها تضاعف بعدما علمت أمي وارتكبت حماقتها. الآن كل الأشياء تقف على نهايات وجودها؛ على حافة فنائها؛ حياة كاملة في قبضة الموت؛ مدينة كاملة تنهشها الحرب وتطحنها، أسمع صراخها يفلع جدار الليل، وجدار عتمتي. لا أعرف إذا كان يراني في هذه العتمة الضاغطة على سفرة الدرج، ربما الوميض الذي تحدثه القذائف يضيء بعض جسدي أمامه، أنا تقريباً نصف عارية، نصف واعية نصف غائبة، نصف مستعدة للشهوة نصف مستعدة للموت، كأنّي على برزخ بين الشيء ونقيضه، أو أصبح كذلك عندما يعمُّ الصمت بعد تلاشي الدويّ. لا بدّ أنّه لمح وجهي على الأقل، شاهد خوفي في ملامح وجهي، كم كنت أحبُّ وجهي، منذ زمن لم أره بشكل يقيني، كنت أهرب منه في المرآة عندما يعود إليَّ بصري، كأنّي نسيت ملامحه، أخاف من هذا النسيان، يرعبني، أنا فعلاً، كلما حاولت استعادته كأنّي أستعيد وجه امرأةٍ أخرى، كأنَّ وجهها أخذ مكان وجهي في ذاكرتي، هي الداية عيشة التي ولّدتني، هي التي سحبتني من العتمة إلى النور، وهي التي أعادتني إليها بعد سبع عشرة سنة.

ما زلت في عتمتين.

كانت حياتي تمرُّ أمامي وأنا في غمره على سفرة الدرج، وكنت أشعر أنّني مت، وأن الذي يحدث هو أنّني أرى نفسي من على البرزخ، بين الحياة والموت. أردت أن أسأله إذا كان يراني يرى وجهي تحديداً، لا أعرف كيف صار وجهي بعد سنوات في عيون من أهوى، أحببت أن أسأل هذا الرجل الذي يضمّني كطفلة مذعورة تائهة، لكنّ دويَّ القذائف كان يشظّي أفكاري ورغباتي.

أحياناً تنتاب الإنسان رغبات غير مفهومة في لحظات يبدو فيها حتى التفكير أمراً مستهجناً. تمنّيت أن لا يتوقف القصف وأن تطول هذه الحالة، أخافني هذا الشعور. كيف لي أن أتمنّى المزيد من الموت والدمار والرعب، الموت الذي قد يطالني ويطاله وأنا بين يديه، كأنّي رغبت في هذه الميتة؛ في هذه النهاية. زعيق سيارات الإسعاف وحدها في ليل المدينة كان يوحي لي أنّ العالم ينشطر ككرة إلى نصفين، غريب هذا الشعور الذي لا يدوم إلاّ للحظات، كان يبدّده تماماً ما كنت أرغب فيه هو دويٌّ آخر يضعني في مواجهة مصيري، ويلحُّ علي الشوق لرؤية وجهي لتذكُّره أو لمشاهدته كاملاً وبوضوح لكأنّي أريد أن أراه لأودّعه كآخر كان مني. كانت جيهان تقول لي إنني اليوم أجمل من زمان، أظنُّ هذا الكلام، الذي يقوله الجميع عن الجميع، هو نوع من المواساة، كي لا تأكلنا الحسرة على زمان.

عمَّ الصمت كأنَّ الزمان توقّف عن السيلان. لا أسمع سوى نفسي ونفسه، ووشوشة بقايا عاصفة وبقايا حرب...

تجرّأت وسألته: هل ترى وجهي؟

– أحياناً، عندما تبرق.

– أنا لا أذكر وجهي، كيف هو؟ في الحقيقة أنا أذكره لكنّني أحببت أن أراه في عينيه.

– زاده الخوف شيئاً أشتهيه، هكذا قال لي ثمّ شعرت بنفسه يدنو من وجهي، ويده التي تطوق عنقي ترفع رأسي باتجاه مصدر أنفاسه. إستسلمت، فدنا أكثر من فمي، تهيّأت له، انفرجت شفتاي لاستقبال ما

تشتاق وما يشتهي، وبدأ القصف. حملني وهبط إلى الملجأ حيث المكتبة، كنت أسمع لهاثه كأنّه الموج، مددني على فراش في ركن بين الكتب، ليس من أحد في هذا الليل سوانا في هذا المبنى المهجور، حضنني وشمّني، شمّني كثيراً كما يفعل العاشق المشتاق، كما تشمّ الأمّ رضيعها حين يدنو من صدرها ليرضع الحليب، راحت يده تزحف وتنزلق نحو نهديّ المتحفّزين خلف قميص النوم، مرّ بأطراف أصابعه فوق الحلمتين، ثم شعرت بلهاثه يقترب من نهديّ، وحين شعرت بشفتيه تلتقطان حلمتي عبر بدني تيار فارتجَّ وتدافعت من أعماقي آآآآآآه حارقة، شممت رائحة حليب وعشب يابس، أخذني أكثر إليه.

لا أعرف لماذا تذكّرت فرس والدي حين اعتلاها المهر، هكذا اعتلى جسدي كمهرٍ جامح، كأنّي أبصر عينيه أحيانا، تلمعان حين يتسرّب من المنور البرق، كذاك المهرالجافل، تذكرت فرس والدي كيف استسلمت في النهاية، بعد أن شدّوا وثاقها وتمسّك بها الرجال من عنقها وغرّتها الذهب، اتّسعت عيناها وصهلت خوفاً ورغبة ثم استسلمت لمهرها.

صار يفترسني لكنّي لم أشعر بألم، كنت أحلّق في عتمة بيروت فوق المدينة. بدأ من عنقي، من الزاوية التي كنت أشعر أنه يحدق فيها حين كنا نلتقي في مدخل البناية، بدأ من تلك الزاوية وهبط نحو نهديَّ. تركته يفعل ما يشاء، لم أقاوم بل كنت أعطيه ما يشتهي. أمسك نهديّ وأطعمه، يدي الأخرى تسرح في وهدات جسده، نسيت أين نحن، كان يحملني، مرةً يضعني على فراش ومرةً على كنبة، مرةً شعرت أننا في العراء، كان يعضّ أنحاء جسدي برفق، وحين عضّ حلمتي أصدر صوتاً نهماً، فعبرني تيار من أولي إلى آخري، ثمّ شرب من مائي وسقاني منه، سكرياً كان طعمه، زاد من هياجي وجنون شهوتي، أشعلني، لم أعد أسمع قصفاً ولا رعداً، كنت أسمع لهاثه، أشعلني وجنّنني، وحين وصلت الذروة صرخت عالياً، أعلى من الدوي: ياااا الله يااااااااللللللله ياااااااا، وتلاشى صوتي وأبصرت. ياااااااااااللله...

أبصرت. نعم أبصرت بشكل كامل، وليس كالمرات السابقة التي كنت أرى فيها الأشياء غبشة،لا أحد يصدق أنّني أبصرت، لقد عاد لي بصري. شاهدت ضوءاً خافتاً في البعيد بدا لي نجمةً مختفية خلف الغيم تظهر وتختبىء، هي نفسها التي كنت أشاهدها من نافذتي في بيت أهلي. وددت لو أستطيع أن أخبر أبي بأني شفيت تماماً، ولا أعرف لماذا أردت أن أخبر أبي وليس أمي!! كنت بين يديه. التفتُّ نحو وجهه كأنّي أعرف هذا الوجه، ليس بعيداً ليس غريباً، وجه أليف، لم يكن واضح الملامح تماماً، في ظلال ضوء يتسرّب لا أدري من أين، لكنه هو الذي في مخيلتي ربما، كان مبتّلاً بالعرق وخيط نحيل من الدم على خده...

هدّني وهدهدني، هدّأ اشتعالي وصرخاتي، وجدت نفسي في مكان غريب يشبه بيتاً أذكره. قبل ذلك كان يحملني ويصعد بي سلماً، شاهدته يحملني، نعم شاهدت نفسي بين يديه، ظننت أنّني في حلم أو أني جننت أو أني أهذي من الحمّى التي كانت تجتاحني في أيام عمايَ الأولى، ربما عاودتني. لكني كنت أردّد طوال الوقت جملةً واحدة: "صرت شوف يا بيي... صرت شوف يالله".

لست متاكدة من شيء.

شاهدت شمعةً يتراقص ضؤها، وأنا بين يديّ رجل لا أعرف اسمه، أعرف صوته. مدّدني على السرير، جلس بقربي، أمسك بيدي، كان يمطر عرقاً، وكنت ألهث كأنّي وصلت بعد جري طويل.

ربما هذا الذي أرويه يظنّه البعض من صنع خيال أو شيء يصلح للأفلام، أنا أيضاً لا أصدق أن هذا حدث لي.

لست متأكدة من شيء لكنّني أبصرت.

الفرس

كنت أركب فرس أبي إلى النهر، في ربيع أيام صباي، أتركها ترعى العشب وتعبّ الماء من بركة سوّيتها لها خصيصاً في النهر. كان شوقي ينتظرني هناك تحت شجرة الميس يقرأ لي القصائد التي يكتبها، وكان يسمّيني "الفرس"، وكنت أنتشي بهذا التشبيه، أفرح به. ليس وحده من شبّهني بالفرس، عندما كنت أصل المدرسة في الصبح مع شلعة من الفتيات. كان الملعب يصهل كأنه قطيع من الخيل في البراري، يجفل ويصهل ويضرب الأرض بالقوائم ثم يعدو ويطير... هكذا كان يفعل الطلاب، فيروح الناظر يصفّر لهم كأنه يوردهم الماء قبل أن يقرع الجرس ويعتلي المدير منصّةً سوّيت خصيصاً لغرض السيطرة، فيعمُّ الصمت. كانت أمي أيضاً تقول لي: "فيك شيء من أطباع الخيل، بس حُسن بدون عقل شو بينفع صاحبو، ضيعانك".

لا أعرف سبب حسرة أمي على جمالي، لا أدري فعلاً لماذا تشعر أنّني غير أهل لهذا الحُسن، كما تسمّيه، كأنّه ثروة نادرة لا أحسن إدارتها وأبدّدها باستهتار. عجيب أمر أمي، صوتها دائماً معلّق في رأسي ينبّهني على صون عذريتي باعتبارها هي جواز السفر إلى كندا، وهي الجدار الذي يحمي العرض من السقوط ويمنع الأعداء من غزو البلاد. كنت أُشْبِه أمي في بعض خصالها؛ في تسريحة الشعر وربطه إلى الوراء بحيث يُعطي عمراً أقل؛ حركة يدها وهي تتحدث كأنّها ترسم الكلمات، كنت نسخة عنها في المظهر من الخارج ولكنني في العمق كنت أشبه نفسي فقط، وانتزعت لها مساحة من الحرية أعدو فيها كفرس والدي، وجدتها أمي كثيرة على فتاة رعناء مثلي فكانت تحاول انتزاعها مني، اغتصابها، أعني حريتي، ربما كانت ترى في سلوكي بعضاً من صباها فتمارس عليّ سلطةً ذكورية تنتقم لماضيها في قمعي.

بكلِّ الأحوال، ساحرة تلك الأيام، أجمل ما فيها تلك الأصائل على ضفتي النهر، كان شوقي يقرأ لي الشعر وكنت أراقب شفتيه. كانت الكلمات تخدّرني، تأسرني وأستسلم. بعد أيام وبضع قصائد صار يقبّلني في فمي وأذوب، نعم كنت أحترق وأذوب، أتلاشى بين يديه. بعد بضعة أيام ذاق نهدي، جننت، شعرت حينها أنّ تيّاراً عبرني ثم أصابني ما يشبه الخدر، واشتهيت أن يضمّني أكثر، فعل ذلك واعتصرني، فبادرت إلى شفتيه، عضني من شفتي السفلى، كان يشتهيها، ثم عضني من حلمتي، صرت في أتون الرغبة، شعرت به يفكّ سحابي، خفت لكني لم أقاومه، تركته يفعل ذلك، داعب بإصبعه بين فخذي، ارتجّ بدني، وودت لو يدخل بي لكن صهيل الفرس المباغت لجم الرغبة.

"أنت لي، أنت لي"، كان يقول في حمّى القبلات. كثيراً ما كنت أراوغه ويركض خلفي في تلك الجلول المحيطة بالنهر.

مرةً قلت له: "أنا فرس لم أروّض، سأعدو في سهل القمح إذا قبضت عليّ أفعل بي ما تشاء، روّضني". مجنونة كنت، مجنونة وأحبه. كان يضمّني كعادته، يسند رأسي إلى قلبه، يسرّح شعري بأصابعه ويترك يده أحيانا تنزلق نحو حلمتيّ، كم كان يثيريني ذلك. وافق على شرطي: أن أكون الفرس وعليه ترويضي، ورحت أجري على ضفة النهر أقفز من ضفة إلى أخرى ومن جلّ إلى آخر، حيث تمتد حقول من القمح على أول اكتناز سنابلها. كنت أختبئ حين أتعب في جوف جذوع شجر عتيق أو أتمدّد بين السنابل، لا أحد يأتي في هذا الوقت إلى هذه المطارح على الإطلاق، فقط الطير يشارك والدي هذا الملك. كلُّ هذه الحقول الممتدة على الضفة لوالدي، والآن هي لي، ملكي، أعدو فيها، أشقّ القمح بجسدي فينحني على الجهتين،

وعندما أختفي ويصعب عليه تحديد مكاني كان يقول لي: "حرام تكسري السنابل، بكرا إذا حدا شاف آثار المعركة رح يبعت بييك نواطير يربطو للمخربين". "رح قللو لبيي أنت كنت راكض ورايي بدك تخطفني"، على الفور كان يعرف موضعي، يكشف موقعي من صوتي، فيقفز عليّ كما الذئب، أفرّ وأتابع الجري والاختباء. مرةً تمددت بين السنابل، وبقيت هكذا لوقت طويل، كنت أسمع هسيس خطواته تقترب حيناً وتبتعد حيناً آخر، صار يناديني، لم أجبه كي لا أفضح موقعي، بقيت على هذا النحو لأكثر من عشر دقائق دون حركة، صار ينادي بصوتٍ قلق: "هداااا هداااا، يا إلهي، صرلك شي هدى؟"، صار صوته يرتجف، لم أجب، فلعب لعبتي وسكت، انتظرت لدقائق، لم أعد أسمع شيئاً، لا شيء، فقط جلبة العصافير وصوت الفرس تكشّ بذيلها الذباب وتنفخ، كنت أشاهدها من ناحيتي على الضفّة المقابلة في مرج يبقى خصّيصاً لها، لا يزرع إلا بالفصة البرسيم. يبدو أنه أراد إخافتي بطريقتي نفسها، استخدم سلاحي ونجح لأنني بعد وقت ليس بقصير خفت فعلاً أن يكون قد حدث له شيء، فوقفت وسط السنابل، جفلت الفرس من انبثاقي العجيب، ثم رحت أجول بنظري، وليس من السهل أن أتبيّنه، أن أكشف موضعه وسط جلول القمح والأشجار العملاقة على ضفّتي النهر، لكنّه شعر أنّني بدأت أستوحش فناداني من خلفي حيث كان يختبئ وضمّني، جفلت كفرسي وتبدّد للتو خوفي.

صار يراقصني بين السنابل، يحنيني إلى الخلف كراقص باليه محترف ويدنو من فمي ويأخذ الرحيق. "صرت فرسي، هذا شرطك"، قال ثم حملني، أخذني إلى عمق الجل، مدّدني على القمح، ذاقني وقال: "شهية أنت يا بنت، أريدك كلّك". فتح أزرار قميصي، مدّ يده إلى ظهري وفك "سوتيانتي"، حرّر نهديّ منها: "هودي لي"، فصارا ملكه، كذلك شفتاي وعنقي وبطني وسرتي، "وهذه لي" فتصبح الهذه وتلك بدون مساومة ملكه، هذا هو الشرط. كان يمطر عرقاً ويلهث، ويواصل تحديد جغرافية وحدود ملكيته.

بيدين مرتعشتين فكّ أزرار بنطلوني الجينز الضيق الذي كان يترك علامات على وسطي كالندب، حكّها لي ومنها تابع تسلّقه نحو سلسلة ظهري ثم عاود انحداره من عنقي إلى حيث الجرح. لم أقاومه، هكذا كان الشرط وقد ربحه، ولكن حين أراد انتزاع "السليب" الذي بالكاد يغطي... ضممت فخذي، خفت، رجوته ألاّ يفعل ذلك، أي شيء إلا هذا. كنت أشعر أن هذا الشيء من بدني لا يخصني وحدي بل تتشارك ملكيته أمي وأبي وأخوالي وأعمامي وعماتي وخالاتي والجيرة والبلدة والمدينة والوطن والأمة العربية والإسلامية، والتصرف به لا يتمّ أو يجوز إلا بتنازل الفريق الآخر المشارك، كمّ كان يحيّرني هذا الملك، لكنّ شوقي كان يقول لي: "أنت لي بشرط وبدون شرط، أنت امرأتي وحبيبتي وأنثاي وحوائي وحيرتي وحرقتي"، وأشعر أنه الوحيد الذي يحق له أن يأخذ مني ما يشاء. كنت أعطيه جسدي لأنه جعلني أعرف جسدي، لكن هذا الشيء كان من الصعب أن أعطيه إياه، ليس لأني لا أريد بل لأن شركائي فيه لا يريدون.

تمنّعت، فصار يداعبني كما شئت أو كما أشتهي، من حلمتي ومن سلسلة ظهري، يعضني من كتفي فأجنّ وأستسلم ثم يعود بشفتيه إلى ما بين فخذي على بداية الجرح، لم ينتزع "السليب" بل أزاحه من طرفه بأسنانه ولدغني لمرات بلسانه، صعق بدني، شعرت أن شيئاً احترق في أحشائي... ودخل على مهل كلصّ، كنت جاهزة مبتلّة، لكني متوترة خائفة أريد ولا أريد، بقي يداعبه لوقت طويل على أوّله، شعرت بنعاس ليس بنعاس عادي، بنشوة النعاس، كان يحركه ببطئ، يدخل قليلاً ويزاول تقبيلي من فمي وحلمتي، مختلطٌ شعوري بين النشوة والخوف، صوت أمي يطنّ في رأسي: "إياك أن تسلمي نفسك قبل الزواج"، لكنه كان يزيدني رغبةً في لثغه المتواصل لحلمتيّ، كنت أشعر بلذّة وبحذر حين كان يدخل أكثر

لكنّه في لحظة بدا لهاثه يتصاعد وأحسست بحجمه يزداد ويشتدّ، ثم شدّني إليه كأنّه يريد أن يمتزج بي ويصهرني به، طوّقني من أسفل ظهري واعتصرني فصرخت من ألم تمزق الغشاء.

فصهلت الفرس لعلّها شعرت بما حلّ بي أو أنها جفلت من صوتي.

كثيرٌ من الألم وكثيرٌ من الندم حملتهما معي إلى البيت، أخفيتهما في آخر مطرح سحيق من نفسي كي لا يظهر منهما أيّ شيء. كنت أجرّ الفرس، لم أمتطِها كعادتي، وكان يستحيل أن أمتطيها، لشعوري بالجرح. كان والدي كعادته جالساً على الشرفة، لم يسألني لماذا تأخرت، في المرة هذه، بل سألني لماذا أجرّ الفرس من رسنها ولم أمتطِها، قلت له لأنها حامل. جواب شديد الذكاء، لا أعرف كيف حضر على الفور كأنه كان جاهزاً لسؤال لم أنتظره على الإطلاق.

تدرّبت على أصول الهوى والعشق والكتابة مع أستاذي، كانت كسهل القمح تلك الأيام: مع الحصاد تفرّق الشمل.

شقاء الضوء

في تلك الليلة، ليلة الجنون المطلق، ولدت من جديد، ليس من رحم أمي ولا على يد تلك الداية عيشة التي كانت تبحث عن جدار الشرف بين فخذي، وأمي تنتظر النبأ اليقين الذي يعيد لها كرامتها، ولدت من العتمة، من الموت نفسه. سألته: "ألا توجد مرآة في بيتك؟"، أتاني بمرآة صغيرة مستديرة بحجم الرغيف. أعلم أن لا شيء في الليل يرى، وشمعة واحدة لا تكفي كي أرى وجهي أو أذهب إليه، وبيني وبينه أيام وسنوات. أنا لا أعرف وجهي تماماً، ما أذكره منه ليس الذي هو الآن حيث ترك عليه الحزن والخسران ندوبهما الخاصة، أعلم أنه كان يوحي بذلك، وهكذا كنت أسمع من الناس. قديماً كانت لي تلك الملامح التي تشي بالفقدان، لكنّها اليوم اكتملت. غريب هذا الأمر! حين كنت أطلّ عليه في الانفراجات التي أمرّ بها كنت لا أطيل التطلّع كثيراً إليه أو التمعّن في ملامحي، كنت لا أريد أن أراه كي لا أعبر منه إلى وجه أمي ووجه الداية عيشة، كنت أفضّل أن أتفقّده سريعاً كبروز نجمة في غيمٍ عاجل.

حمل لي الشمعة، كانت تزوغ وتبدأ بالتلاشي حين أنظر إليها مباشرةً. تناولت الشمعة، قرّبتها، رفعت المرآة نحو وجهي، كانت يدي ترتجف، بدني كلّه كان يرتجف، يرتعد، أصبحت المرآة بموازاة فمي، أغمضت عينيّ، كأنّني أريد العودة إلى العتمة، صرت أفتحهما ببطء، كأنّي أتسلل على وجهي، على ملامحي، لم أرد أن أرى وجهي مباشرةً، لذا لم أجعل المرآة تفضحني دفعةً واحدة، أردت أن أرى أشياء في جسدي قبل وجهي، كمعادلتي مع الصوت والأسماء: هذا الصوت لهذا الاسم، هذه اليد لهذا الجسد، وهذا العنق لهذا الرأس، وهذا الفم لهذا الوجه. الآن سأطبق القاعدة مع حاسة النظر، وضعت المرآة بموازاة صدري، ربما خوفي من أن أرى وجهاً لا يشبه وجهي، غير الذي أذكره، جعلني أبدأ من صدري، وضعت المرآة قبالة صدري، شاهدت نهديَّ خلف قميص النوم، بان منهما النصف تقريباً، لو رأيتهما في صورة أو لوحة قد لا أعرف أنهما لي، إلا إذا دُمغا بعلامة فارقة كشهوة الملوك. رفعت المرآة أكثر فبان عنقي، أذكره عنقي المتوسط الطول، قمحيٌّ منساب بانزلاقات شهوانية نحو كتفي، هكذا وصفه ذلك الشقي. الآن لا أرى شيئاً من هذا، الآن أكتشف امرأةً أخرى هي أنا وليست أنا تماماً. رفعت المرآة أكثر فبان فمي بشفتيه الممتلئتين بوضوح لم أعهده في الانفراجات التي كنت أعيشها وأشاهد الأشياء غبشة غير أكيدة كأنّها عالقة في سراب، ثم بان وجهي: يا الله يااا الله! لا أصدق أني أرى وجهي بكلِّ هذا الوضوح بعينيّ: "هل هذا وجهي؟ أنا، أناااااااا هيدي هدى... هدااااا لأ..."، لا أدري إلى أين وصل صوتي، لعلّه عاد إلى حيث ولدت هناك، لم يخرج من حنجرتي بل من الروح وعاد إلى الرحم الذي حملني، قطع كل هذه السنين... لا، غير معقول. وقعت المرآة من يدي وانكسرت وانطفأت الشمعة، كأنَّ أحداً خطفها من يدي وكسرها وأطفأ الشمعة. "لا تخافي، لا تخافي أنت بخير"، قال لي. "لا أظنُّ أنّني بخير، أنا مجنونة أهلوس، أرجوك افعل أي شيء، ردّ لي ما رأيت، ردّ لي الضوء". جاءني بكأس من الماء، وضع يده اليسرى خلف رأسي ومن يمناه شربت ماءً معطراً بماء الورد، كأنّي نسيت من أنا وأين كنت وماذا حدث، التبس عليَّ المكان والوقت. "من أنا؟"، سألت بصوتٍ عالٍ. أجابني: "أنت هدى". "وين أنا؟" همّمت لأنهض وجدتني غير قادرة، كان جسدي يشدُّني إلى أسفل، كأنَّ عماي تحوّل إلى شلل، انتابني شعور مماثل للذي ضغط علي عندما استيقظت من خدري قبل سنين وشاهدت الداية عيشة بين فخذي تتفقد عذريّتي وأمي

فوق رأسي تنتظر النتيجة، شعرت يومها أن جسدي منتهك وأن أمي تغتصبني مع تلك السافلة. لم أشعر الآن أنّ هذا الرجل هتكني أو اغتصبني أو استغلَّ ضعفي وعمايَ ليشبع غريزته، لا ليس هذا على الإطلاق، تذكّرت جسدي يومها أنه خانني عندما حاولت النهوض كأنّه خارج سيطرتي ولم أعد قادرة على التحكم به، رغم يقيني المطلق أنه يستطيع فعل أي شيء. كان يومها مستسلماً للخديعة، والآن مستسلمٌ لكسله، نعم لكسله، هو أكثر من كسل، هو تعب يشبه تعب الركض الطويل المنتهي بالفوز غير المتوقع، هو الشقاء الذي يسبّبه الوضوح في الضوء؛ هو شقاء الضوء. لا أدري تحوّل تعبي إلى خدر والخدر إلى نعاس.

غفوت.

لا أدري متى غفوت، لكني نمت طويلاً.

صحوت، وربما أيقظني صوت مجنون الوادي يلقي خطابه اليومي، لكن شعوري نبّهني أنّني لست في مكاني، ليس هذا ملمس شراشفي، وليست هذه الرائحة رائحة غرفتي. مددت يدي لتفقّد الراديو والمسجّل، لا شيء. شاهدت سقف الغرفة شاحباً عتيقاً، يتدلى منه مصباح كئيب، ضوءه ميت، ظننت أن ما أراه هو حلم وأن الذي حدث في ذلك الليل من ليالي بيروت هو أيضاً منام انتهى بعودة الضوء إلى عينيّ.

"يا أبناء شعبنا العظيم، أيها الفرسان!"، كان مجنون الوادي يتابع خطابه، وكنت أتابع تخبّطي في حيرتي، كنت أرى ولا أصدق، وحين أصدق أشك فيما أراه، أما بقية حواسي فكانت تعمل وتنقل إلي المعلومات، قالت لي يدي: هذا ليس سريرك، وقال لي أنفي: هذه ليست رائحة بيتك، عرق ذكوري ورائحة سجائر وصحف وحبر وبرتقال ورطوبة. فتحت عيني لأتفقد عمايَ: يا الله! أنا أبصر ما ألمس وأشمُّ، أبصره تماماً وليس بصورته الملتبسة الغبشة السرابية. شاهدت حزمة من الضوء تسقط من النافذة على رجل يجلس إلى طاولة ويكتب، نصف وجهه إلي، كأنّ ما أراه مقطع من فيلم، امرأة غريبة في مكان غريب، في غرفة غريبة مع رجل لا تعرفه، يكتب، كأنه يكتب ما حدث معه ومعي، يكتب بنهم كأنه في حالة النشوة، يكتب ويلهث مثلما كان يلهث في صعوده إلى الذروة. أنا لا أكتب، أنا أسجّل، وحالة الكتابة هذه أعرفها، هي ولادات متتالية، ونشوات، شاهدت وجهه كاملاً واضحاً في الضوء، عندما التفت ناحيتي كأنّه يبحث عن شيء، لم أتحرك تظاهرت بالنوم، وقف وتقدم، فتح جارور الكومود قرب السرير حيث أنام، شعرت بنفسه يدنو مني، قبّلني في جبيني وعاد إلى طاولته، اختلط علي شعوري ما بين الفرح والتوجّس، إنه هو الذي أبصرته في النشوة، هو جاري، صاحب الصوت المنكسر والحزين، كنت أسمعه يغنّي أحياناً في العشيّات غناءً عراقيّاً موجعاً، صرت أتمعّن في الأشياء التي تحيط بي، كأنّي أمتحن حاستي العائدة من الفقدان، أنظر إلى يدي، أتأمّلها كأنّها وليدي، أتأمّل أصابعي، خطوط كفي، أقابلها بالثانية، رفعت الغطاء لأطمئنّ إلى ما تبقى مني تحته، إلى بقية جسدي، وجدت نصف المرآة ما زالت في إطارها النحاسي مرميّةً قربي فوق رزمة من الصحف والمجلاّت وفوضى من الأوراق مكوّمة فوق الكومود، حملتها بحذر كي لا تسقط وتتشظى، وكي لا أصدر ضجة تثير انتباهه، قرّبتها من وجهي، كان واضحاً في ضوء الضحى، هو وجهي، وجه هدى مضافة إليه علامات السنين... التقيته بعد غياب طويل، شعرت برغبة جارفة في البكاء، كبتّ انفعالي لكنّ دموعي سرحت على خدي، بسخاء، كأنّها تغسل رماد الانطفاء الطويل، حزيناً كان وجهي، وضعت المرآة جانباً، لم أحتمل التطلّع إلى عينيّ، شعرت بتعب شديد فيهما كأنّي كنت أحمّلهما أكبر من طاقتهما أو أنهما نسيا أداء دورهما، كأنّي لم أصدق أنّي عدت أبصر بشكل طبيعي، وليس كالمرات السابقة التي كنت أرى فيها الأشياء والوجوه كأنّها مشوّهة أو بدون لون أو هويّة، كأنّي كنت أرى في أول العتمة، حين

تصبح الأشياء غير واضحة الملامح، حتى أنّني حين كنت أنظر إلى وجهي في انفراجات بصري لا أرغب أن أتمعّن فيه، كنت أخاف أن يتداخل بوجه الداية، حتى تلك الوجوه التي كنت أشاهدها من شرفتي أحياناً تفتك في الحي كنت أراها ممسوخةً ومرعبة، الشيء الوحيد الذي كنت أراه على جماله هو ما أراه حين أغمض عينيّ، لذا كنت أهرب إلى عتمتي وأحتمي فيها من بشاعة الخارج، وأسبح في عوالمي الخبيئة.

الحب يصنع العجائب.

نعم لعلّ الحبَّ هو الذي أعاد إلي بصري كاملاً وجعلني أرى الأشياء كما هي عليه، نعم أحببت هذا الرجل، أحببته من زمان، وحين كان يسافر كنت أحزن، أردت اليوم أن أعترف له بذلك ليس بالكلام بل بجسدي، أعطيته جسدي كاملاً في الوقت الذي لا يوحي برغبة عطاء من هذا النوع، تماماً في مطحنة الموت، في ليلة الجنون، تلك الليلة التي كانت تُمطَر المدينة بالراجمات، ربما خوفي من الموت دفعني للاعتراف له بفيض شوقي إليه، تحدّيت عتمات ثلاث، عتمتي وعتمة الدنيا وعتمة الموت، وأشعلت جسدي. هو يعلم ذلك ويعلم أني أحبّه وأعلم أنه يشتهيني، كنت أريده بشدّة، وتضاعفت رغبتي على هذا البرزخ بين الحضور والغياب، بين الموت والحياة، بين الصمت والدويّ، بين الضوء والعتمة، بين الداخل والخارج، بين الغامض والواضح، بين الشكّ واليقين، بين الواقع والحلم، بين الحقيقة والوهم، بين هذه الأضداد كنت أقيم وأنتظر سقوطي في الهاوية، من زمان وأنا هكذا أقيم على الحد الفاصل، وجاءت اللحظة لإنقاذي من هذه الدوّامة. وكان هذا الرجل الجالس على الطاولة يكتب، لا بدّ أنه يكتب أشياء تشبه الأشياء التي كنت أسجّلها، أشياء تخصُّه، هو قدري أن أستسلم للكتّاب.

حزينون هم الكتّاب.

لم يتعامل معي على أساس أني كنت عمياء وأبصرت، سألني كيف أشرب القهوة؟ قلت له: بدون سكّر، فجاءني بمخطوطة صغيرة وقال لي: "تصفحي هذه الأشياء أكون قد حضرت القهوة"، وبدوري لم أتردّد في تصفّحها. "وداعاً بيروت"، هكذا كان عنوانها. كان يرثي بيروت، التي نعرفها، شعرت أنا من كتب هذا الحنين وهذا الألم، قرأت سطرين وحاولت أن أكمل، تعبت عيناي:

> لست من أهلك القدماء، ولا واحداً من سكّانك الأبديين، أنا عابر وغريب، ولدت في وادي الدموع، وركبنا الدواب كالمهاجرين القدماء من بلاد بابل إلى بلاد كنعان، وكنت لا أزال طريّ العمر لا أصلح للرحيل والمسافات، حملني أهلي إلى لبنان، هو قدري أن اعيش زمناً أهين الأشياء فيه هو القتل وأصعب الأشياء أن تتألّم بصوتٍ عالٍ كي لا تفسد مزاج الجلاد، ما كنت أتوقع أنّني سأقع أسيرك أيتها المدينة.

وأنا بدوري ما كنت أتوقع أن أقع أسيرة هذا الرجل.

وصار الذي صار، وصار بيتي. "من أين جئتني أيها الغريب؟"، أسأله فيقول لي: "جئت من عتماتك لأراك"، كلام من هذا الجنون يصنعه الحبُّ وحده، صرنا نعيش الانفراجات في بيتي وأيام القصف في الملجأ حيث كان مستودعاً للجريدة التي يعمل فيها، بالواقع هو أرشيف صور وكتب ومخطوطات، هو مكتبته التي نزلت عليه من السماء كما يقول. جمعتنا الحرب والحرب فرقتنا، لكنّني عشت مع هذا الرجل ولادتي الأخرى، ولكن يبدو أن الهناءات فيما لو دامت ستفقد معناها ولذّتها.

توالت الأيام والحروب، وفي صيف ذاك العام من اجتياح بيروت كان علينا أن نعيش تماماً في تلك الفسحة القائمة بين الحياة والموت، احتفلنا بالعيش كما لو كنّا نودّعه وبالجسد قبل أن نشيّعه، قال لي: "عليّ أن أتدبّر أمر رحيلي مع المقاومة لأني لا أستطيع البقاء، ليس عندي ما يثبت من أنا وهذا سيعرّضني للخطر، دبّروا لي في الجريدة طريقة للخروج مع المقاتلين، جواز سفر يحمل اسمي وصورتي". عندما قال ذلك

كأنّ هذا الكلام الذي سمعته دفعني إلى جدار يتوسطه باب يفضي إلى العتمة فقط، شعرت أني سأعود إلى القوقعة حتى لو أبصرت.

الفراق هو نوع مرير من العتمة.

أكاد لا أصدّق ما أنا به، كأنّ بصري عاد إليّ كاملاً لأشاهد فقط أيادي تلوّح مودِّعة، لأقرأ مقالة الرحيل وقصيدة الرحيل. "هل يمكن أن تلدني وتتركني على الرصيف، من يطعمني ويسقيني ويحميني؟"، سألته، لم يجبني، بقي طوال بعد ظهيرة كاملة واقفاً قبالة النافذة المطلّة على جانب من البحر ناحية المرفأ، يدخّن ويكتب ويصنع من الأوراق التي يكتب عليها طائرات يرميها من النافذة، فتحلّق في سماء الوادي وتنتشر، "كما تلك الرواية التي كتبها صديقي"، كان يقول لي، "هكذا فعل، بعد أن أكمل الفصل الأخير من الرواية صنع منها طائرات ورقية وأطلقها في سماء بيروت".

امتلأت سماء بيروت بالطائرات الورقية، كنت أشاهد بعض المارة يلتقطون بعضها ويحاولون أن يقرأوا ما كُتب عليها، ثم يعيدون رميها. كل هذه الطائرات حملت جملة واحدة: وداعاً بيروت! تحولت تلك الطائرات إلى قصيدة وإلى رواية وألف قصة حب، لكن بيروت التي لوّحت لها الأيادي في وداعات صاخبة بالدموع والرصاص والأرز لم تنجُ، كما بدني، من الهتك المتواصل، يبدو لي أن هذه المدينة تشبهني حدود التطابق، عليها أن تدفع ضريبة حريتها، مثلما دفعت ثمن حريتي، كانت حضناً لكلّ من أحبها لكنهم كلّهم خانوها وأدموها، "هل يمكن أن تكون أنت واحداً منهم؟" سألته، التفت إلي وتطلع طويلاً في وجهي كأنه لم يصدق ما سمعه مني، لو كنت من هؤلاء القوّادين لما كنت شاهدت وجهي في هذا الحي. "وبعد بيروت؟" سألته، قال: "سأعود إليك"، شدّني إلى صدره وضع وجهه على عنقي وهمس: "هذي أمانتي".

كأنّي أعرفه من زمان، كأنّ بيننا حياة كاملة فيها عشقٌ وودٌّ وخصامٌ ورضا وعتابٌ وألمٌ وفرحٌ وغيباتٌ وأشواق، إلى حد أنّني وقعت في الشكِّ، أن أكون أعرفه قبل أن أُصاب بمرضي ونسيت كما تهيّأ لي أنّني نسيت وجهي.

هناك حوادث من الحبّ تبدو غريبة. هل تكفي ليلة واحدة لكل هذا الشوق، هل تكفي ليلة واحدة لتصبح زمنا كاملاً؟ من المستحيل أن تكون في الزمن أو التوقيت تساوي ساعات عشر أو ليلة شغف ورغبة عابرة، لشدّة ما تكثّفت فيها المشاعر بكلّ تناقضاتها، ما هو مألوفٌ منها وما هو غامضٌ وجديد، من المستحيل هي ولادة كاملة بكلِّ أوجاعها، انتهت بوليد انتظرته في خفاء نفسي وفي عتمتي لسنوات.

كنت بين يديه كأنّي جزءٌ من جسده، كرجت دموعه على عنقي وسالت بين نهدي، مثلما كرج خيط دم من خده وسال على عنقي في ليلة الجنون، بدت لي بعيدة، بعيدة كحادثة مرَّ عليها الكثير من الوقت وصارت باهتة في الذاكرة. ليت لي القدرة أن أنصهر به وأصبحه، أصيره، ليت شيئاً ما عجيباً في الكون يحدث ويجعلني في ديمومة هذا الشعور الهائل من الأمان. من زمان بعيد لم أشعر بهذا القدر من الأمان، كأنّي كنت مكشوفة لكلِّ المخاطر والتلف سابقاً، والآن غلّفني هذا الرجل بعازل ضدَّ كلّ المخاطر.

نعم، "الحب بيعمل عجايب!".

كنت بين يديه عصر ذلك اليوم نتابع تحليق طائراته الورقية في سماء بيروت بعد أن مزّقتها طائرات الحديد وحوّلت المدينة إلى حطام مدينة، نعم هي ولادة كاملة ولكن في وقت ناقص، بعد شهر أو أقل ساعود إلى قوقعتي، إلى وحدتي، وربما إلى عتمتي. وكان مصيرنا في عصر ذلك اليوم يتحدّد بمعزل عن إدراكنا له مثل كلّ يوم. لا أحد منا يدري ما يحمله الغد أو الساعة التي تلي، لذا يحدث دائماً نوع من

التواطؤ على صيغة عيش وتدبير، واتفقنا دون أن ندري على أن نمضي هذه الأيام التي تفصلنا عن الرحيل باحتفالية تجمع بين ما يمليه الشوق عند اللقاء من عناق محموم ينتهي بانصهار جسدين، وما يمليه الوداع من عناق ملتاع ينتهي بالنقصان، كأنّ جسداً يخسر نصفه وتبقى منه اليد التي تلوّح له على مفترق الغياب، ويكون كلّ ذلك بالسماح للجسد المشتاق العطِش أن يشبع من الغائب المشتهى وأن يودّعه بما يوازي عطشه القادم المحتوم، وهذه معادلة ستجعلنا في أيام قليلة كاملة من العشق، وبالتالي في أيام طويلة من الحسرات التي يمليها الشوق.

هذه حال أهل الهوى.

ومرّت الأيام سريعة، أربعون يوماً فيها اكتشفت مناطق في جسدي كأنّها كانت تقع خارجه، واكتشفت نساء في بدني كنّ أسيرات عتماتي، هو الذي دلّني عليها، هو الذي أيقظها من نومها، من سباتها الطويل، هو الذي أعادني إليّ، جمعني من تبعثري، لمّني من تعثراتي على أرصفة بيروت، جعل بيروت أجمل، دلّني على ما هو حميم فيها ويستعصي على السفلة كما كان يقول لي، هي روحها، دلّني على روحها.

أنا لا أرى ما ترينه أنت، ليس لأنني غريب في المدينة بل لأنني أحبك وأحبها، هم سينتهون إلى مصائرهم وهي ستبقى بيروت، في النهاية كلّنا غرباء نعبر في الأمكنة وتبقى الأمكنة، وادي الدموع البلاد التي ولدت فيها ما زالت هناك قائمة ولو بركامها، حتى غابات النخيل التي أبادها القتلة هناك فرّخت غابة جديدة، تلّة سليمان هناك حيث كبرت وغادرتها خاسراً منكسراً، وفلسطين وبيروت وبغداد ودمشق ومصر، كلّها تبقى، تبقى، لا تخافي، احملي في قلبك البلاد وامشي، هي تسعفك على السير والوصول.

كأنه فتح نافذة لسرب من الطير كان حبيساً في قلعة مهجورة فهبّ في السماء، هكذا كانت طيور هاجعة في كهوفي تدفّقت عليها أحزمة من النور فهبّت وحلقّت في الفلوات، ثم في رحيله كلّ الأشياء ستعود إلى بؤسها؛ إلى سجنها.

سأحاول أن أمنعها وأن أنتظره.

أربعون يوماً كأنّها نصف ليل ونصف نهار، وجدتني بين آلاف الناس على مرفأ بيروت ألوّح له بيدي، ألوّح له وأبكي ويتقدّم في الجموع ويختلط بها، ما عدت أتبيّنه بين المهاجرين أو المنّفيين إلى شتاتهم الجديد، صرت ألوّح بيدي للسفن بما تحمله، وجدتني هناك على المرفأ بين آلاف الناس، آلاف العيون التي تبكي، آلاف الأيادي التي تلوّح بالمناديل، ما كنت أتخيّل نفسي مرة في هذا الموقف المأساوي، أنّني ساودّع رجلاً وجد نفسه فجأةً في شتاتٍ آخر لا يمكن له إلا أن يكون فيه، هو غريب، لا أحد يحميه إلا رحيله، هذا شيء مرعب. الإقامة عدوٌّ نائم والرحيل صديق.

هو لا يستطيع البقاء في بيروت لأنه لا يملك هوية أو وثيقة تدلّ عليه، ولا ينبغي أن يرحل مع الثوّار لأنّه ليس فلسطينياً وليس مقاتلاً، بل كان معارضاً لكلّ هذه الثورات ليقينه أنها لا تردّ غصن زيتون واحد من فلسطين، وهي ذرائع لأفراد وشلل وعصابات حكمت بلاداً كاملة وضيعت بلاداً كاملة، لذلك اتُّهم مرة بالجنون ومرة بالعمالة للعدو ومرة بالمنحرف وسُجن لمرات وعذّب، لأنه هكذا ولأنه هكذا أحبّه، لكنّني ما كنت أتوقّع أنّ وقتاً آخر سيأتي ويعود إلي ليخطف من بيتي ويختفي أثره، لاحقاً سأروي ذلك بالتفصيل، وكأني ولدت لأعيش حياةً تشبه الروايات، هكذا حدث لي في أول صباي مع أستاذي الذي منذ ليلة فحص عذريتي اختفى من الدنيا وهكذا سيحدث لي بعد سنين مع رجل آخر...

على كلّ حال وجدت نفسي بين آلاف البنادق والبيارق والورود والدموع، أودّع رجلاً كان جاري لسنوات ربما جاءها يوم فقدت بصري، لم أسأله مرة من يكون لكنّني كنت أعرف أنه كاتب، ومن لهجته أو بعض الكلمات كنت أعرف أنه ربما من أصول عراقية، وكنت أعرف أنّني أحبه وهو أيضا يعرف أنه يحبني وكلانا

أخفى الأمر إلى أن جمعنا الموت الناقص أو الرعب منه على سفرة الدرج الفاصلة بين بيتينا. هو ذلك الانفجار الهائل الذي شلّع الأبواب ودفع بنا إلى الخارج، لتبدأ رحلة العشق والآلام...

لماذا لم يحدث هذا الشيء سابقاً وكان بإمكاننا أن نفعل، أن أدخل إليه أو يدخل إلي حين كنّا نلتقي ونترك أرواحنا وأجسادنا في مهبِّ الهوى؟ لا أدري ربما هذا امتحان آخر لي، لماذا كنا نؤجل أشواقنا ونخفيها في الخجل، لماذا لم أنقض عليه كاللبوة عندما كنت أشتهيه في الليالي، أسمعه يغنّي، يرندح لناظم الغزالي ولفيروز. أطرق بابه ويفتح لي وأتناوله بقبلة مشتاقة من ألف عام. مجنونة أنا، لماذا سيطر عليّ عقلي؟؟ هل لو فعلت ذلك كنّا تعودنا بعد أن يخفّ لهيب الشهوات ويترمّد جمر الشوق؟ لا أدري.

أنا الآن ألوّح له بمنديل أبيض كان في جيبه لا أعرف كيف صار في يدي، صرت ألوّح به للسفينة التي أطلقت أبواق الرحيل وشقّت ماء المتوسط على مهل كأنّها مشدودة بحبال إلى شاطئ بيروت، صَخُبَ البكاء حين تحركت السفينة، وهي تطلق أبواق الرحيل صخب كثيراً، صار ندباً، صارت الأيادي التي تلوّح لها كأنّها تشدّ بها إلى الوراء لكنّها لا تذعن، بل راحت تبتعد في الأفق نحو المجهول على متنها عشاق وثوار، عاد المودّعون بظهور منحنية وبرايات منكسة، كنت أسمع دعاء أمهات وندب أحبّة وحشرجات.

"لمين تاركني يا أمي؟ ما عاد لي غير الله وأنت"، كانت جالسةً على الرصيف تلطم على وجهها بكوفية الثورة، شاهدتها، شاهدت وجوه كثيرة مغسولة بالدمع والغبار. وجدت نفسي وحدي هناك على رصيف المرفأ، أمامي البحر وورائي مدينة تشبهني، وحيدة مثلي وعاشقة مثلي وحرّة مثلي ومنكسرة مثلي، وصرت أبصر.

كأنّه حلم طويل، أتاني على الفجر أكاد لا أصدق ما أنا فيه، وحدي على رصيف المرفأ، كأنّي قرأت ما أعيشه في كتاب، فقدت الرغبة بالعودة إلى البيت، ووددت لو ألحق به، ان تحملني وتدفع بي قوّةٌ كالتي رمتني بين يديه على سفرة الدرج.

تركت المرفأ ومشيت لا أدري إلى أين. ليس من هدف، كنت أمشي كأنّي أكتشف المدينة التي أعيش فيها، في الواقع أنا أكتشفها بالفعل لأنني لم أتسكّع فيها من زمان، منذ تلك الأيام التي كنا نأتيها برفقة والدي ونقيم في بيتنا في وادي أبو جميل، كانت بيروت يومها تشبه عمري، صبية مثلي، قبل أن تهتك من أهلها مثلما هتكت من أهلي، صعدت درج عين المريسة نحو شارع بلس، مشيت بموازاة الجامعة الأميركية، لا أحد هناك، سوى قلة من الناس تعبرعلى عجل، طابور من الناس أمام الفرن، وقفت في الصف لأشتري خبزاً، لغرض أن أشمّ رائحته، اشتهيت الرائحة أكثر من حاجتي للخبز، كانت تدلّ على العيش وسط روائح غبار وحرائق وبارود ونفايات، أحد الرجال أعطاني دوره في المقدمة، كان أسمراً يشبه ناجي العلي، لعلّه هو، بنحوله وابتسامته، حملت ربطة الخبز، فتحتها، قسمت رغيفاً وشممت رائحته طويلاً، أخذتني الرائحة إلى السهل، إلى هناك برفقة الفرس أروي لها، أشكو لفرسي حالي.

تسكّعت طويلاً في رأس بيروت، وصلت المنارة، هناك بيت فنان صديق لوالدي، كان يشتري منه لوحات، الكثير منها ما زال على جدار بيتنا في الوادي وفي بيتنا في الضيعة، كانت شبابيكه مقفلة، تركته خلفي واتجهت نحو شارع السادات، وصلت مفرق أبو طالب ثم عبرت شارع الحمراء من نهايته نحو بيتي في الوادي، شاهدت في مقهى الويمبي شلّة من أصدقاء عبد الجليل، خلف الزجاج، كأنّهم صورهم، أعرف بعضهم قبل مرضي.

ماسح الأحذية قرب سينما الحمراء يتأمل أحذية المارة أكثر من وجوههم، في مقهى الهورسشو رجل

واحد في الداخل يقرأ جريدة، هو نفسه الذي كان قبل الحرب بسنوات عندما كنت أتسكع هنا في الحمراء في صيفيات أوائل السبعينيات، أذكره جيداً. على جدار سور الكنيسة رسومات لأطفال ترفض الحروب وبقايا بوسترات لأفلام وصور شهداء وشعارات من طراز "النصر أو الشهادة" وصور لحافظ الأسد كتب تحتها "قائدنا إلى الأبد"، بعد أمتار كان ذلك الرجل الذي يجلس القرفصاء ويجوّد القرآن، حاولت مراراً أن اتبين ما يقرأ أو يجّود، لم أستطع، كان صوته جميلاً وحزيناً يصوت أحرفاً توحي بالتجويد ولا تقول شيئاً. قطعت سينما الأتوال تجاه مصرف لبنان، نزلت تجاه برج المر، خفّت الحركة كثيراً، أسرعت الخطوات، كان الوادي شبه مقفر، ليست لدي رغبة في أن أصل إلى البيت ولكن ليس أمامي من خيار غير ذلك، ليس من مكان ألجأ إليه غير بيتي. وصلت مدخل البناية، صعدت السلّم، حين وصلت وجدت في فتحة الباب ورقة لم أتبين ما كتب عليها، دخلت، أشعلت الشموع، وقرأت، كانت رسالة من جارتي جيهان، وفي المظروف مفتاح بيتها.

جيهان، أختي اليهودية

كأنّي ولدت للتجربة؛ لامتحان قدرتي على التحمّل من قبل طرف يتفرّج علي من بعيد.

جيهان أختي اليهودية، هذا ما اكتشفته في الرسالة، وتلك الصورة التي كنت أتأمّلها داخل الألبوم في بيتي هي أمها، أي زوجة أبي، سرّ أبي، صار السرّ بين يدي، سرّ جيهان بين يدي الآن، كلاهما غائب، وحدي مع رسالة وصور وحكايتين وبيتين مهجورين؟ شعرت أنّ روحي من الداخل مهجورة، عرفت الآن لماذا كانت جيهان تلحّ عليّ أن أنشر قصصي، كان هذا يعنيها هي مباشرةً، خاصةً في تلك القصة التي رويت فيها عن علاقة حبّ بين والدي وتلك الامرأة التي في الصورة، أعطيتها اسمي المستعار تالة، لا أعرف لماذا أحبّ هذا الاسم، ولكن أم جيهان اسمها شيرا، أو شيرين، كان عبد الجليل يحب أيضا هذا الاسم وأيضا شوقي كان يحبه وله قصيدة اسمها شيرا. ما سرّ الرجال مع هذا الاسم؟ شيرا زوجة أبي وأم اختي جيهان.

"من سمّاك جيهان؟" سألتها مرّة، قالت لي: "أبوك"، صُدمت من جوابها، "تمزحين، ما علاقة والدي؟"، ضحكت وقالت: "أبي سماني جيهان، كان يحب هذا الاسم، لا أعرف لماذا يحبه، هو اسم فارسي، الكون، نعم هو يعني الكون"، هناك شيء يجمع مثلث حياتي: أبي وشوقي وعبد الجليل، كلٌّ واحد منهم سببٌ في حياتي، الأول أنجبني، وضع بذرة في رحم أمي، والثاني أنجبني ثانيةً عندما علّمني العشق، والثالث أعادني إليّ عندما أعاد إليّ عينيّ، أخرجني من عتمتي، هي ولادات ثلاث من ذكورٍ ثلاثة، كلّهم اختفوا من حياتي وتركوا لي أسماءهم وحكايتهم.

لكأنّي الآن عرفت سرّ حزن والدي الذي فقد قصيدته، أضاع أغنيته شيرا، شيرا تعني أغنيتي، هي أم جيهان، لقد ماتت وهي تغنّي على المسرح، "يا طيور" التي تغنيها أيضاً أسمهان، شيرا كانت مغنية، ولدت في العراق وجاءت إلى بيروت في العشرينيات مع والديها، كان والدها تاجر ذهب ووكيل لأقلام "باركر" التي تستهوي الشعراء ويحبون الكتابة بها، سأكتشف في بيت جيهان الذي هو بيت أبي أيضاً بدون علمي سرّ المدينة التي أعيش فيها، وسرّ والدي، على جدار غرفة نومها صورة كبيرة لأبي ولشيرا، وفوق آلة البيانو "الأكّو" مجموعة أخرى من الصور في إطارات النحاس كلّها لأبي ولأمها ولها وهي صغيرة، كأنّي في غير مدينة وأنا أقلّب ألبومات تركتها لي جيهان، يبدو أنها لم تحمل معها إلا أشياءها الشخصية، وتركت لي كل شيء، قالت لي في الرسالة: "هذا ملكك، حتى أشياء الذاكرة هي لي ولك، الكتب واللوحات وأسطوانات أمي والفونوغراف". عندما صعدت وفتحت باب جيهان شعرت أنّني أعتدي عليها، وأنني أقتحم مكاناً لا يحقّ لي إلا الطرق على بابه رغم أنها أوصتني في الرسالة أن أبدأ من البيت لأعرف الحكاية، وليس فقط ممّا كتبته في الرسالة. بيت جيهان هو نسخة عن بيتنا بصالته الكبيرة وتقسيماته وأناقته ومكتبته، أعرف صالته، هي صورة غبشة في بالي مثلما تراءت لي في تلك السهرة عندما أبصرت من شدّة الشوق عندما غنّى عبد الجليل، أما بقية أجزاء البيت فلا أعرفها، أكتشفها الآن، أكتشفت درجاً داخلياً يصل الشقتين، يبدو أنهما كانا بيتاً واحداً فصلهما والدي بعد موت شيرا ليبقي على شقة مستقلة لأختي جيهان، كانت صور شيرا تزين جدران السلم الخشبي، أكتشف البيت وسرّ أبي، صرت أكتشف المدينة في الصور.

"هدى، أنا أختك، عليّ أن أعترف لك بذلك، أنت أختي الصغرى ليس لي سواك من أهل، لقد ماتت أمي وهي تغني، كانت تحلم أن

تموت على المسرح، وهكذا ماتت، ربما هذا هو الحلم الوحيد الذي تتحقق لها، أمي أيضا كانت وحيدة، لم تهاجر مع جدي وجدتي إلى حيفا، اختارت بيروت لأن الأمكنة التي تحضنك هي الأمكنة التي تعشقين فيها، وهكذا اختارت من صار أبي وأبيك، اختارت حيث اختار قلبها، أما أنا فسأرحل حيث اختار لي عقلي، لو بقيت حيث يهوى القلب ربّما يكون الثمن باهظاً هو حياتي كلّها، في النهاية هو قدر أمي وقدري وقدرك، في النهاية كلّنا وحيدون وغرباء".

كلّنا غرباء، نعم هو كذلك، ما من مرّة شعرت بغربة ووحشة كما الآن، يا الله! كلُّ الذين مني، من دمي أو صاروا من دمي، غرباء، كلّهم رحلوا، ماذا أفعل هنا في هذا الانتظار، كأنّي في محطة مرّت فيها قطارات كثيرة في كل الاتجهات الواضحة وبقيت أنتظر الرحيل إلى جهةٍ مجهولة، لماذا لم تبح لي جيهان بسرّها قبل هذه الأيام؟ ترى هل كانت تخاف مني، كان عليها أن تقول لي من هي كي أضمّها إلى قلبي كي أُشعرها بالأمان، كان عليها أن تحكي وتفتح لي قلبها، أنا لا أوحي بأني مخادعة، ليس في قلبي حقد حتى على من هتك بدني وسبّب لي مرض العمى، جيهان كانت تهتمّ بي كثيراً، تماماً كأختها الصغيرة، كانت تقول لي "أنت أختي"، لكنّني كنت أعتبر ذلك تعبيراً عن الحب، وليس أكثر، كيف لها أن ترحل دون أن تودّع أختها؟ كيف فعلت؟ كيف استطاعت أن تختفي فجأةً؟ ربما لأنها اطمأنت بعد أن باركت عشقي الجديد، هي تعلم أن نجاتي دائماً في الحب الذي على حدود الكون، هكذا تقول، "أنت لا تعرفين، الحب الذي لا يؤلم ليس بحب، هو عابر كغيم يمطر مرّة واحدة ويتلاشى، أمّا الحب الحقيقي فهو المولّد للألم أيضاً حين الفراق، لأنّه كونيٌّ، جيهان". وتضحك. لا أظنّها كانت تعلم برحيل عبد الجليل وإلا كانت بقيت قربي لتواسيني، لا أدري، كأنّي أبحث عن مبررات لغيابها.

هذه صورة لها ولوالدي في ساحة الأتوال قرب البرلمان، وهذه صورة لها ولأمها في المكان نفسه، وهذه لوالدي ولأمها أيضاً في المكان نفسه، في النهاية هي صورة واحدة تناوبوا على التقاطها، وهذه أخرى أمام قهوة الأوتوماتيك والثانية في الداخل تجمعهم هم الثلاثة يبدو أن الذي التقطها لهم هو الكرسون منير، وهذه قرب جريدة الأوريون قرب العجمي، وهذه صور في الترام في شارع بلسّ تظهر واضحةً ساعة الجامعة الأميركية، صورٌ لشيرا، ألبوم كامل لشيرا وهي تغنّي، كم هي جميلة هذه الامرأة، هذه هي وأبي في سيارة الكاديلاك السوداء التي لوالدي، وهذه صورٌ في قصر فرعون، صورٌ مع رؤساء كميل شمعون ورياض الصلح، هذه صورة في شارع فرنسا وهذه في الكنيس اليهودي، وقصاصات صحف اسم شيرا في العناوين، والصورة الشهيرة لها حين هوت على المسرح، هذه الصورة تتوسّط الجدار، "هكذا ختمت القصيدة نفسها"، كان عنوان المقالة "ماتت شيرا في عزّ القصيدة"، صورة لها على المسرح يبدو أنها كانت في ذروة الغناء كتب تحتها هذا الكلام "ماتت شيرا في عزّ القصيدة". بودّي لو تأتي أختي جيهان من الغيم وتحكي لي ماذا فعلت حينها وأين كانت وماذا فعل أبي؟ كتبت لي أنها سترسل إليّ القصّة كاملة، ستكتبها هناك في كيبيك في كندا حين تشفى من الجرح. بودي لو أعرف أين دفنت شيرا لأحمل لها في الصباح باقة من الورد.

الجار

أقفلت الباب على سرّ أبي وسرّ المدينة، نزلت إلى بيتي وجلست على الكنبة في تلك الزاوية المشرفة على البحر، كان الوقت في حدود منتصف الليل. أحمل أمانتين في قلبي وسرين.

مرّت الأيامْ، والزمن كعادته يجعل الأحداث في البال، مهما كانت أليمة ومفجعة، شيئاً بعيداً، غبشاً، تصبح كالندوب لا تؤلم بل تذكّر.

طرق بابي مرّة، قبل أن يعود عبد الجليل، ضابط في الأمن، عرفته من لهجته أنه من الساحل السوري، بالغ في التهذيب وفي الاعتذار عن إزعاجي وقال لي إن المعلّم يريد استخدام الشقة التي قبالتي لأغراض أمنية. وقع الطلب على رأسي ككرة حديد وشعرت للتو أنّني سأعود للاختباء في عتمتي، لم أجبه ولم ينتظر أن أجيبه، غادر على الفور، هو في الأساس جاء يبلّغني بما ينوون فعله، ولم يأتِ لكي يسألني أو يطلب رأيي.

في اليوم التالي سمعت جلبة على الدرج، فتحت الباب وجدته مع بعض العناصر يحملون صورة عملاقة لحافظ الأسد وضعوها أمام الباب وقالوا لي: "هذه هدية من المعلّم، هل نساعدك في تعليقها؟"، لم أجبهم، رحت أتأمّل الصورة تارةً ووجوههم تارةً أخرى، شعروا أنّني لا أريد ذلك فغادروا، التفت إلي الضابط وقال: "المعلّم ينتظر المفتاح"، أيضاً لم أجب، هززت برأسي بشكل موحٍ أنّني فهمت، بالطبع أنا فهمت، لكنني لا أعرف ما الذي ينبغي فعله، ليس عندي أحد أحتمي به أو صديق أستشيره في ذلك، صرت أذرع البيت جيئةً وذهاباً أدور حول نفسي. جاء الليل، لم أنم ليلتي ولا أعرف ماذا عليّ أن أفعل بهذه الصورة التي صارت داخل رأسي أكثر من كونها على جدار إلى حدّ محا طغيانها كلَّ ما في البال من صور. يا الله، لماذا تمتحن فيّ ما لا أحتمله، فرّغت شقة عبد الجليل من محتوياتها، وهي في الأصل لا تحتوي إلا على كتب وأكوام من الصحف ومخطوطات قصائد نشرها وأخرى لم ينشرها ومجموعة صور مع أصدقائه، شلّة من الشعراء والصحافيين، ومخطوطة رواية عن بيروت لدي نسخة عنها ورواية أخرى لم يكملها عن أخيه. كان يقول لي: "أكتب عن بلادي وادي الدموع، عن مدينة الجسر، عن أخي الذي شاهدته مرة واحدة حين كانوا يجرّونه في الصحراء عارياً، كنت لا أعرف أنه أخي، ولم أشاهده إلا في ذلك اليوم العاصف، أعرفه في الصورة التي احتفظت بها أمي في صندوق عتيق".

في فجر ذلك اليوم اقتادونا كالقطيع لنشاهد قتله أو إعدامه، في البدء ظننت أننا ذاهبون للاحتفال، طلبت من أمي أن تلبسني أجمل ثيابي فضغطت على يدي، كان الرجال على عتبة البيت يأمروننا بالاستعجال، مشيت متمسّكاً بيد أمي منتعلاً فردة واحدة من حذائي والأخرى في يدي، تتبعنا جدتي وأبي، ولا أدري إلى أين. كان الناس يتوافدون من كلّ الجهات، أصبحنا عند الضحى وسط الصحراء، شاهدت رجالاً مقنّعين يجرّون رجلاً عارياً لفّ وسطه بخرقة بالية، كانت الريح تحمل الغبار والرمال التي كانت حبيباتها تخز خدودي كرؤوس الإبر، خلف الرجال المقنعين رجل عملاق يكبح هياج كلب وخلفه فصيل من الجنود نتبعهم وجمهرة من الرجال والنساء المتشحات بالأسود الكامل. تلفتّ ورائي أبحث عن جدتي ليزا، لم أرها في الغبار، كان الناس خيالات ناس تتحرك. صوت الريح كان طاغياً يبتلع صوت أمي، كانت تنوح بهمس، كلّما التفتّ إليها كانت تسقط من عينها دمعة على خدي، فأبكي لبكائها، وتشدّ على يدي. "تعبت يا أمي" قلت، فحملتني على ظهرها، شاهدت جدتي يحملها أبي، وفي البعيد شاهدت جسماً غريباً ضخماً تبيّن بعد قليل أنه قفص يحيط به بعض الجنود، أمرونا أن نتحلّق حول القفص نحن في المقدمة، في داخل القفص كلاب هائجة أمرها رجل بالصمت ففعلت، عمَّ الصمت، أصبحت يدي ماءً بارداً في يدي أمي، أمر قائد الفرقة التي كانت تقودنا المقنّعَ بإدخال الرجل العاري إلى القفص، أنا لم أكن أعرف من هو هذا الرجل العاري الذي يجرّونه في الصحراء، بدا المقنّع متردداً ثم بدأ جسده ينتفض، انتزع قناعه وقميصه وحذاءه وأكمل التعري، حملت الرياح ثيابه وتقاذفتها بعيداً، ظنّ الناس ومنهم قائد فرقة الإعدام أن

هذا الرجل يقدّم طقساً ويتفنّن في أداء الواجب، وحين أصبح عارياً أطلق نباحاً وراح يجري في الصحراء كفريسة جريحة فأطلقوا عليه الرصاص. عمّت الفوضى، أدركت أن ما يجري ليس احتفالاً أو طقساً. بعد هياج قائد الفصيل والكلاب والصخب الذي أحدثه الناس صراخاً وعويلاً أمر مجدداً بالهدوء ثم تقدم رجلان آخران مقنّعان من الرجل العاري المقيّد بالجنازير، كان مرمياً كخرقة على الرمل، حملوه ورموه داخل القفص وأطلقوا الكلاب المسعورة خلفه، سمعت صراخاً كأنه آتٍ من جوف الصحراء، شاهدت أمي مرمية على الأرض تحمل الرمل وتنثره على وجهها، أمر قائد الفرقة النساء أن يزغردن ويطلقن صيحات الابتهاج، لم أعد أسمع شيئاً، أذكر أن بريقاً قدّ السماء تبعه رعدٌ قوي، خبأتني امرأة لا أعرف من تكون في عباءتها كي لا أرى، لكني رأيت كيف مزّقت الكلاب جسد الرجل الذي عرفت لاحقاً أنه أخي، وأنه حُكم بالإعدام بتهمة التخطيط للإطاحة بنظام الحكم.

اختلط المطر بدمع أمي، وحملت العاصفة أجسادنا المنحنية بعيداً بعيداً في البادية حيث بدأت مراسم الجنازات الكونية والنواح الأبدي في الجبال البركانية المقابلة لخط الرحيل وحملتنا الدواب كالمهاجرين القدماء من وادي الدموع إلى الشتات.

"كنت أنت هذا الحضن الذي ضمّني أو لمّني من شتاتي، أعبدك".

"وكنت أنت من أخرجني من عتمتي"، فيقول لي: "لكي تصبح الأشياء تستحق أن تروى لا بدّ لها من نهاية. ولا أدري إلى أين تقودني وتقوده النهايات".

على كلٍّ حال أفرغت الشقة وعلّقت على جدارها تلك الصورة واحتفظت بهذه الأشياء، كنت أشمّها كلّما هبّ الشوق كثيراً، أشمّها وأعيدها إلى الخزانة. ثم منعاً لشهية هؤلاء ألغيت باب بيت أختي الأساسي، بنيت مكانه جداراً وفتحت باب السلّم الداخلي. أعدته إلى سابق عهده إنما في زمن آخر، سكانه هم أنا والصور وأشرطة شيرا ومجموعات من الأعمال الموسيقية وآلة تسجيل وزّعت مكبراتها في كل أنحاء البيت، ستكون لها وظيفة لاحقة لم أتوقّعها على الإطلاق.

تحوّلت شقة عبد الجليل إلى مقرّ للمخابرات، وتحولت أيامي إلى كوابيس، مراراً تمنيت لو أُصاب بطلقة أو أنتحر لأن العمى وحده فيما لو عاد إلي سيكون عذاباً مضاعفاً. رحيمة كانت أيامي السابقة وأنا في قوقعتي. حتى في أيام الاجتياح كان القتل مرعباً لكنّني لم أشاهد القاتل، كان عبد الجليل يروي لي عن تفنّن هؤلاء في تحويل الإنسان إلى حطام بشري، كنت أتخيل ذلك، أمّا الآن أسمع وأرى، أيامي الماضية لا تقاس بما صارت عليه مع جاري الجديد، يبدو أنّ هذا الرجل لا يفعل أيّ شيء سوى احتراف التعذيب حتى الموت والتّلذذ به، كانت الأصوات تفلع الجدران وهي تستغيث: "بوس إجريك خلص، أنا بعرضك، يخليلك أهلك، انت والمعلّم تاج راسي، عندي أطفال، والله بريء، آخ... آآآآآآآه ياااا الله" ثمّ يتحول الصراخ إلى أنين، يبقى صوت السلك النحاسي وحده يفلع الهواء ويفسخ اللحم. في الصبح أمهات يبكين على سفرة الدرج وينتحبن، أما ذلك الثوري الذي كان يريد تحرير فلسطين بدءاً من نهب وادي أبو جميل في بدايات الحرب، فقد عاد وظهر من جديد بعد اختفاءٍ طويل، ظهر بوشم آخر على زنده وشم للأسد، وترقى في البزنس، من نهب الأرزاق إلى نهب الأرواح، وصار يدير البزنس الجديد بمهارة التحرير، يشي ويخلّص من يشي به، والتهمة مفبركة وجاهزة: عميل، والتسعيرة بدأت بعشرة ألاف دولار يتقاسمها مع المعلّم، وصلت إلى خمسين ألفاً وصارت بالمئات، وترقى أبو الليل إلى نائب ووزير وصار يخرج بموكبين وبنى قصرين. غريب! لا أعرف كيف تخلّص من الوشم الآخر لياسر عرفات على الزند نفسه، ربما هو رسم بالحبر، تاتو سياسي. في بدايات التشبيح بإسم التحرير كان لقبه أبو لنبة، لقب لا يوحي بالشدّة بقدر ما يوحي بالسخرية، كان اختصاصياً بالتصويب على أي مصدر يأتي منه الضوء، في بداياته الثورية يوم بدأ بنهب الأحياء قبل تدرّجه إلى رتبة خاطف في زمن المعلّم، صار لقبه أبو الليل، وهو لقب موحشٌ وموحٍ بالغموض يتضّمن تهديداً يتوارى خلف اللقب أبو الليل، مسببٌ للعتمة، كثرٌ من لقبّوا بهذا اللقب لكنهم لم يتدرّجوا في المراتب مثله، موهوبٌ هذا الحرامي.

أشياءٌ كثيرة شاهدتها، وتمنّيت لو بقيت عمياء، وأشياءٌ كثيرة سمعتها كانت كالنصل تذبحني.

لم تقتصر أعمال جاري على سحل الأبدان بل صار البيت مرجعاً للكبيرة والصغيرة بدءاً من الحي وانتهاءً بالوطن كاملاً أرضاً وشعباً وقطعاناً، كلّ الوجوه التي كنت أشاهدها على شاشة التلفزة مساءً كنت أشاهدها تدخل مكتب جاري صباحاً ومساء، هناك مخضرمون أعرفهم من جولات الحروب رؤساء ميليشيات، من شتّى الأصناف في غالبيتها كانت تحمل على كاهلها مسألة التحرير وصولاً إلى القدس الشريف، ووجوه جديدة دخلت المعترك من باب جاري وأخرى أصيلة لم يخرجها من بابه بل من البلاد أو كان يرسلها إلى القبر ويرسل إكليلاً باسم قواته العاملة في الوطن ويمشي في الجنازة وأحياناً حين يرتفع منسوب النفاق يشارك في التعازي كواحد من أهل الفقيد.

ليلة أقيم احتفال في الحي لفرع من العشائر التي احتلت بعض الأبنية بإشراف أبو الليل قبل تدرّجه وزيراً، جاؤوا بفرقة من البدو، طبّالٌ وزمّارٌ، ودارت البهجة والدبكة لأكثر من يوم، ونحروا الخراف وخرجت النساء يزغردن من على الشرفات وأُطلقت العيارات النارية، ثم شاهدت جمهرة من الرجال يتقدمون من جهة الأرلوكان كمظاهرة يحملون على الأكتاف رجلاً ويهتفون "بالروح بالدم نفديك يا صالح"، تبيّنت بعد قليل أن صالح هو مهرّب المخدرات الذي خرج من السجن لتوه، في اليوم التالي شاهدته واقفاً في طابور أمام باب الجار، أي المعلم الذي أصبح جاري، وبعد أيام شاهدته على الشاشة يدلي ببرنامجه الانتخابي، وملأت صوره جدران المدينة.

شاهدت هذا الجار مرّةً أول افتتاحه للمقرّ وأنا أخرج من بابي، حدّق في وجهي بدهشة، كأنّه شاهد ما لم يتوقعه، وشاهدت في عينيه ما توقعت حدوثه، ربما كان يعلم أنّني عمياء وصُدم بأنني أرى وأراه، ربما كان لا يريدني أن أشاهد وجهه لأمرٍ غامض، هو بالتأكيد يعرف سيرة حياتي ويعرف أنّني كاتبة باسم مستعار، هو يعرف ذلك وأشياء أخرى، لكن أن أرى وأبصر، مسألة لم ترق له على ما يبدو، أو لم يكن يعرفها، لم يخبره بها أحد، كان يريدني جارة عمياء في ليل كامل كي يصفو له نهاره وليله. بالطبع هذا لم يمنعه من مهمته في تعذيب الأرواح البشرية وإذلال الطامحين بمناصب، كنت أصحو على الأنين والبكاء، ليبدأ نهار طويل مليء بالصراخ، صرت أعرف ما إذا كان السوط من معدن أو جلد، وأعرف قوة ارتطام الرأس بالجدار، والصوت الذي يبلغه الألم في أقصاه، أعرف الصراخ الذي يسبّبه ألم العمود الفقري في استخدام الكرسي الألماني وصرخة الكرسي الكهربائي وتوسّلات فلق الدولاب، ومعنى الصمت الذي يلي طلقة لا صوت لها، وجلبة الليالي على الدرج حيث كانت تُحمل الأبدان المهشمة كصرر إلى المجهول.

مرّة تجرّأت وناديت على أبو الليل باسمه الحقيقي أمام مرافقيه الذين على الأرجح لا يعرفون اسم معلمهم الحقيقي، يعرفونه باللقبين، شخصية مزورة، أو أن بعضهم يعلم ويسكت بحيث لا مصلحة له بتقديم نفسه أنه عالم بالخفايا، وأن منسوب ذكائه يتخطى العادي، لا وجود لرجل أذكى وأدهى من المعلّم، هذا أمر محسوم، "قرار جمهوري"، بهذه العبارات كان يسخر منه بعض أزلامه وهم في عملية سطو على ما تبقى من بيوت. تقدّم مني باحترام، كنت أمام بوابة المدرسة الأهلية أتحدث مع الحاج نقولا، وشاهدته مع شلّته يهبط من جهة الأرلوكان، أجابني: "نعم سيدة هدى"، "أريد أن أهديك بيتي"، قلت له بجدّية الكاره للمكان، فوجئ بكلامي، هو بالتأكيد لم يتوقّع حتى أن أبادره التحيّة، أضفت: "أنا جادة بذلك، بدي اهديك البيت، أصلاً ما عاد في غيري من أهل الحيّ، والبناية صارت ابتدائية تدمر!!!"، وصلت الرسالة كاملة، رسالة بمضمون واحد لشخصين، له ولشريكه، لعلّه صعق بجرأتي، فراح يبني عليها توقعات مرّت سريعاً في باله وهو يحدّق في نقطة مجهولة، لعلّه ظنّ وبسرعة أن هذا الكلام يستحيل أن تتفوّه به امرأة عادية،

الامرأة التي تتكلم بهذا الوضوح والجرأة العالية لا بدّ أن تكون مدعومة أو مجنونة، الامرأة التي تتكلم بصوتٍ عالٍ بهكذا أمر قد يعتبر تهديداً للأمن القومي وقائله عميل أو متآمر أو معادٍ للخط النضالي. التفت بسرعة وراح يروز ردود أفعال مرافقيه، بالطبع هذه الفئات من البشر تبدي في الحال استعداداتها لإشارة ما تأتي من سيدها، لكنّهم بدوا متحفّظين ومتحفّزين في الوقت نفسه، بين بين، بخاصة وأنّ الفريسة امرأة، هو في الحقيقة كان ينظر إليهم ليس بدافع تبيان ما يمكن فعله مع امرأة تخطّت حدودها، بل خوفاً منهم، خوفاً من أن يكون بينهم من فتح علاقة برئيس الفرع، أو أنّ رئيس الفرع كلّفه بمهمّة التجسّس عليه شخصيّاً وسوف ينقل حرفياً وقائع ما حدث، وهذا الأمر ليس جديداً، كثرٌ من ظنّوا أنهم من المحظيين، وزراء ونوّاب، كانوا بين ليلة وضحاها يجرّدون من مواقعهم كنوع من امتحان ولائهم، وهو نوع من التأديب المسبق أو الترويض.

أربكه هذا الموقف، أربكه هذا العرض الفجائي الذي يعني ضمناً وبالتحديد أن ما يحدث في الشقة، في الحي، في المدينة، أمر غير محتمل، أربكه الأسلوب في إيصال الرسالة، أسلوب يذكّره بتجارب الكبار حين يريدون التخلص من أحد ما، احمرّ وجهه ونزّ العرق من جبينه، دار حول نفسه كفاقد للبوصلة ومشى دون أي تعليق. كنت أحاول أن اقرأ أفكاره ولعلني أصبت في الكثير منها.

وصلت الرسالة للجار الجديد، وصلت فوراً، عرفت ذلك من منسوب الصريخ الذي تعاظم في تلك الليلة، كان يعذّب مجنون الوادي، اختاره شخصياً ليسمعني الجواب، جواب الرسالة، فهو يعرف أنّ هذا الغريب يعني لي الكثير، لذلك اختاره. يبدو أنه ترك باب غرفة التعذيب مفتوحاً كي يصل الصوت بوضوح أكثر، كي تفلع الآاااااخ، آخ الألم، رأسي وتقطّع قلبي. وقد اختار مجنون الوادي ليس لعلمه أنّني أتعاطف معه فقط وأشتري له بعض الحاجات أحياناً، بل لأن صوته حين يتألّم سبب كافٍ لانهياري. كان حين يعذّبه بعض الصبية ينشج كالذبيحة، علمت أنه استفزاز لي، فخّ لاستدراجي. لعلّني واجهت ذلك بما لا يتوقعه عاقل على هذا الكوكب، فتحت أبوابي ونوافذي وأدرت آلة التسجيل، وضعت السمفونية التاسعة لبتهوفن ووزّعت مكبّرات الصوت في كل الجهات وواحد على سفرة الدرج، ليس هرباً من الألم بل بقصد أن أواجه هذا القاتل، هذا الجلاّد، لا بد أنه يكره الموسيقى لأنه يستحيل أن يكون هذا الجلاّد يحبّ الموسيقى، يستحيل التوفيق بين الموسيقى والتعذيب، ووضعت حجم قوة الصوت على آخر احتمال، وصدحت الموسيقى ودار العالم، صار المبنى يرتجّ كاملاً، خاصةً مع قرع الطبول وآلات النفخ النحاسية. خرج ما تبقى من الناس إلى الشرفات في الأبنية المجاورة، تجمّع البعض في الشارع والبعض على السطوح، شاهدت الجنود على سطح برج المر في ضوء القمر، صعدت إلى بيت أختي جيهان من باب أبي السرّي من الدرج الداخلي، فالطابقان كانا بيتاً واحداً ذات يوم، قبل موت شيرا، وبدوري وقفت على الشرفة كسائر الناس وصرت أراقبهم لأتبيّن ردود أفعالهم، الكلّ كان في حيرة ودهشة، لعلّ البعض ظنّ أنّ المعلّم هو من وضع هذه الموسيقى لسببٍ ما، فهو ليس بحاجة لأي سبب أو تبرير لفعل ما يشاء، لا أحد يسأله لماذا ولا أحد يحتجّ، هو الوحيد الذي يتمتع بالحرية الكاملة في الحي، هو يحتكر هذه الحرية، يقفل الشارع ويفتحه ساعة يشاء، يأتونه بما يشتهي وصار يشتهي أشياء كان لا يعرفها سابقاً، وجد في بيروت ما يعوّض له سنوات الحرمان في قريته، بيروت كانت لبعض هؤلاء منجم ذهب، كانت مثلي منتهكة، على كلّ حال لم تكن هذه الشخصيّات شديدة التركيب والتعقيد لفهمها. المهم، تحوّل الحي إلى ما يشبه يوم القيامة، وقع لغط بين الناس، لا أحد يعلم ماذا حدث ولماذا صدحت هذه الموسيقى بكل صخبها، بعد بيتهوفن وضعت مقطوعة

لفرقة طبول إفريقية يستحيل من يسمعها إلا ويصاب بمس الإيقاع الصاخب ويرتجّ بدنه لوحده، كانت هذه المقطوعة كفيلة أن تخرجه من جلده ليخرج ويصرخ على سفرة الدرج فاقداً صوابه: "مجنونة، مجنونة، مجنونة بنت القحبة مجنونة القحبة بنت القحبة"، وراح يطلق النار من مسدسه على مكبّر الصوت الذي على سفرة الدرج ثم هبط السلم وراح يركض في الشارع يلحق به رتل من مرافقيه.

أصبته وما كنت أتوقّع أنّني سأصيب بهذا السلاح، أن أُفقده صوابه، كنت أواجهه فقط بطريقة جنونية، لا أدري كيف خطرت ببالي هذه الفكرة، من أين أتت، لعلّ العجز أحياناً يجعل الإنسان في حالتين: الاستسلام أو اختبار أشياء مبتكرة. المهم أصبته، شاهدته يركب واحدة من سيارت المرسيدس التي كلّها بدون نمر وجديدة، وصعدت زمرته في مجموعة من الرانجات التي هي بدورها غامضة المصدر لا نمر لها، وانطلقوا باتجاه القنطاري صوب الحمراء. دخلت، أوقفت الموسيقى الصاخبة ووضعت أغنية لشيرا تقول باللهجة العراقية: "لو أني كنت وردة لقطفت نفسي إلك"، وعدت إلى الشرفة أتابع غيماً يرحل صوب الشرق، أظنّها كانت أيام الخريف. لم أفكّر بنتائج ما فعلت، ولا يهمني ماذا ستكون، كنت مستسلمة للغيم، لكنّ صوت الأنين لم ينقطع في تلك الليلة. في صباح اليوم التالي كانت شقة عبد الجليل خالية إلا من حطام بشري حُمل إلى المستشفيات، ليتني بقيت في العتمة ولم أرَ ما رأيت في تلك الغرفة التي كانت تعذَّب فيها الأجساد. لم أرَ أثراً لسالم مجنون الوادي، لقد حملوه بعد موته إلى المجهول الذي اكتشفت بعضاً منه في مكبّ النورمندي.

مجنون الوادي

في هذه الجولة لم تنتصر الموسيقى، بل أجّلت دوري، قد تبدو هذه الحادثة خيالية، معظم ما عشته ومرّ علي يبدو للبعض من صنع خيال خصب، خيال روائي، لا يهم، ماذا يفكر الآخرون عني وعن مدينتي، المهم أنّني أروي ما حدث فقط كي أبقيه مسجّلاً على هذه الأشرطة، أشعر بمسؤولية أن أسجّل هذه الأشياء كأنّي أرتكب خيانة بحق جسدي وبحق من أحببت إذا تخلّيت عن هذه المهمّة، ولو كان بوسعي أن أدوّن ما حدث لسواي في بيروت منذ بدايات الحرب لفعلت.

من الأشياء التي حفرت في نفسي تلك الشخصية النادرة، مجنون الوادي، عرفته منذ أن جئت بيروت، كنت أسمعه في البداية يلقي خطبته اليومية التي كان دائماً يشتم فيها: "يا أبناء شعبنا البواسل، طزّ فيكن وباللي بيشد عأياديكم، وطز فيكن" ويطلب من جمهوره أن يردّد هذا المطلع وعلى هذا النحو، يصفق له فضوليون وجمهرة من الصبية يرددون خلفه مرة "طزّ فيكن" ومرة "طزّ فيك"، وحين يدبّ الملل يتفرقون. كان بعض السابلة يرمونه أحياناً بعلب التنك، كان صوت قرقعتها وتدحرجها على الإسفلت يجعله في حالة فقدان التوازن فيصرخ بشكل مرعب كأنّه يُذبَح، يجعل الأبدان تقشعرّ، فيتدخل البعض لتهدئته.

كان يتودّد إلي وينادني باسمي المستعار تالة، لم أسأله كيف يعرفني ويعرف إسمي، كنت لا أريد أن أدخل معه في حوار. في انفراجات بصري قبل شفائي كنت ألمحه أحياناً يأخذ شكل تمثال الشهداء ويقف لساعات على هذا النحو. سألت جيهان عنه مرّةً فقالت لي إنه من بقايا عائلة هاجرت. يروى أنه كان صغيراً حينذاك، واختفى لسنة قبل هجرة أهله الذين ظنّوا أنه غرق في البحر، بعيد رحيلهم بأسابيع ظهر من جديد. يقال إنه عندما عاد إلى بيت أهله في شارع فرنسا وجد عائلة غريبة تسكن البيت، لم يستقبله أحد وتعاملوا معه كلقيط، رغم أنّهم عرفوا أنّه ابن تلك الأسرة التي هاجرت، طردوه، بقي لأيام طويلة ينام في مدخل البناية ويبكي: "أريد أهلي، هذا بيت أهلي..."، لم يبقَ أحد من معارف أهله أو من الجيران القدماء يشهد معه أنه الوريث لهذا البيت فكان مصيره دار الأيتام. مرّة سألته، تقول جيهان، أين كنت عندما سافر أهلك؟ قال: في البحر. مع من؟ الإجابة الوحيدة التي يرددها: هناك... في البحر، جواب غامض كالبحر، لغز. نعم قصة اختفائه في البحر بقيت لغزاً وسرّاً مات معه أو قُتل معه.

في دار الأيتام كان لا يفعل شيئاً سوى الرسم، من رسوماته الشهيرة باخرة تغرق وعلى سطحها آلاف الوجوه المذعورة وطفل على غيمة يتفرج، على شاكلة التايتانيك التي غرقت في بدايات القرن العشرين، بالطبع هذه اللوحة تحتاج محلّلاً نفسياً ليكشف سرّ هذا الصبي. بعد ذلك صار مولعاً برسم الوجوه، لقد ترك في دار الأيتام كما يروى ما يقارب ألف لوحة، اُختيرَ بعضها ليعلّق على جدران المدينة، نوعاً من الترويج للمؤسسة. هو لا يذكر أنه رسم هذه الأشياء، لكنها كثيراً ما زيّنت جدران بيروت.

غريبة حكاية مجنون الوادي، لا أحد يعرف اسمه الحقيقي، كانوا ينادونه سالم، ربما أطلقوا عليه هذا الاسم للمعنى الذي يحمله. تغيّرت أحوال سالم فجأةً بعد رحيل عبد الجليل الذي كان يهتّم به ويتركه ينام أحياناً في مكتبة الملجأ حيث كانت ولادتي من جديد، في ليلة العشق الكبرى. لقد دخل في الصمت بعد رحيل عبد الجليل وصار عرضه اليومي مقتصراً على تقليد التمثال، كان يبقى لساعات طوال متّخذاً وضعية ثابتة، لكنه بقي كلّما التقى بي يحيني وينادني باسمي المستعار: تالة، كيفك تالة؟ فاجأني ذات يوم أنه عاد

إلى الرسم وكانت باكورة هذه العودة هي بورتريه لي بدوت فيه حزينة، هي أول وآخر ما رسم في عودته هذه.

مرةً جاءني ببوستر للمخرج والممثل الأميركي كلينت إيستود يرتدي قبعة رعاة البقر، وقال لي إنه يريد قبعة شبيهة بها، اشتريت له واحدة فصار يرتديها ويقلّد الرئيس صدام حسين، يحمل معدّلة من خشب في يد وفي فمه سيكار صنعه من قشور عرانيس الذرة، يقف في الأمكنة الملاصقة للجدران الشاهقة ويأخذ تلك الوضعية. بعد أن اشتريت له قبعة "الكاوبوي" هذه رسمني كردّ للجميل، وللمرّة الأولى يطرق بابي ليسلّمني هديته لي، بعد ذلك لم أعد أراه، لقد قتله هذا الوحش، لا أعرف كيف استطاع هذا البني آدم تعذيبه حتى الموت، كيف استطاع تحمّل صراخه الذي كان يفجّ الليل، كان يريد منه أن يعترف أنه عميل لإسرائيل، حصل ذلك في تلك الليلة التي واجهت فيها هذا القاتل بالموسيقى، كنت أسمع وقائع القتل بالتفصيل، "عامل حالك اهبل يا إبن الشرموطة قرّ وله قرّ"، وينهال على جسده بالسلك الكهربائي، كنت أسمع نشيجه ولكنني لم أستطع فعل شيء سوى الصراخ والبكاء، كنت أصرخ وأنادي على الناس ليتدخّلوا وينقذوا هذا الإنسان الحطام من موته، ولكن لم يتجرأ أحد أن يقترب، حتى ما تبقى من الجيران في المبنى غرقوا في عتمات بيوتهم، إلى أن خطرت لي تلك الفكرة المجنونة، موسيقى بيتهوفن وطبول إفريقيا، ليتها خطرت لي من زمان منذ بدأ هذا الهمجي بتعذيب الأرواح.

في الواقع لا أعرف بالتأكيد ما إذا كنت فعلاً قد انتصرت عليه وأصبته مثلما كان يصيب مني الروح ويقتلني كل يوم في تعذيبه للناس، لا أعرف ما إذا كان تزامن تطبيق فكرتي مع شيء طارئ حدث معه واضطره إلى الرحيل فجأةً، قيل إنه أصبح في البوريفاج ورُقّي إلى رتبة أعلى، هو كان يراهن على ترقية عندما كان يريد من مجنون الوادي الاعتراف بأنه عميل متخفٍّ قي شخصية مجنون، بحيث درجت حينها اتهامات العديد من غريبي الأطوار. لذلك كان يسجّل وقائع الاستجواب ليرسلها إلى سيده في حال انتزع من أفواه الأبرياء أقوالاً تخدم شكوكه وتجعل حياة قائلها بين ظلمتين: السجن إلى الأبد أو القبر.

لقد وُجد مجنون الوادي عارياً ومرميّاً على مكبّ النفايات في النورمندي، حملته سيارة الدفاع المدني إلى برّاد مستشفى الجامعة، بقي لأيام، خلالها سألوا معظم سكان الوادي وراس بيروت، بحثاً عن هوية هذا الرجل ومصدره ودينه، لكي يعرفوا أيُن يدفن وكيف، على الطريقة المسيحية أم الإسلامية أم اليهودية، لا أحد يعرف دين سالم، البعض كان يقول أشوري والبعض يقول صابئي وآخرون قالوا إنّه يهودي هاجر أهله في الأربعينيات. كانوا يتحرّون عن دينه وليس عن قاتله، عجيب هذا الزمان.

كنت أول من سئل عن هوية سالم ودينه، طرق بابي رجل كنت ألمحه في الحي، هو من زمرة أبو الليل، فتحت له، حيّاني وسألني: "سيدة هدى مطلوب مني إسالك إذا كنت بتعرفي شي عن سالم مين اهلو شو دينو؟"، قلت له: "لشو؟"، أجاب: "حتى يعرفو على أي طريقة لازم يدفنوه"، فسألته: "واللي بعتك عرف مين قتلو، شو دين اللي قتلو؟" خرج السؤال من فمي كزخّات الرصاص، زمّ شفاهه ورفع حاجبيه كالذي يعلم ويخاف الإفصاح أو التصريح بعلمه، قلت له أن يبلّغ من أرسله أنّ هذا القتيل هو مسلم ومسيحي ويهودي وبوذي ووثني ومن عبّاد الشمس والماء واللاة وهبل وقوس قزح، قلْ لسيدك أن يأتي بكهنة من هذه العبادات ليقيموا الجنازة التي تليق بهذه الروح، ثم طلبت منه أن ينتظر لأملي عليه ويكتب ما أمليه على ورقة كي لا ينسى بعض الديانات التي ينتمي إليها سالم. فعلت ذلك وصغت رسالة حملتها لساعي

الخير الذي يقف في بابي، وأوصيت أن تستحدث مقبرة لمثل هؤلاء الناس، ولا بأس أن تحمل اسم "مقبرة الغرباء". كلنا غرباء.

دُفن سالم في "مقبرة الشهداء". كنت الوحيدة التي رافقت جنازته، هناك بالقرب من حرش بيروت حفروا له، حاول ذلك الملتحي الذي كان يلحده أن يمنعني، أن أتقدم من الحفرة، لكنّني دفعته جانباً وقلت له: "افعل هذا مع غيري"، "حرام يا حرمة"، أجبته في الحال صارخةً في وجهه: "أنت لو بتفهم بالحرام كنت واجهت اللي قتلو، إذهب إلى الجحيم أنت وتحريماتك". "كافرة"، صاح كديك مبحوح، رفع جبّته وغادر يتمتم ما لا يهمني أن أسمعه. بقيت والحفّار قرب القبر، ساعدته في إهالة التراب. في اليوم التالي أحضرت الشاهد، حفر عليه صانع الشواهد الذي يقيم في الجوار ما أمليته عليه: "سالم مجنون الوادي توفّي تعذيباً في مقرّ المخابرات". حين وصلت وجدت على قبره إكليلاً من الورد الأبيض كُتب عليه: أصدقاء الغريب. ثبّت الحفّار الشاهد بعد أن أحاط القبر بالحجر الذي أردته أسود وأصفر. جثوت أمام الشاهد لوقت طويل أسترجع أيامي وأيامه.

الاغتصاب

ومرّت الأيام، والسفلة يزاولون هتك المدينة، وأنا أزاول انتظارات الغائب، في الواقع كنت غير متيقنة من أنّ عبد الجليل قد يعود، وصلتني رسالة منه من تونس، حملها إلي شمس الذي كان يشارك هناك في عمل مسرحي صمّم له السينوغرافيا، رسالة طويلة يروي فيها سيرته في بيروت، سمّاها "كتاب العشق". "سأعود إليك، قال فيها، سأعود إلى شرفتك البحرية، مشتاقةٌ يدي إلى حرير يديك". كم تأسرني لغته هذا العراقي.

صار عمري مخزن أسرار الغائبين، لم يبقَ أحدٌ ممن أحببت، كلّهم رحلوا وتركوا رسائلهم حتى صار قلبي صندوق بريد، كثيراً ما عنّ في بالي أن أذهب ولو بالخفاء إلى بلدتي في الشمال أقف قبالة بيت أهلي هناك لأرى كيف أشاهده الآن بعد كلّ هذه السنين، اشتقت إلى والدي وإلى شجر السنديان، إلى غرفتي ونافذتها المطلّة على السهل، لا أدري لماذا عصف الحنين في قلبي هذا المساء، ربما رسالة عبد الجليل أشعلت الجمر، ثم أن مزاجي هذا المساء يشبه خريف هذه المدينة المهجورة من عشاقها مثلي، والمتروكة للرعاع، لم يبقَ منها إلا الصورة التي في بالي، يبدو أنّني أسكن صورة المكان أكثر من المكان نفسه.

أصبحت صورة أبي معلّقةً في بالي متماهيةً بصورة شيرا والدة جيهان، وصورة أمي متداخلة بصورة الداية عيشة، صورتان لكلٍّ منهما وخزٌ موجعٌ، وصورة عبد الجليل وهو يلوّح بيده من على سطح الباخرة تشعل في قلبي الشوق، أمّا حنيني إلى بيت أهلي فهو كلّيٌّ وجارف، غمرني كالطوفان.

"سلامٌ لترابك أيتها البلاد التي علمتني أنثاها مفردات أسكنها كما البيت"، هكذا قرأت أول سطر في رسالة عبد الجليل، كأنّه جمرةٌ سقطت في هشيمٍ يابس متعطش للاشتعال فهبَّ. كنت على شرفة البيت البحرية، أقرأ الرسالة وأستعيد لحظة الرحيل، مستسلمةً لموج الحنين. فجأةً طرق بابي بشكل عنيف وصوتٌ أمر أن أفتح، سقط قلبي من خلف ضلوعي وركضت نحو الباب الذي يرتجُّ تحت قبضة معادية. "افتحي، افتحي بسرعة"، لم أسأل من، حاولت أن أنظر من فتحة المنظار، لكن لم أتمكن من شدّة ارتجاج الباب. "نحنا عارفين أن هذا الحيوان عندك، إفتحي أحسن ما نكسر الباب ولي"، وختم تهديده بلبطة شققت قسماً منه، تمادى أكثر في الطرق والسباب، "إفتحي ولي قحبة"، فلعت هذه الكلمة رأسي، كأنّها كرة حديد أصابت صدغي، فكّرتُ أن أختبىء، أن أصعد من الباب السرّي إلى الشقة التي فوقي، شقة أختي، ولكنّ خفت أن يتبعوني، فكّرت أن أخرج إلى الشرفة وأصرخ، أن أختبئ في خزانة المجلى، كانت أفكاري تتسابق مع محاولات خلع الباب التي بدت جدية، عرفتهم، هم يفعلون أي شيء، كل ما يشتهون أن يفعلوه ينفّذونه دون رادع، لذلك خفت أن يغتصبوني ففكّرتُ أن أرمي بنفسي من الشرفة فيما لو خلعوا الباب، لا أعرف كيف أصبحت في يدي سكّين المطبخ، متى وكيف حملتها؟ لا أدري، نظرت إلى نصلها، اجتاحت بدني قشعريرة، سأقتل نفسي لو حاولوا الاقتراب منّي، لا أعرف لماذا غادرتني شجاعتي وابتلعني الخوف، كان علي أن أفتح فوراً، وأصرخ بوجههم أو أسألهم على الفور: من أنتم وماذا تريدون؟ وأن أهدّدهم، لكنّهم باغتوني، عرفوا كيف يجرّدونني من المبادرة ويسقطونني في الرعب، لم يعد ينفع شيء من كلّ هذا، لقد خلعوا الباب وتدافعوا لم أعرف كم عددهم، توزّعوا في البيت وبدأوا

مهمتهم النبيلة، لم يتركوا شيئاً في مكانه وعلى حاله، دخلوا غرفة نومي، فتحوا الخزانة وبعثروا الثياب، فتحوا الجوارير وراحوا يدققون في الأوراق ويرمونها أرضاً، غرفة االجلوس صارت ركاماً من الكتب والأوراق وحطام التحف والفخاريات التي بقيت من زمن أبي زمن هناءات بعيدة وكذلك الأشرطة التي أتلفوا بعضها. لم ينسوا المطبخ ولا الحمّام حيث خرج أحدهم وبيده "كيلوت" أحمر وراح يصرخ: "وجدتو وجدتو وجدتو"، صار يمرّغه في عضوه ويضحك ويرتجف، بدا هذا الشيء كأنه قطعة لحم التمّت عليها دبابير جائعة، تركوا كلّ شيء واجتمعوا، جمعتهم قطعة القماش هذه، صاروا يشمّون رائحته كأنّه شيءٌ مخدر.

كان ظهري ملاصقاً للحائط قرب المدخل، يداي خلف ظهري تشدّان على السكين، لم ينتبهوا إليّ، حيث اختفى جسمي خلف درفة من الباب، شعرت بنقط سائل ساخن تكرج على ساقي نحوى كاحلي، كنت أراهم من شقّ في الباب أحدثه التكسير، صاروا يتناوبون على الكيلوت ويتناتشونه، بعضهم يفرك به عضوه ويضحك والبعض يتنشّقه، ودخلوا في تلك الحالة الهستيرية من الرغبة والاهتياج، وصار الكيلوت بين أيديهم نتفاً حمراء صغيرة. راقت لهم المسألة فراحوا يبحثون عن غيره بين أكوام الثياب التي بعثروا، خفت أكثر أن يشاهدوني وهم في هذه الحالة، قد يغتصبونني بالتأكيد. سمعت وقع خطوات على السلّم يبدو أنها لم تصلهم، كانت الخطوات تقترب، وكانوا في همكتهم في البحث عن ملابسي الداخلية، بعضهم رفع كيلوتاً والبعض سوتياناً والآخر قميص نوم، البعض كان أكثر حكمةً في المهمّة، كان يبحث عن المزيد من النقود بعد أن أفرغ جزداني.

جاء الصوت من الخارج: "وين صرتوا ولك حيوانات؟"، سقطت ملابسي من أياديهم كطيور ميتة، يبدو أنهم لم يتوقّعوا أنّ مسؤولهم سيتبعهم ولم يقدّروا أنهم أضاعوا المزيد من الوقت في تناتش ملابسي الداخلية، فتدافعوا نحو الباب كشلعة ماعز تفرّ من ذئب باغتها. "مشي الحال سيدي، ما في حدا"، قال أحدهم ثمّ سمعت صفعة قوية تلتها عدة صفعات أخرى مع جملة تتكرّر بعد كل واحدة: "وأنت ما بتفهم ولك حيوان منوب"، أما الأخير الذي كان منهمكاً في البحث عن النقود فكان آخر من يهمُّ بالخروج، شاهد بقعة من الدم بموازاة أسفل الباب، تماماً أمام قدميّ الحافيتين، كنت أشاهده من الصدع وأتّتبع ردّة فعله، صار يحدّق في بقعة الدم التي لم أنتبه إليها لولاه، ثمّ بدأ يجول بنظره في أرجاء البيت، قبل أن يمدَّ يده ويحرّك الباب جهة الخارج، لظنّه أنّ أحداً جريحاً ينزف خلفه وقد يكون من رفاقه، فاصطدمت عيناه بعينيّ كصاعقتين، شهق وتراجع كما لو أنّني دفعته بقوة، تأمّل وجهي موحياً بشيء ينوي فعله، هكذا قرأت في ملامحه، أن يقتلني مثلاً أو يغتصبني، صرت أرتجف كما لو أني أصبت بصعق كهربائي متواصل، اقترب مني ومد يده نحو صدري، حاولت الصراخ فضغط على فمي فوراً، وبيده الثانية قطع سلسال ذهب من عنقي كان هديّة من جيهان علّق فيه حرفا اسمها واسمي، سقطا أرضاً، تدحرجا واختفيا بين الكتب والحطام، بحث عنهما بسرعة بدون جدوى، فخرج على عجل ليلتحق بفصيله وخرجت خلفه رائحته النتنة. بقيت مكاني لزمن كأنّني تمثال من شمع، سقطت السكين من يدي وكادت تثقب رسغ قدمي، أدركت أنّني كنت أمسكها من جهة النصل وحزّت عميقاً راحة يدي، شعرت بتراخٍ في جسدي وركبتيّ ثم حامت فوق عينيّ غمامة بيضاء صرت أرى من خلالها الأشياء غير واضحة، ذكرتني بعماي، ووجدتني أتهاوى كخرقة وسقطت.

استيقظت من غيبوبتي عند أذان الفجر، كنت أسمعه يأتي من أكثر من جهة ومكان وصوت، تباعاً وبمواقيت متداخلة. ظننت أنّني في منام حين وجدتني مرميّة كخرقة مبلّلة بالدم وأمامي حطام أثاث

ومزق من ثيابي وبابي مشرع على ليل خريفي. حاولت النهوض فلم أستطع، شعرت أنّني عاجزة عن فعل ذلك، خائرة قواي وفمي يابس، تأمّلت جرح يدي، كان ينزّ ماءً، بقيت لوقت، لم أعثر على خيط، على طرف خيط يربطني بالذي حدث لي، ظننت ثانيةً أنّني في منام، ولكن ما أراه وأتحسّسه بيدي من أنحاء جسدي المرميّ على العتبة كذبيحة، وتلك السكين التي جفّ الدم على نصلها، هذا ليس مناماً.

حاولت النهوض لتبديد وهمي بأنني في منام فانزلقت قدمي على دمي وسقطت ثانيةً، صرخت، صرخت احتجاجاً وليس ألماً، احتجاجاً على الوجود ربما أو على كوني امرأة وأحيا، فتدحرج صوتي على السلّم نحو الرصيف وتردّد صداه في فجر ذاك اليوم. لملمت حطامي ونهضت مرّة أخرى لأبلّل فمي بالماء، حبوت صوب المطبخ كأنَّ قذيفة حوّلت محتوياته إلى ركام، حتى اللحظة هذه كأنّي أمشي على برزخ بين الحقيقة والوهم، بين اليقظة والمنام، كلّما وقعت عيني على حطام يذكّر بأساسه أصاب أكثر بالشك بما أنا فيه. مشيت صوب غرفة نومي حيث أضع قنينة ماء عادةً قرب السرير من ناحية الباب، لم أجدها، جلت بنظري متفقّدةً كمّ الخراب، أول شيء شاهدته خوذة عسكرية على الشافونيرا، صارت خوذتين في المرآة، قربها قنينة الماء فارغة، وفي أرجاء الغرفة ثيابي وأوراقي وشموعي وصوري ودفاتري وأشرطة حكاياتي، كانت هذه الخوذة كافية لتعيدني إلى وعاء جسدي وإلى صوابي، هي طرف الخيط أو هي الخيط كاملاً، أولاد الحرام... فعلها هذا اللعين، وفى بوعده، أو انتقم على طريقته.

رحت أتفقّد جسدي، جرح يدي، انتابني شعور مرعب بأنهم قد اغتصبوني، صرت أستعيد الوقائع وأضع الأحداث في تسلسل منطقي كي أتبيّن ذلك، رغم أنّي جسدياً لا أشعر بأن هذا قد حدث، ما من أثر على الإطلاق، لكن شكي دفعني إلى هذا الظن. بحثت عن قنينة ماء أخرى، انتعلت شحاطتي لأتحاشى قطع الزجاج وعدت إلى المطبخ، صندوق الماء في خزائن المجلى السفلية، أتيت بقنينة وغسلت فمي وشربت، نظفت جرح يدي، عبرت جسدي موجة من البرد، دخلت غرفة النوم ولففت جسدي بشرشف وجلست على حافة السرير، لا أعرف ماذا أفعل، من أين أبدأ، أين أذهب، لمن اشتكي. بدأ الضوء يمحو العتمة وبدأت أبكي، هذا هو سلاحي منذ آلاف السنين، السلاح الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن ينتزعه مني، أبكي منتحبةً في نكبتي الجديدة، من أين جاء هؤلاء بكلّ هذا الحقد؟ كيف يستطيعون أذية من لم يؤذهم لمجرّد أن يأمرهم من هو أعلى منهم رتبةً بذلك؟ كيف ربّتهم أمهاتهم؟ أليس عندهم أهل وأخوات وأطفال؟ شاهدت نفسي في مرآة الخزانة، "ليتني بقيت في قوقعتي لا أرى"، قلت لصورتي في المرآة، صورتي التي بدوت فيها كأنّي امرأة أخرى، من بلاد أخرى، شعرت أنّي غريبة حتى عن نفسي في هذا الفجر.

كان الضوء القادم من النافذة في تزايده يكشفني أكثر، ويوضّح شيئاً فشيئاً صورتي في المرآة ليضاعف غربتي، وبعد قليل حين بان طرف قرص الشمس من خلف الجبال وأرخى حزمةً من الأشعة على وجهي، بانت ملامحي كاملةً، رأيت وجهي وجه امرأةٍ ميتة، ذابلاً وشاحباً، عزّز هذا الشعور لدي شكلُ جسدي المطوي داخل شرشف أبيض، بدوت في هيئتي هذه كأنّني في كفني أنتظرُ من يحملني إلى التراب، وددتُ لو أكتب وصيّة بأن يدفنوني بعد موتي قرب مجنون الوادي، شعرت أنّني بقربه سأكون أكثر تحققاً في فنائي، حزنت على نفسي وتدافعت من أعماقي غيوم داكنة من الحسرات وأحسست بوحشةٍ ضارية، فعدت إلى البكاء طويلاً حتى هدّني الحزن.

كانت أشعة الشمس تتسرّب وتعبر على مهل إلى أعماقي، إلى روحي، مغريةً بالاستسلام لدفئها. حام النعاس فوق عينيّ لكنّي غالبته وقرّرت أن أواجه مرّةً أخرى هذا الوحش الذي يستبيحني. هكذا فجأةً، مع

هذا السطوع لشمس يوم آخر من عمري، قررت أن لا أستسلم.
اتصلّت بشمس وطلبت منه أن يأتي ويجلب معه الكاميرا، لم يستوعب شمس طلبي الغريب وفي هذا الوقت المبكر، ألححت عليه. بعد حوالي ساعة أو أكثر، كنت خلالها قد استسلمت للنوم، سمعت صوت شمس في الصالون ينادي بصوتٍ مرتجف: "هدى... هدى!"، أجبته: "أنا هون"، دخل علي، حين شاهدته صرت أبكي ثانيةً، جلس بقربي وضمّني إلى صدره، أخبرته بالتفاصيل وقلت له: "سأصوّر البيت وأوزّع الصور على الجرايد وأخبرهم بما حدث لي كذلك التلفزيون والإذاعات"، وبدأت جولة الاتصالات، منهم من أعرفه ومنهم من يعرفني كاتبة بالاسم المستعار تالة السويحان. البعض تحمّس كصديقتي هبة في الأوريون وحسن في السفير وريم في النهار، والبعض الآخر نصحني بالنسيان كي لا أفعّل شهوة الانتقام. وفي المحصّلة، في اليوم التالي نشرت الصحافة خبراً يقول "إن منزل الكاتبة تالة سويحان قد تعرّض للسرقة من قبل عصابة مجهولة"، هكذا ألّفوا الخبر تأليفاً متيناً في بنيته الغامضة، كي لا أفعّل شهوة الانتقام، كم تثير أعصابي وسخريتي هذه العبارة!!! لكنّ الشيء الذي لم أتوقعه على الإطلاق، والذي هو قمة في العهر، هو ذلك الاتصال من العقيد الذي أبدى لي أسفه واستنكاره لما حدث وسألني إذا كنت أريد حمايةً، سيفرز بعض عناصره لأجل ذلك، لأن ما حدث لي أمر غير مسموح وهو الوصيّ على المدينة ومسؤلٌ عن أمنها وأمن أهلها وساكنيها. لم أجد ما اقوله لهذا القاتل، كأنّ اللغة كاملةً حُبست في زجاجة داخل حلقي وسُدّت بإحكام بأجود أنواع الفلين، وقعت في الصمت، حتى ظنّ أنّني لم أسمع، "تسمعيني، ألو، ألو، سيدة هدى، تسمعيني ألو، ألو... بعرف انك عم تسمعي، بس خجلاني، أنت امرأة حساسة، طبيعي تكوني مرهفة، سيدة مبدعة متلك أكيد بدها تكون **sensible**، رح ابعتلك عنصرين لحمايتك، في توصية من الأخ الرئيس بالكتّاب والفنانين، إنت بتعرفي هالشي وبتعرفي معزتك عندي شخصياً، أنا تركت المكتب حدك لأني شعرت انك عم تتضايقي من الضيوف والعجقة". لا أعرف كيف طارت السدادة من حلقي وانفجرت اللغة كلمةً واحدة فقط: "خلاااااااااااااااااااااص، تركني بحالي..." صرخت بكلّ ما اختزنته من قهر حتى الذي حملته بالوراثة، أظنّ أن صوتي عبر المدينة إلى أقاصي العالم ونهايات الأرض حيث تقطن آخر امرأة في كوخ تنتظر وقوع المساء لتوقّع نهاية يوم آخر من الانتظار، شعرتُ أن صوتي قد أحدث فُتحةً في السقف وصعد نحو الله.

بعد لحظات وجدت نفسي وسط خراب بيتي أصرخ، كان شمس يساعدني في لملمة البيت ولملمة شتاتي، غمرني وبدأ يروّض تلك المجنونة التي خرجت مني، كم هو رائعٌ شمس وحنونٌ وصديقٌ وفنان... "بيقتلو القتيل وبيمشوا بجنازتو"، قلت، "يا الله يااااااا الله"، بدأ شمس يهدأني بأساليبه الساخرة: "بتعرفي، قال شمس، أحسن شي هلأ نسكر. جبت معي قنينة فودكا مجلدة وكفتة نيي وشهباية وبصلة بيضا وضمّة نعنع وفجل، أنا ملك الفجل وأمير الكفتة... أنا إله الباذنجان واللوبية بزيت..."، هذا هو شمس، يواجه العالم بالرسم والكأس والتهكّم، انتصر على الظلم بأقواس قزح وحرّر نساء العالم برسمهنّ راقصات في جدارياته، عاريات يفتنّ القمر في منتصف آب ويتأرجحن بقوس قزح في مطر آذار فوق وادٍ سمّاه وادي الروح. "لنشرب يا هدى ونرقص فوق هذا الركام من الكتب والأوراق، ضعي الموسيقى التي صوّبت بها على القتلة، ضعي موسيقى باخ أو الجاز، أعشق الجاز".

شرب شمس وشربت، بكى شمس وبكيت... وضحكنا، ضحكنا حين رويت له كيف تناتشو كيلوتي كذئاب جائعة، كيف كانوا يشمّونه كأنهم في خدر وهو إكسير الحياة، وكيف كان أحدهم يمرّغه بعضوه حتى همّ

بإخراجه لو لم ينهره زميله بأنّ ذلك معيب خلال مهمّة رسمية. "تخيّل! كانوا الجماعة بهمّة رسمية، كانوا عم يحرروا الجولان من هون، من بيتي من وادي أبو جميل بنص دين بيروت، فتشوا على العدو بالخزاين وتحت المجلى، بقلب الطناجر وبقلب المزهرية وبملابسي الداخلية بكيلوتاتي وسوتيناتي، وبأشرطة الموسيقى بالقصايد تصور... بمخطوطة عبد الجليل التي يروي فيها عشقه لبيروت، (سلامٌ للبلاد التي علمتني أنثاها مفردات أسكنها كما البيت)، كانوا يدوسون الكتب بنعالهم، بتحب الكتب القحبة، بتحب الشعر سيدي. تخيّل! نشكر الله انن ما شافوني ما بعرف شو اللي عمالن قلوبن؟". أجاب شمس: "الكيلوت، حدا بيشوف كيلوت هدى وبيبقى صاغ، بيهلوس، بيجن"، وضحك شمس وانقلب على ظهره فوقع في يده كتاب للشاعر شيركو بيكَس لا أعرف كيف أصبح في مكتبتي وعليه إهداء لعبد الجليل!! وقرأ لي بالكردية ثم ترجمها للعربية:

رسمت طائراً
جعلت كلمة رأساً له
ومن نبلة القلم، منقاره
من حفنة تراب، جسده
من وتر، رقبته
من العشب، ذيله
لكنه لم يطر حتى جعلت من فرشاة فان غوغ جناحين له.

قلت لشمس: "طار قلبي يا شمس، يا الله قديش حلو عالم هذا الشاعر، للمرة الأولى أعرف أنك تعرف الكردية". ذكّرني شمس أن الامرأة التي ربّته بعد وفاة أمه هي جدته الكردية، التي غنّت له كل غناء جبال كردستان وسهول الرحيل، نسيت أننا كلنا غرباء في عالم غريب... ضحك شمس وانقلب على ظهره وقال: "عم شم ريحة بتهيّج"، ومدّ يده تحت رأسه وسحب قطعة من كيلوتي... حقير يا شمس... "كاسك!" ورشف من قدحه ثمالته. فتكنا بنصف نهار على هذا النحو. نام شمس في مطرحه بين كوم الكتب، ونام حزني على مخدتي...

هذه الأشياء تحفر ندباً في مطرح عميق من النفس، لا يُنسى، نعم، ألم الظلم لا شفاء منه إلا باقتصاص عادل، ورغم ذلك يبقى أثره أبدياً في النفس.

بريد الغروب

نَمتْ في أعماقي بذرة الانتقام تلك التي زرعتها منذ زمنٍ بعيد يدٌ كانت تتفقد عذريتي، نمت كثيراً، وكبر ذلك الوحش في داخلي، كان يتغذى من أحزاني وقهري طوال هذه السنين المليئة بالمهانات والذلّ، أحسست به يتململ في جسدي حين جاورني ذلك اللعين وراح يتسلّى بأرواح بشرية كان صراخها يقطعني، يقطع قلبي. وبعد أن قتل سالم مجنون الوادي شعرت أكثر بنموه وبجوع للثأر وأحسست به أكثر بعد تلك الليلة التي اغتُصبت فيها ثانيةً. نعم، ما حدث لي في تلك الليلة نوع آخر من الاغتصاب، وفي حقيقة الأمر، حياتي كلّها سلسلة من الهتك اليومي منذ تفتحت على الدنيا، ليس لأني أنثى، ولست وحدي، كثرٌ من هم مثلي، نساء ورجال تعرّضوا لما تعرّضت له، فعندما تكون المدينة بكاملها مُغتصبة لا يشعر المرء مباشرةً أنه هو المغتصب، لكنه في الحقيقة مُغتصب، فالأرض وهي تدور لا نشعر بها لكنها تدور، نعم، وهكذا الناس لا يشعرون بالألم الذي يفتك بالآخرين إلا حين تتعرض أجسادهم وأرواحهم شخصياً له، مثلي تماماً، عندها فجأةً يجدون أنفسهم قادرين على الانتقام، وينتبهون أنّ في داخلهم وحشٌ جائع، يا إلهي كم هو مرعب هذا الشعور. ذهبت إلى المرآة لأرى وجهي، لأتبيّن ما إذا كانت ملامحه قد تبدّلت مع تعاظم هذا الشعور بجوع الانتقام، بانَ وجهي مرآةً كاملة لكلِّ الحزن والانكسار الذي في قلبي، شاحباً وموحياً بالخسران.

سألت مرآتي: "من يأخذ حق الناس؟ من يعيده لهم عندما يُسلب منهم كاملاً؟ من يردّ لهم كرامتهم حين تُداس؟ من؟ من؟ لا أدري..."، تصاعدت من أعماقي غيوم من الحسرات، وصرت أردد: "لك يوم يا ظالم، لك يوم يا ظالم، لك يوم ياااا"، هذه الحكمة تحيل مسألة تحقق العدالة على الأيام، تخفّفُ شُحنات القهر والإحساس بشهوة الانتقام، تخدّر الوحش في النفس، حكمةٌ رائعة، تعدُ من سُحقت كرامتهم بمحكمة يقيمها الزمان، وتُرخي الحبل للمستبد، تُطيله، ليزاول استبداده، وهذا ليس بعدل.

على كلّ حال لو كنت أملك القدرة والجرأة وسلاح الانتقام لفعلت على الفور، ولكان ذلك جاء دفاعاً عن النفس، لكنّني لا أملك شيئاً من كل ما ذكرت، أملك موهبة في تدوين هذه الأشياء وحفظها، أسجّلها كعادتي بصوتي، حتى هذه الأفكار والتساؤلات التي تراودني أسجّلها بتفاصيلها، ربما هذا شكلٌ من تحقق العدالة، شكلٌ نبيلٌ ورائع، لا أعرف إذا كان فعلاً نبيلاً ورائعاً أم أنّني أقول ذلك لأرضي نفسي، لأجد مسكّنات لتخدير شهوة القتل. نعم، لو استطعت لقتلت دون تردّد ذلك الذي عذب مجنون الوادي حتى الموت وذلك الذي استباح بيتي، لكنّني لم أستطع، ليس خوفاً ممّن سأواجه بل خوفاً من القتل، خوفاً من هذا الفعل. لكن كيف يستطيع هو أن يعذّب إنساناً بل حطام إنسان، أن يفسخ لحم ظهره بسلك نحاسي، كيف؟ كيف يتحمّل صراخه الذي يتحوّل إلى أنين، ويواصل جلده حتى يلفظ أنفاسه؟ مجنون الوادي كأنّه ظلُّ إنسان أو بقايا إنسان، كيف يستطيع تعذيبه حتى الموت؟!!!

مجرد أن أتذكّر يصعد الدم إلى رأسي، أي يوم هذا الذي سيأتي ويُقتصّ فيه من الظالم؟ أي يوم هذا الذي لا أحد يعلم متى يأتي؟ لا يشفي هذا العطش الذي يسيطر على النفس إلا دم القاتل نفسه، هي حكمة أخرى "العين بالعين والسنّ بالسنّ والبادي أظلم". أعلم هذا وغيره وأعلم أني أعجز من أن أقتل ذبابة. لذلك تراني أنتقم وأثأر على طريقتي، أن أسجّل هذه الآلام، وهذا شكلٌ من تحقق العدل.

كنت في هذه العاصفة التي تتقاذفني أسجّل وقائع ليلة اغتصاب بيتي، هبّ نسيم بارد، شممت رائحة تراب، كتلك التي شممتها حين نثرت التراب فوق قبر سالم مجنون الوادي، تراب مبلل بأول مطر الخريف، كأنّ الأرض تتنفس حين يقع على أديمها المطر، خرجت إلى الشرفة، استقبلني البعيد بغموضه. رغبت أن أهبط إلى الشارع وأمشي، أحبّ المشي تحت المطر، دون تحديد جهة أو مكان، لكنّ الوهن الذي أشعر به جعلني أسيرة البيت والأفكار.

تلك اللهفة التي كانت تشتعل في قلبي لعودة عبد الجليل تحوّلت إلى خوف، وتلك الرسالة التي حملها منه شمس ليس فيها عنوان كي أكتب إليه أن لا يأتي. "تونس، التقيته في تونس"، هكذا قال لي شمس، على كل حال هذا لم يمنعني من أن أكتب إليه رسالة أخبره فيها ما حدث وأحذّره من العودة. كتبت إليه، وللمرة الأولى أكتب رسالة أستخدم فيها القلم والورق، حيث تعودت أن أسجّل أفكاري وخواطري وقصصي على أشرطة، استمتعت بحمل القلم وبرائحة الحبر وأنا أملأه من المحبرة، منذ زمن بعيد لم أفعل ذلك، وضعت ورقة بيضاء مسحتها براحتي تحسّستها تحسّست بياضها الناصع، بدت لي عذراء مثلي قبل أن أسلّم جسدي عصر يوم من أيام الهوى للذي علّمني الحب والكتابة.

لم أجد مدخلاً لبدء الرسالة، ماذا أكتب؟ رّبما لو فتحت آلة التسجيل لأسجّل رسالتي هذه لكانت الأفكار كرجت كالماء، كأنّي أختبر طاقة جديدة في نفسي، أو كالتي تعلمت شيئاً ونسته وتحاول استرجاعه من قاع النسيان، هل أبدأ بوصف ما أنا عليه الآن؟ مثلاً كتبت: "كنت حائرة من أين أبدأ رسالتي إليك، منذ زمن لم أحمل قلماً لذلك كأن أفكاري تتشتّت قبل أن تصل إلى يدي، مشوشةٌ أحاسيسي بين الشوق والخوف". تأملت ما كتبت، بدا لي خطي كخط الأطفال، غير متماسك لكنّه يُقرأ، حروفه واضحة، قلت: لا بأس، سأستهلّ رسالتي بمقطع من كتابه عن بيروت:

> ليست كلّ الأرض صالحة للعيش ولسكن الإنسان مثل قلبي لكثرة ما تماديت في توسعّاتك فيه لم يعد يتّسع لسواك، حتى أنك فضت منه إلى يدي فغمرتك ومشيت نحو غابتي هناك حيث لا أحد يقيم سوى الذئب وإخوته والوعل وإخوته والطير وفراخه...
> كم هو آسرٌ هذا الحب! وكم تعتصر قلبي هذه اللغة! استعنت بكلامك لأبلغ مرتبتك في التعبير عن الشوق، غيابك موجعٌ، أنت تعلم ذلك، أشعر بخواء، لا شيء بقي على معناه منذ لوّحت لي بيدك واختلط النشيج بصفير الرحيل الذي أطلقته السفن التي حملتكم يومذاك إلى المجهول، لا أعرف إذا كانت هذه الرسالة ستصلك أم أنّها محاولة للقول إنني أشتاق إليك كعطشٍ متمادٍ، ولأنني أحبّك وأريد أن أراك أرجوك أن لا تأتي إلى بيروت على الإطلاق، أعدك أني سأجيء إلى تونس. سأطبع كتابك عن بيروت وأحمله معي، أعلم أنك أحببت هذه المدينة، كثيراً ما يحصل ذلك، أن نخسر من نحب، ولكن لكي نبقى نحبّه نحمله في القلب...

وأكملت، كتبت له الكثير من الأشواق وأخبرته حتى عن الهواء الذي أُفسد في المدينة. وضعت الرسالة في ظرف، اتصلت بشمس لأسأله عن أي عنوان في تونس يحتمل أن يمّر به عبد الجليل، حانة أو مقهى أو مكتبة أو صديق. قال لي شمس: "اكتبي كما كتب صبي تشيخوف حين أراد أن يبعث رسالة إلى جدّه في ليلة عيد الميلاد ولا يعرف عنوان جدّه ولا حتى اسم القرية التي يسكنها، كلّ ما يعرفه هو أنّ جدّه حمله إلى المدينة ليعمل صبيّ إسكافي، ربّما الوحيد الذي يعرف عنوان جدّه هو معلّمه الإسكافي، لكنّه لم يتجرّأ أن يسأله خشية أن يقرأ الرسالة التي يشكو فيها سوء معاملته له والظلم الذي يمارسه عليه، فكتب على المظروف: إلى قرية جدّي، ووضع الرسالة في صندوق البريد".

مؤلمة تلك الحكاية.

فعلت كما فعل صبيُّ تشيخوف ولكن بدل أن أضعها في صندوق البريد وضعتها في زجاجة لأرميها في البحر. أردت أن ألعب مع الغامض مع هذا المجهول. نعم، أردت الذهاب بهذه اللعبة إلى نهايتها، لعلّه

الحزن هو الذي يُملي عليّ ما أقوم به. وأقبل دون تردد...
خذ هذه الرسالة أيها الأزرق إلى حيث شئت من الشطآن حيث يوجد دائماً أحدٌ ينتظر المجهول.
ذهبت في لعبتي إلى الآخر وقلت سوف أحملها إلى عرض البحر بعيداً عن الشاطئ. تدرّجت ناحية عين المريسة حيث أعرف بعض صيادي القوارب وتحديداً العم أبو خليل الذي كنّا نتناول في كوخه كأس عرق مع مزّة تصنعها زوجته فرح، كم كانت شهية تلك الجلسات ورائعة! كنّا شلّة، شمس وسمير ملك الحروفية وسهام ورضا وطلال ومنى وزانة. كم كنت أشتهي أن يعود عبدو، وأعني عبد الجليل، كي أصطحبه إلى هذا الكوخ! لا أدري، ربّما كان يأتيه مع شلّته شعراء الرصيف، ويعرفه مثلي، ليتني كتبت في الرسالة ما أنوي فعله الآن، على كل حال سأسجّل وقائع يومي هذا وأجعله ملحقاً للرسالة. تدرّجت ناحية عين المريسة، مباشرةً إلى كوخ العمّ أبو خليل، استقبلني كعادته بضحكته البحرية عاتباً: "زمان هاالغيبة، قبل شوي كانو الشباب والصبايا، تأخرت..."، قلت له إني أريد القيام برحلة بحرية، ظنني أمازحه، قلت له: "الآن وقبل غياب الشمس هو الوقت المناسب"، ربما توقع أبو خليل أنّني أحب مشهد الغروب، وأن رغبتي هذه نتيجة عودة بصري كاملاً، لذلك لم يمانع، نادى على فرح لترافقنا فقالت له إنها تعبة وإنه بين أيادي أمينة، وكرجت ضحكتها على العتبة نحو موجة خفيفة تداعب رملاً كسولاً.

– بتعرفي تسبحي، سألني وهو يدير المحرك.

– شويي، أجبته ووضعت خطوتي الأولى، مال المركب ليستقبل قدمي الثانية واعتدل بعد أن جلست على المقعد الموازي لمقعد أبو خليل.

– البحر زيت بس الحيطة واجب.

– صحيح.

شاهدت زوجته تقف في الباب، لوّحت لنا بيدها، شعرت بيد شدّت على عنقي ورغبة في البكاء، انطلق المركب ووجهته تماماً ناحية قرص الشمس.

– بعد حوالي ساعة وعشر دقائق بتغطس بالمي بهاللحظة بحس حرارة المي ارتفعت وكأني بشوف بخار، متل كأنك رميت جمرة ببركة، تشششششش، وضحك... ما قلتيلي، مشتاقة للغروب من مطرح بعيد بالبحر؟

– مشتاقة نعم.

بدأت بيروت تبتعد والشمس تواصل انحدارها على قوس الأفق، هذه لحظة عبد الجليل، الزمان عنده هو تماماً حين تقف الشمس على برزخ الغياب، هو زماني أيضاً. أشار أبو خليل لسرب من الطير على تماس مع قرص الشمس، هو أيضاً من اللحظات التي يؤبدّها عبد الجليل في كتاباته وقصائده، يقول: "كلما وقع غروب تقع على سطر القصيدة دمعة ويهجع طائر إلى شجر الروح..."

وكنت أسأله: من أين كل هذا الحزن؟ يجيبني: "من أهلي القدماء وهم يصعدون الجبل يغنّون للذين جرفهم الطوفان في وادي الدموع."

قال أبو خليل: قرّبت تغيب يا هدى، كأنه يعلم أنّني أنتظر هذه اللحظة.

– حاملة أمانة عمّ أبو خليل.

– أمانة؟ أمانة شو؟ لمين؟

– أمانة للبحر.أخرجت القنينة التي في داخلها الرسالة والتي أحكمت فتحتها بسدّادة فلين.

– ندر؟

سألني إذا كنت نذرت للبحر، هناك نساء كثيرات ينذرن للبحر، قلت له: "لا ليس نذراً، بل رسالة، رسالة سأرميها تماماً مع اللحظة التي يتمُّ فيها غياب الشمس، حيث يبقى وهجها يشعل الأفق بلونه الكوني.

أطفأ العمّ أبو خليل المحرّك، راح المركب يتهادى على صفحة الماء، وصار يحدّق فيّ كأنه يكتشفني للمرّة الأولى، كُنّا في نقطة لم نعد نرى منها بيروت، فقط في البعيد قرص الشمس معلّقٌ هناك كأنّه ينتظر انتباهي ليجاري لعبتي ويختبئ. وهكذا حين لم يعد يبين منه سوى وهجه البرتقالي قذفت القنينة باتجاهه ورحت أتابعها بعينيّ كأنّي أخشى أن أضيّعها أو أفقد اتجاهها. اندفعت القنينة بشكل ساحر، كأنّ أحداً غيري رمى بها، قوّة أخرى قذفتها، علت كثيراً ثمّ أخذت مساراً أفقياً تجاه الغروب كأنّها طائر، انسابت واستمرّت طويلاً قبل أن تسقط على صفحة الماء، صرت كأنّي أراها على شاشة وبحركة بطيئة تُظهر أدقّ التفاصيل، حين علا الرذاذ لحظة اصطدامها بالماء ارتجَّ بدني وشعرت كأنّ سرباً من الطير هبَّ من غابة السنديان قرب بيت أهلي، وأني أحلم!! أغمضت عينيي لأجاري أحاسيسي متواطئةً مع ظنّي، تذكّرت عماي، وكيف كانت الأصوات هي التي تريني الأشياء، هنا صوتٌ واحدٌ يتكرّر منذ بدء الزمان، صوت البحر الذي حين يملُّ رتابته يتبدّل مزاجه فيهدر غاضباً أو يرقرق حين يصفو الزمان، يراقص قوارب الصيادين وسفن المهاجرين الفقراء، أو يبتلعها في ذروة الجنون، هو الآن يراقص رسالتي، كلمات محبوسة في قنينة، أظنُّ أنه سيراقصها آلاف الأعوام، أو أنه سيقذفها إلى شاطئ ما، تقع بيد، تحملها، تتأمّل ما فيها، تفتحها للفضول لتعرف ما تتضمّنه تلك الورقة، وحين تنتزع السدادة تهبّ عاصفة وتحمل الرسالة إلى مجهولٍ آخر، ربما يظنّ من فعل ذلك أنه قد ارتكب خطيئةً وأنه لعب بسرّ الماء وأنه وأنه...

هنا الخيال وحده متاحٌ لتأليف الحكايات، كل الحكاية بدأت من الماء، هنا الخيال وحده متاحٌ لتأليف مدنٍ ومراسي وشطآن فيما لو وقعنا في التّيه، أتذكّر صحراء عبد الجليل كما رواها لي يوم الشتات مع أهله، يا إلهي كم مرعبٌ التّيه! تخيّلت أنّني عندما سأفتح عينيّ سأجد نفسي وحيدة على هذا المركب فاقدةً جهة الإبحار ليست لديّ بوصلة ولا مهارة البحّارة في تتبع حركة النجوم ولا قنديل أُشعله يبدّد العتمة المحيطة بي، وكأنّي صدّقت ما تخيّلته فناديت عم أبو خليل، لم يجب، "عم أبوخليل!"، أيضا لم يجب، اجتاح بدني تيارٌ تحدثه المباغتة، فتحت عينيّ في الحال، لم أجد أحداً على القارب، صرخت بأعلى صوتي: "أبو خليل"، ورحت أبحث في الجهات، بدأت العتمة تهبط، هنا كأنّ العتمة تخرج من الماء، تولد من قعرالبحر وتندفع في الجهات حيث يختفي العالم كاملاً، للحظة عابرة ظننت أنّني عدت إلى عمايَ وأن ما يحدث لي حلمٌ سوف ينتهي وأستيقظ على يوم آخر من عمري، لكنّ إحساسي باليقظة قويٌ وصوت الماء الذي يداعب حواف القارب متّن يقيني. نظرت إلى الأعلى، لم أرَ سماءً كسماء هذا الليل البحري، فقط تشبهها سماء قريتي في طفولتي، لكنّها هنا واطئة ونجومها أكثر سطوعاً وأكثر عدداً. وقعت عينيّ على شيء يتحرك على بعد أمتار من القارب، رأس أبيض، صرخت: "أبو خليل!"، أجاب أخيراً، أجاب بلكنته البيروتية المحببة: "إصطفقدتيني، معلاش ها أنا جيت، بحب السباحة بهالوقت المي دافيي"، للمرة الأولى أشتم العم أبو خليل تلك الشتيمة التي تحمل عتاباً ولوماً. في الواقع عندما غطس أبو خليل في الماء رأيته يفعل ذلك وقلت في نفسي إنه يفعل ذلك ليتركني قليلاً مع وحدتي ومع طقسي... لكنّني في شعاب تخيلاتي وأفكاري ولعبتي التي تحولت إلى طقس كامل وحقيقي، كأنّي نسيت أنّه غطس في الماء وقال: "أنا بحب السباحة بهالوقت". نسيت، غلبني الوهم، غلب الواقع هذا الخيال، ثم أنّ هذه العزلة في الماء في الغموض

الكامل جعلتني أذهب إلى احتمالات بعيدة في اللعب مع المجهول!! صعد أبو خليل قاربه، تناول المنشفة من حقيبة خاصة بملابس البحر، نشّف شعره الأشعث الفضّي، كان مضاءً أكثر من كل ما حولنا وكان أول ما رأيته يتحرك في البحر، لبس الفانيلا وفوقها قميصه الأبيض، لفّ المنشفة على وسطه واستبدل الشورت بواحد جاف، ثم أشعل قنديله وعلقه في السارية ثم فتح الشراع وقال لي: "الغربي بيرجعنا للبلاد"، ثم بدأ طقس العودة.

"كل شي هون، الكبايات التلجات الخيارات البندورة البلدية، لونا بتشتهي تتفرجي عليه، وهيدا الملح، وهيدا لفّز صخري وحبتين سلطان"، وفتح براده الصغير، ناولني كيس مكسرات، "إفتحييه، هودي نحنا منحمصن، ضوقي شو طيبين"، صب كأسين من العرق، "هودي من شخنايا من بيت حبيبي إلياس، بحس كأنّي عم أأرأش حبة عنب بخوري ناقرها العصفور بس أشرب من هالعرقات، بتحبي العرق؟ بحبو وهلاء صرت حبو أكتر. في ناس بيندرو للشمس بس يتعبو عيونون؟".

مدّ يده وتمطّى قليلاً ورفع فتيل القنديل بمفتاحه المحكم إلى خاصرته تحت البلّورة، فشعشع الضوء أكثر، لم أعلّق على ما قاله بوضوح، قلت: "يمكن حلو حدا يندر للشمس"، بالطبع كنت أعلم أن ما قاله يتضمن استفساراً عن تلك الرسالة التي رميتها في البحر، "شو بيقولو للشمس عم بوخليل الناس اللي بيندروا؟"، "بيقولو يا شمس خدي من عيوني العتمة ورديلي الضو، هيك شي وبيرمو بالبحر صرة، ناس بيحطو فيها اسوارة دهب حقيقية وناس اسوارة تقليد، كلّها عادات والشافي رب العالمين، أنت شو حطيتي؟"، "كتبت كلام" قلت له، لم يعلّق، سكت، ربما فكّر بالكلام الذي كتبته. صارت تقترب من جهة الشاطئ أضواء متباعدة، خافتة وحزينة، هكذا بدت لي، سألته: "هودي صيادة عم بو خليل؟"، "نعم هيدا وقتن، الله يرزقن ويردن بخير لأهلن، صعبة حياة الصياد، حياة البحر حلوة ومرة...".

في العودة إلى الشط روى لي العم أبو خليل روايته، لكلّ منّا رواية ولكلّ منّا أوجاعٌ دفينة. سألته: ولا مرة التقينا بابنك، هو مسافر؟

أجابني: "نعم سافر، وما عاد رجع"، ثم حدّق في البعيد ناحية شاطئ بيروت، حيث تتلألأ أضواء القوارب، وبقي على هذا النحو لفترة أحرجتني وأوجعتني، حيث كأنّي أدركت أنّ سفر ابنه هو رحيلٌ أبدي. لم يكمل ولم أسأله عن إضافة كيف وأين ومتى، تركته ساهماً في البعيد تتلألأ في عينيه دمعتان، وأصغيت إلى رقرقة الماء على حواف القارب حين ترتطم به أمواج ناعسة وتؤرجحه هدهدةً، شعرت بندمٍ شديد على طرحي هذا السؤال وحاولت أن أخفي حرجي بمداعبتي للماء، صرت أمدّ يدي لتلامسه، كم هو جميل هذا الشعور حملني دفعةً واحدة إلى طفولتي التي تركت بعضها خلفي هناك في البحر! كنت أفعل ذلك عندما كان والدي ياخذنا إلى جزيرة الأرانب، قبالة طرابلس. مرّةً سقطت من القارب حين كنت أضع راحتي كالمجذاف عكس التيار، تذكّرت تلك الحادثة وحاولت أن أستعيد العم أبو خليل من ألمه، في إعادة تمثيلها ومثّلت أني سأقع في الماء وصرخت، هبّ أبو خليل وكاد يسقط هو بدل أن أسقط، ضحكنا، تبدّد غيم الحزن قليلاً، خفّت كثافته، هنّأ أبو خليل نفسه كمتر ناجور أنقذته غريقة، وهذه معادلة معكوسة. عاد أبو خليل إلى مزاجه وقال لي: "خلينا أول شيء ناكل لقمة بعدين رح خبرك قصة خليل، الإنسان لو ما بينسى كان من أول عاصفة بينكسر، النسيان نعمة..." وشرب من كأسه مقداراً معتدلاً، مسح شاربيه اللذين صبغ بياضهما دخان التبغ وأضاف: "الكأس نعمة أخرى، يرحم عضام اللي اخترعو" وشرب مقداراً آخر كي يفعّل الأول حسب تعبيره الشهير: "الكأس الثاني يفعّل الأول بحزم. كاس العم الياس شخنايا ملك العرق".

مركب العم هو بيتٌ متحرّك، لكلّ ركن وظيفة، مكان للجلوس وآخر للنوم وواحد للاستحمام وزاوية للطهي، وكلّ ركن معزول عن الآخر، وهناك أشياء لا تظهر إلا حين تدعو إليها الحاجة، كطاولة الطعام، طاولة متّصلة بجانب المركب بأذرع متحركة فتحها العم أبو خليل وصاح: "وهيدي غرفة الطعام"، وضع صحنين وقدحين للماء في فتحتين تحميهما من التزحلق، ثم فتح جاروراً معلّقاً في أسفل الطاولة يحتوي على شوك وسكاكين ومملحة، أشعل بابور الغاز ووضع الزيت في المقلاة ومدّد أول فرخين، لخمس دقائق، عادلٌ العم، في كلِّ شيء عادل، ما عدا في توزيعه للطعام، كان يخصّني بالحصّة الأكبر والأفضل. شهيّةٌ هذه الوليمة المنتقاة بوضوح وبساطة.

لم أتوقّع على الإطلاق أن رحلتي هذه إلى محطة البريد البحرية التي أودعتها رسالتي على مغيب الشمس ستنتهي بمكافأة من هذا النوع وبعشاء بحريّ مع بحّار عتيق، كأنّ ما يحدث ضربٌ من المسرح العبثي أو سيناريو محتمل لفيلم ما. كان المركب يسير على مهل بدفع الهواء والكأس يسير بدفع الرغبة، أكلنا قليلاً وشربنا بعدل أقل، تمدّد العم على المقعد وسلّمني دفة القيادة، لم أخشّ التّيه، لأنّ بيروت بدأت تلوح أمامنا، على شاطئها مرسانا، ظننت العم سينام، لكنه روى لي حكايته مع البحر.

في ليلة لم تكن توحي بعاصفة، كان غروبها يؤشّر باعتكار خفيف يصيب البحر، كنت أطلّ من نافذة البيت على المدى البحري في تلك الأثناء أتفقّد الغيم البعيد، أتفحّصه، شممت فيه رائحة المطر، هو شباط متقلب المزاج، شمس ومطر، عواصف الصبح تصبح نسائم العصر، شاهدت خليل بصحبة صديقته هيفا يتّكئان على سور الرصيف البحري، صبيّة وشاب في أول العشرينات، وهيفا سبحان الخالق كأنّها توأم خليل، دايماً تعقد ضفائرها الشقر إلى الخلف، عيناها كعيني خليل خضروان، حتى قدّها من قدّه، والدها كان صحافياً مشهوراً خُطف واختفى، عثروا عليه بعد أيام على مكبّ النفايات وقد بُترت أصابعه. لا أعرف ما الذي لهوت به لثوانٍ معدودة عنهما، ربّما تناولت قدّاحة لأشعل سيجارتي، نفخت المجّة الأولى من النافذة، وعندما نظرت حيث يقفان لم أجد أحداً، اختفيا تماماً من على الكورنيش، ملح وداب، خفت بحيث لم يكن معقولاً بهذه السرعة أن يغيبا عن الصورة، كان الكورنيش شبه مقفر ماعدا قِلّة من المشاة، من السهل أن أتبيّنهما على هذا الطرف أو ذاك يتمشّيان، نزلت مسرعاً درجات البيت مباشرةً تجاه الكورنيش، وحين وصلت إلى حيث كانا يقفان شاهدتهما في القارب يتجهان نحو الشمس، لا سبيل عندي إلا أن أنتظر عودتهما. صعدت ثانيةً إلى البيت لأخبر فرح، وجدتها تقف في النافذة وتبكي، تحمل ورقة في يدها، تناولتها كانت رسالة من خليل تقول: "أمي أبي، لا تقلقا عليّ، أنا سأقطع البحر مع هيفا إلى قبرص، لا أريد أن أعيش في هذه البلاد، لم أعد أحتمل..."، ما زلت حتى اليوم أنتظر عودته، جنّت بيروت في تلك الليلة، كسّر الموج المراكب وحطّم الكورنيش واقتلع الأشجار وابتلع الصيادين بمراكبهم في عرض البحر، الواجهة البحرية للمدينة تناثرت نوافذها، كنت أقف في النافذة المشلعة وأصرخ بالبحر: "يا خاين ردّلي ابني، يا جبّار ردّلي عمري، يا الله يا الله!"، كان صوتي يختلط بالحطام، بعد قليل لمحت فرح تركض صوب البحر تجاه العاصفة، رحت أركض خلفها وأناديها: "فرح فرااااح"، كانت بفستان النوم حافية وشبه عارية تركض في العاصفة على الكورنيش وتصرخ: "إبني إبني"، سحبتها الموجة ثم قذفتها أخرى صوبي، تشبّثت بها ورحت أزحف تجاه البيت بدون وعي، جنّت فرح ومرضت، بقيت لسنتين طريحة الفراش غائبة عن الدنيا، تخيّلي عندما استفاقت بعد سنتين من الغيبوبة لم تعرف ما الذي حدث لها، نسيت كل شيء، حتى أنا لم تذكرني ولم تذكر أنّها أم ولها ولد ضاع في البحر، بقيت لمدة على هذا النحو حتى بدأت تعود إليها

الذاكرة، تقول لي دايماً: "ليتني بقيت في النسيان". لم ولن تشفى من جرح روحها، ولم ولن أشفى من عينيه.

لم أعثر عليه، عثرت على هيفا حبيبته، نعم أول شيء شاهدته عيناها، عيناها نجمتان خضراوان تحدّقان في السماء تسألها عن توأم روحها، حين شاهدت عينيها ظننتهما عيني خليل، كان هذا في اليوم التالي حين صعدت هذا المركب مع والد هيفا وشابان من الدفاع المدني بقينا نهاراً كاملاً قبل أن نعثر عليها قبالة جبيل. بعد أيام قتلوا والدها، ربما المقال الذي كتبه، وشبّه فيه النظام بالعصابة التي تطارد أبناءنا وتطردهم من البلاد، كان حافزاً إضافياً للتخلص منه. "الذي قتل ابنتي ليس البحر بل عصابة الوحدة والحرية والاشتراكية"، هذا عنوان مقالته الأخيرة في الجريدة. أما خليل فقد بقي هناك وحده يحدّق في النجوم.

لم أقل شيئاً لأبو خليل، لم أعلّق، كنت أفكّر كيف شاهد عيني ابنه في عيني هيفا، لا بدّ أنّ عينيه مطبوعتان على عينيها، آخر ما رأته، وآخر ما رآه، تخيّلت محاولتهما النجاة من الموت: ينقلب بهما المركب ويعيدانه إلى وضعيته، يصعدان إليه، يحاولان التجذيف نحو الشاطئ، كان الموج العاتي الذي يحجب المدينة ويظهرها في ارتفاعه وانخفاضه يقلبه من جديد، ربما كلاهما قال للآخر: "لا تنساني إذا نجوت"، أتخيّل ذلك، أتخيّل كيف كان بدناهما يصطكّان من الخوف وكيف كانت أيديهما تقترب وتبتعد تتشابك وتنفك في عتوّ العاصفة، كيف كان كلٌّ منهما يشجّع الآخر على التماسك والسباحة تجاه الآخر، ويبعد ما بينهما الموج، أتخيّل كيف حمل الرّيح المركب بعيداً وكيف حاولا عبثاً الوصول إليه، كيف وكيف، كيف كان يبتلع الماء والهدير صوتيهما. ترى من قضى بدايةً؟ من منهما بحث عن الآخر في الجهات ولم يجده وصرخ طويلاً باسمه وابتلع الصوت الماء؟ من يا ترى؟ هل هذا مهم لي أن أعرِفه، أنا المجنونة الأخرى التي أودعت رسالة في بريد البحر، رسالة لن تصل إلاّ للمجهول الأبدي؟ لماذا ألحّ علي السؤال؟ هل لمعرفة من يحب الآخر أكثر، أم أن الأشياء هنا تتعادل ويصبح الخلاص هو المرتجى لكلّ منهما؟ كنت أستغرق في تخيّلي لهما في منازلة غير متكافئة مع العاصفة والموج، رنّت في بالي جملة شمس: "الحب أقوى من الموت... افعلي كصبي تشيخوف، أودعي رسالتك الغيب".

ليت الحياة كما هذا الخيال البريء لدى صبيّ تشيخوف، الذي كتب على مظروف الرسالة "إلى قرية جدّي" وأودعها صندوق البريد، وكما هذا الكلام الذي كتبه عبد الجليل في رسالته لي... أمنيات عابرة لتوّها تتبدّد كغيم هذا الخريف يبقى منها شيء يعتصر القلب.

هو الفقدان.

الخطف

عاصفة أخرى لم تقتلع الأشجار ولا الشاطئ، لم تكسر قوارب الصيّادين ولا خطفت عاشقين يتّكئان على سور كورنيش البحر، بل اقتلعت قلبي ثانيةً وكسرت روحي هي التي جعلتني أروي ما أروي وأتذكر ما أتذكر وأكتب رسائل أودعها صندوق بريد الغيب هناك في البحر، بعد أيام من رحلتي البحرية هذه، وليتني لم أفعل لكنت وفرت على قلبي حزناً وعلى حمولتي ثقلاً جديداً، وكنت بقيت على غير علم بمأساة أبو خليل، لكنّ حياتي هكذا تبدو مخزناً للألام، وللحكايات التي تنتهي دائماً بمأساة.

بعد أيام، في عشية أخرى أو غروب يوم آخر من أيامي، جاءني الصوت، ذلك الصوت الذي أعاد إلي أغلى ما في حياتي، أعاد إلي عينيّ: "غداً أصل بيروت، هل تستقبلينني؟ هل ما زال مطرحي خالياً، أشتاقك مائي وعطشي وجنوني، أنثاي ومليكتي وروحي"، لم أسأله من أين عرفت هاتف البيت، ولمَ لم تتصل كل هذه الأيام، وأين أنت، وماذا فعلت وكتبت؟ تحلّل صوته في دمي كالخمر، خدّرني كما كان يخدّرني بمائه وكلامه. جمعت قواي ولممت تبعثرها وقلت له: "إذا كنت تشتاق إلي وتحبني أرجوك أن لا تأتي، أجيئك حيث أنت، وجودك هنا يعرّضك للخطر"، أجابني: "لا، سأجيء، عندما نذهب باتجاه الخطر يفرّ منا، اشتقت أن أتسكّع قي شارع الحمراء نشرب قهوة الصباح في مقاهيها، وفي العشيّة نذهب إلى البحر نصغي إلى الموج، ونعرّج على سليم نشرب النبيذ مع موسى ونعالج السأم بكانط وهيغل، اشتقت إلى يديك تغمرانني تعيدانني إليّ، نسيت حالي كيف، اشتقت إلى صورتي في وجهك".

"أرجوك لا تأتي".

"سأعمل في بيروت، أنشانا مجلة سأديرها من هناك، انتظريني"، وأقفل الخط في اللحظة التي كنت أسأله فيها عن الجهة القادم منها وساعة وصوله.

لا أعرف ما الذي عليّ فعله، بدأ الزمن يلعب لعبته في التمهل المفّرط، بدت عقارب الساعة منهكةً سئمةً مريضة، كأنّ الرسالة التي أودعتها البحر كانت نداءً له، كأنّها تبليغ معاكس لما تضمّنته، كأنّ الله اختارني فقط لهذه المحن التي يختلط فيها الحب بالألم والشوق بالفقدان. توقعت أنه سيأتي من تونس، اتصلت بشمس وأخبرته، قال لي: "مجنون! ربما يأخذونه من المطار فور نزوله من الطائرة"، ثم تذكّرت أنه قد يدخل بجواز سفر يحمل اسماً آخر، يوسف مثلاً، الاسم المستعار الأول الذي نطق به طفلاً يوم خرج وأهله من وادي الدموع وركبوا البغال وغنّت جدته "حملك يادني خفيف كان / لما زغار كنا / بس كبرنا كسر العمر وكسرنا...". لم أقل ذلك لشمس لكنه اقترح علي ما فكّرت به، أن أنتظره في البيت وليس في المطار كي لا أثير الشبهات. قلت لشمس: "مضيئة أفكارك كأنك تقرأ أفكاري"، ثم عاودتني الوساوس، وفكّرت أن يكون خطي مراقباً وبهذا أكون قد سلّمته بنفسي للجلاد.

ليلٌ ونصف نهار يعادلان سنة ونصف من الانتظار. طرق الباب عند الثالثة بعد الظهر، شعرت أن قلبي سيخرج من بين ضلوعي، تسارعت دقاته، كنت أسمعها كأنّها طبول بعيدة. فتحت الباب وفتحت يدي وقلبي وجسدي وعمري، ضمّني بكلِّ الشوق وشممته بالمقدار عينه من الشوق، بقينا لوقت نحاول أن ننصهر في بدن واحد ينظر كلانا في عينيّ الآخر ليرى نفسه، ونعاود العناق، لا أعرف كم بقينا على هذه الحال، لكن شيئاً ساحراً جعلنا في حالة انصهار عجيب.

هو الشوق.

متناقضٌ شعوري بين الرغبة والخوف، ذكّرني بالمرّة الأولى حين وقعت أسيرة بين ضلوعه، حدث ذلك في تلك الليلة العمياء حين، لا أدري كيف، صرت بين ذراعيه على سفرة الدرج، وصار الذي صار، كنت عمياء وأعاد الحب بصري، حينها كنت أرى ولا أرى، كنت على البرزخ بين الرغبة والخوف، بين الشهوة والحيرة، كما الآن تماماً مع فارق أنّني أراه كاملاً وأنَّ الشوق حالة لم تكن سابقاً على هذا القدر من الاشتعال. الشوق شيء حين يفيض يُضني يُوجع، وقد لا يعلم أحدنا حجم لهيبه إلا حين يتمّ اللقاء، لكأنّ الأجساد تُفصح عنه كاملاً لحظة العناق. حقيقةً كنت لا أعلم حجم تلك الجمرة الخافتة خلف رماد الغياب، كانت تلذعني حين أغمض عينيّ لحظة هبوب الحنين، لكنّني الآن كلّني جمر.

جلسنا وحدثني، كنت أسمع عينيه أكثر من صوته، كنت أصغي إلى عينيه، وأنا أعلم لماذا أراني مأخوذةً به، كأنّي أريد أن أجعل وجهه مطبوعاً على شبكة بصري بحيث لو عدت إلى عماي أبقى أراه في عتماتي، لأنني لم أشبع عينيّ منه سابقاً، كان عليه أن يغادر في الشتات الآخر مع الذين غادروا بيروت، والآن تراني على هذا الشعور اللعين أنّه سيختفي ثانيةً من حياتي. حين قلت له إنني كتبت إليه رسالة ولأنني لا أعرف العنوان وضعتها في قنينة وذهبت إلى عمق البحر وأودعتها بريد الغروب، "مجنونة"، قال، "مجنونة وشاعرة، هذي أجمل قصيدة سمعتها في حياتي". قلت له: "أنا خائفة، خائفة عليك، كان ينبغي أن لا تأتي، لأنهم جاؤوا وسألوني عنك، وكانوا قد استخدموا بيتك مقراً للتعذيب، لا أريد أن أرعبك لكن هذه هي الحقيقة، كثيرون اختفوا بعد رحيل المقاومة، أكيد قد علمت ماذا حلّ في المدينة بعد الرحيل، فيما لو أردت البقاء أرجوك أن تختبئ في مكان ما، لا أعرف أين"، قال: "خبّيني بقلبك، لا تخافي"، أجبت: "سابقاً كنت لا أخاف، اليوم صرت أخاف". "هل لديك ما يشرب؟"، كان يطوّق خصري، فكّ يديه وكعادته توجه نحو الشرفة البحرية، "تذكرين ذلك اليوم؟"، "دخلت المطبخ وأتيت بقدحين وقنينة نبيذ أحمر اخترتها من مجموعة أحفظها في مكان معتم وبارد كان والدي قد جهّزه من زمن غرامه بشيرا والدة أختي جيهان، فتحتها ووضعتها في كراف، أي في الدنّ، كي تتنفس بشكل أرحب، وهذا ما تعلمته من أبي، أتيت ببعض الأجبان والخبز وبحبات خيار وبندورة". ما زال ساهماً في البحر، بدون شك هو يستعيد يوم الرحيل، يوم مشى في موكب لم يجمعه به سوى الشتات، وبالطبع الانحياز لفلسطين، عدا ذلك كان على نقيض مع تلك البندقية التي يقول فيها: إنها ليس فقط لم تُرجع فلسطين وحسب بل ذهبت بكل البلاد المجاورة إلى الجحيم وجلبت شلل القتلة والأُميّين الذين ساقوا مجتمعاتهم كالقطعان. "هذا زمن الحثالات". هذه جملته التي يكرّرها وكانت سبب شقائه وشقائي، ولعلّني أكرّرها مثله لأنني دائماً أصطدم بالأشياء التي تذكّرني بها، وكم هي كثيرة ومتوالدة، يكفي أن تمشي في الشارع لتعثر على إنجازات تلك الفئة من البشر.

التفت نحوي وقال: "ضيعانا بيروت، تبهدلت، كل مدننا تبهدلت، خطفها الرعاع أبناء الزنى وجرّدوها من كل جمال ومعنى". تقدّم وجلس بجانبي، تأملت ملامحه ثانيةً، لم يزل كما هو عدا زيادة واضحة في منسوب الحزن يظهر في عينيه وفي ابتسامته المنكسرة على طرف شفتيه. شربت كأس عودته مع قبلة زادها النبيذ حرارةً وشهوة، شربنا وحدثني عن أيّامه في تونس وعن المجلّة التي سيديرها من بيروت، ثم بين كأس وآخر كنا نشعل الجمر ونحترق. قال لي: "أشتاق إلى ولد ولكني أخاف عليه في هذه الغابة من السفلة، هل تريدين طفلاً؟"، اختلج قلبي لهذه الكلمة، شعرت بأحشائي عميقاً، شعرت أنّ شيئاً ما يختلج أيضاً، قلت: "يا ريت"، تخيّلت جسدي وأنا أحمل في داخله جنيناً، تخيّلت البيت، وغرفته، وألعابه، تخيّلتني

ألده وأصرخ من أوجاعي، كلمة واحدة أولدتني طفلاً يحبو ويخرّب كتبي وأشيائي، كلمة واحدة جعلتني أمّاً كاملة الأمومة، أمّاً صارت تؤلف قصصاً تحكيها لطفلها وأغنية للعشيات. ثم شعرت بدمعة تكرج على خدي، دمعة حائرة بين الفرح والحزن. أعلم في أعماقي أن هذا لم يحدث ولن يحدث.

في تلك الليلة، في ساعة متأخّرة، وكان عبد الجليل في عزّ نومه، سمعت جلبة سيارات تقف وسمعت وقع أقدام متعجِّلة على الدرج، كنت في قميص نومي، تناولت روباً ولبسته بسرعة، أيقظت عبد الجليل وفتحت له الباب السري الذي يفضي إلى الطابق العلوي، بيت أختي جيهان، صعد على عجل، وبقيت حقيبته في الصالون تحت المكتبة، وضعت فوقها بعض الكتب كي أموّه وجودها، لحظات قليلة كانوا قرب الباب، سمعت أحدهم يسأل: "نخلعو أم ندقّ"، أجابه الآخر: "إخلعو يخلع نيعك، جايين زيارة يا حيوان، إخلعو"، أضأت على الفور "اللنبة" التي على سفرة الدرج وفتحت الباب بسرعة صعقتهم، ووقفت ويدي اليمنى خلف ظهري، شعرت أنّي سأنتقم في الحال من كلّ الماضي، ولكنّ الذي في قبضتي لا يقتل لأنّ لا شيء فيها، هو فقط شعور قوي برغبة الانتقام جعلني أتوهم أن قبضتي قنبلة سأرميها في وجههم، وربما هم شعروا أنّ حياتهم تقف على برزخ فيما لو أتوا بأي حركة، لذلك وجدوا مخرجاً لا يدلُّ على جبنهم. قال الذي أمر بخلع الباب: "عفواً مدام نحنا مغلطين بالبناية أكيد"، وانصرفوا، سمعت وقع أقدامهم تتخابط على السلّم، بقيت لوقت وأنا أتأمّل يدي، كأنّها ليست لي أو أنّني للمرة الأولى أكتشفها، همس عبد الجليل من خلفي: "لا تخافي"، جفلت من حضوره المباغت، "لا تخافي، غداً فجراً سأغادر، بعد ساعتين تقريباً سأغادر". أغلقت الباب ومشينا خطوتين باتجاه الكنبة، ونحن نهمّ بالجلوس شاهدت الباب يطير من مكانه ودخلوا كما لو أنهم داخلون على ثكنة عدو. كنت ساذجة، صدّقت أنهم خافوا مني وأنهم رحلوا، نسيت أن ذكاءهم لم يستخدموه مرّة واحدة في حياتهم إلا لسحق الآخر وإذلاله والتفنن في تعذيب الأرواح حتى الموت، نسيت. "مخبايتي يا قحبة؟ عم تخبي العملا؟"، قال ورفسني بنعله على خاصرتي وتكفّل البعض بعبد الجليل والبعض بتفتيش البيت والحقائب والكتب والمخطوطات التي تفحّصوها برغبة إضفاء شرعية على ما يقومون به، وهم ليسو بحاجة لحجّة أو شرعيّة أو سبب ليفعلوا ما يشاؤون، ولكن لا بأس لو وجدوا دليلاً يجرّم الضحية، أن يكون مقالاً لا يعجبهم أو كتاباً أو صورة أو قصيدة.

كنت مطروحة أرضاً، سمعت عبد الجليل يقول لهم: "لا داعي للعنف، أفعل ما تريدون"، أجاب هذا الذي رفسني وهو ينحني ويشدّني من شعري ليرفعني: "تفعل اللي نريدو؟"، أجابه عبد الجليل: "نعم ولكن أرجوك لا تؤذها"، "خايف عليها يا إبن القحبة"، وصفعني، "إذا كنت رجال إحمها". مسكني من صدري من الروب وقميص النوم ونتر القميص قدّه اثنين فبان كل جسدي، "تعى نام معها فرجيني فحولتك"، أذكر هذا الوجه من المرة الماضية، هذا المهووس الذي كان يمسك بنتف كيلوتي ويرتجف، لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، سوى أني شاهدت عبد الجليل يشرئب من بين أياديهم ويحمل قنينة النبيذ ويضربه بها على رأسه، فرّ الدم من رأسه على الفور وطرشني، ساعده البعض على تضميد جرحه، دخلوا الحمام وجاؤوا بمناشف، والبعض كان يجرّ عبد الجليل على الدرج، كنت أسمع صراخهم ووقع ونعالهم وشتائمهم تنهال كأنّهم في مواجهة فصيل من العدو، التفت جريحهم هذا نحوي وكنت قد لففت نفسي بمزق فستاني: "رح رجعلك إياه مخصي، بعدين حسابي معك أنت، بجيكي على رواق... أنا بجيب النبيذ معي على حسابي، نسيت قلك المعلم بيسلم عليكي إذا بدك يا يرجع طيب إتصلي فيه هو بيحترمك وبيحب كتاباتك"، وخرج برفقة من تبقوا، وهم اثنان. ركضت على الشرفة، وجدتهم يحملون عبد الجليل كصرة ثياب ويضعونه في

صندوق السيارة، أقفلوا عليه، صعدوا وانطلقوا، خارت قواي ولو كنت أملك القوة لرميت نفسي إلى الشارع، تجمّعت على نفسي مثل الجنين وتمنيت لو أختفي من هذا العالم.

سابقاً كنت مصابة بالعمى، عمى مرضي، برأت منه، الحب، الحب شفاني أعاد لي كامل عينيّ، وكنت أقول وأردد عندما أشاهد وقائع الجرائم: ليتني أعود إلى عتماتي، إلى قوقعتي، ألحس جرحي حتى الموت كما المحارة التي تصبح حبة لؤلؤ، بي رغبة أن أمشي في المدينة وأسأل النساء واحدة واحدة: ماذا تقولين فيما لو حدث معك هذا؟ أنتن وأنتم قولوا لي ماذا تفعلون؟ أحتاج أحداً يقول لي ماذا أفعل، أعلم أن هذا الأحد موجود، هو إله المدينة، الوحيد الذي يفعل ما يشاء ويستطيع أن يجيبني لأنه يملك الجواب ويستطيع فعل شيء أكيد، ولكنّه حتى لو فعل سيكون شيئاً ناقصاً، هو قد يردّ لي عبد الجليل، ولكن كيف له أن يرد كرامتي وكرامة من جرّه كنعجة حُملت للذبح.

الحب أعاد لي بصري، هل الحب يعيد كرامتي؟

الآن لديّ رغبة في أن أسكت، أن أدخل في العزلة والصمت، أنتظر الحب الذي يعيد كرامتي.

هذه قصتي أيتها الشمس الغاربة خذيها لليل البلاد.

الطريق إلى البيت

"حيث يحرقون الكتب ينتهون بإحراق الجنس البشري."

فرنادو بياز

"اجعل يا موسى مدخلاً للكتاب يليق بهذا الرحيل.

مداخل الكتب كمداخل البيوت."

عبد الجليل الغزال

الرؤيا

رأيت بلال الدمشقي يحترق في باحة السجن، ونحن خلف الأبواب المقفلة ندقّها بقبضاتنا ونصرخ لينتبه الحرس أنَّ بلال يحترق، ولكنّ الحرس كانوا يزاولون نوبات الحراسة ذهاباً وإياباً في الممرات، لا سمعوا ولا رأوا ما كنّا نراه، وكنّا نصرخ بأعلى أصواتنا: "بلال يحترق يا حراس، بلال يحترق يا ناس، بلال يحترق يا رفاق"، لا أحد كان يجيبنا فصرنا نصرخ: "بلال يحترق يا الله، بلال يحترق يا الله، أطفئه برحمتك يا الله، أمطر سماءك يا الله، أمطر سماءك يا الله، أمطر سماءك يا الله"، وهكذا صدح السجن الصحراوي في ليل الحريق: "بلال يحترق يا الله، أمطر سماءك يا الله". بقي بلال يحترق ويركض بناره، يرتطم بالجدران، يروح ويجيء كأنّه يرقص حتى توسط الباحة المفتوحة على السماء وراح يدور كمجذوب في رقص مولوي صعد في الوجد. اتخذت النار شكل ثوب يعلو على الخصر كالمظلة، كتنورة الدرويش، وظل يدور على وقع أصواتنا التي تصدح: "يا الله يا الله يا الله" يرافقها الطرق على الأبواب بوحدة متتالية حتى صارت ناره شهاباً انطلق من الأرض إلى السماء ونحن على ايقاع الواحد الأحد: يا الله... ثم سمعنا صوتاً جاء من كل الجهات يقول: "إلهي إذا كان في سابق علمك أن الجحيم يوجد فوسّع خلقي فيه حتى لا يسع أحداً غيري معي".

وارتجّ الليل والسجن والزمان.

ثم رأيت قرى في سفح جبل تحترق، على تلٍّ موازٍ رجال يحملون نعوشاً دفنوا موتاهم على عجل ثم مشوا وتلاشوا في السراب.

صحوت، وجدت نفسي أول الفجر أنام داخل حافلة مهجورة وسط الصحراء، ممدداً على كنبتها الخلفية، ظننت للوهلة الأولى أني في السجن قبل أن ألمح من نوافذ الحافلة زرقة الفجر وبقايا نجوم على حافة الغياب، ثم حين نهضت وأصبح المدى مكشوفاً أمامي شاهدت ما كنت رأيته ليلاً، شعرت بقشعريرة مشت في أنحاء جسمي: قوافل من آليات عسكرية محترقة، خوذ وبزّات في داخلها هياكل بشرية، تغطي ما تطاله العين، مزق من ثياب وأعلام ورشاشات مرمية في كل بقعة. وقفت، امتد المشهد أمامي أبعد، دفعني فضولي لرؤية أوسع، تسلّقت سلّم الحافلة إلى سطحها: يا إلهي! غابة من حطام معدني في كل الجهات كأنّها مقبرة لهذه المركبات التي بدت لي كأنّها كائنات نفقت بشكل جماعي في هجرةٍ مأسوية.

في البعيد البعيد غرباً لاحت سلسلة جبال كأنّها حدود لنهاية المكان الذي أنا فيه. تحرك بين الحطام شيء، ثم لا أدري كيف هبّ كالعاصفة سربٌ من طيورٍ جارحة أجفلني، عرفتها من حجمها ومناقيرها الحادّة: هي من صنف النسور، ما زالت تاتي لتقتات من بقايا أشلاء آدمية.

شيءٌ اعتصر قلبي أقوى من الحزن.

وحدي على سطح حافلة أعاين الجهات التي تغرق في الوحشة، انتابني شعورٌ أنّني الكائن الوحيد الحي على سطح هذا الكوكب، وليس على سطح حافلة، على سطح كوكب مهجور لم يبقَ أحد سواي ولصدفة لا أحد يعلمها كأنّي ملقح بمضاد لكل أسباب الموت، وإلاّ يستحيل أن أكون إنساناً عادياً وتبقى فيه روح وقوة وعقل يحلل ويفكر وعينان تشاهدان وتنقل ما تراه لمختبر العقل ليعرف به ويصنفه. ترى ماذا يعرف عقلي غير أنه أعلمني أنّ حرباً هائلة دارت وأنّ فرقاً كاملة من الجيوش قد أُبيدت هنا؛ وماذا تنقل أذناي

لمسمعي غير صفير الهواء في ثقوب أحدثها الرصاص في هياكل الحافلات والصهاريج وفي فوهات المدافع والبنادق المرمية، بعضها ما زال في ما تبقّى من قبضة يد جندي، بقايا يد تمسك رشاشاً؛ ماذا تنقل إلى العقل ليقترح، لمن أنقل هذا الذي عشت وشاهدت ورأيت، إذا لم يبقَ أحد سواي على سطح هذه الأرض؟

أضاءت الشمس قمة الجبل الذي يلوح بعيداً، بدا لي نداءً للمضي نحوه، كأن قوة هائلة جذبتني باتجاهه فمشيت.

مرّت بمنامي، وكنت لا أزال صغيراً، فرس بيضاء جافلة في الدرب نحو بيت أهلي في بستان الرمّان، هدل زوج حمام على مئذنة الجامع المملوكي حين عبرت بالقرب منه تنحدر في الدرب الحجري صوب الدكاكين، حيث نقولا الإسكافي يدندن لحناً بيزنطياً تبقّى في مسمعه من قدّاس يوم أمس الأحد، باركها الناس ومشوا خلفها، قالوا هي علامة خير جاءت مع هبوب الشرقي قبل تفتّح الزهر وذوبان الثلج الذي عمّم في جولة أخيرة له أمس قمم الجبال، رفع الشيخ الضرير أذاناً حائراً بين الضحى والظهيرة حين صهلت على ضريح الولي جدي الأكبر أبي العلاء، وحرت كيف صار ضريح أبي العلاء في التلة وأنا على علم أنه في معرة النعمان، وقلت في منامي إن هذا منام لا حقائق فيه سوى النوم.

دقّ نديم الحوراني جرس الكنيسة وربّعه، وفرّ رفّ حمام من برجه وزاغ نحو الوادي، تجمّع الناس قرب النبع ليغتسلوا بمائه بعد أن شربت الفرس منه، قالوا: صارت له رائحة عطر الورد وغزر ماءه. وسأل الناس: "ماذا نسمي الفرس المباركة؟"، قال الشيخ الضرير: "الضحى"، "وهل شاهدتها يا شيخ؟"، سأل أحدهم، وهمهم الناس تفكّراً بالاسم وجاوبته امرأة بسخرية من على الشرفة فوق دكان القمّاش: "نسمّيها الفجر أحسن"، يبدو أن هذه السيدة لا تستأنس بالشيخ الضرير ولها معه حساب لهفوة ارتكبها حين تسلل إلى بيتها بعد أذان الفجر ذات يوم و طلب منها زواجاً مسياراً، وتلك قصة أخرى. يروى أنها قبلت معه لقاء مهر قوامه بيت الوادي قرب المطحنة، وهو من زمن المماليك، وافق ثم فضّ العقد بعد مضيّ شهر من الزواج.

قال والدي، ورأيته على هيئة قديس: "نسمّيها شامة لأن هناك شامة على خدها"، وقالت أمي: "نسمّيها السعد"، واقترح الناس أسماء كثيرة: سهيلة، أنثى النجم سهيل، ثريا ويليق ببياضها، وهكذا اقترحوا وملّوا وتخاصموا وتفرّقوا وتجمّعوا، وهي واقفة على المفرق بين بيت أهلي والدرب المؤدية إلى قرى الدريب نحو مدينة حمص، مدينة ديك الجن العاشق، ولا أدري من أين جاءني الانتباه لاسم جمع الناس عليه، قلت: نستبدل حرفاً من كلمة فرس بحرف آخر، نستبدل السين بالحاء تصبح فرح، السين بالحاء فقط، وهكذا تصير الفرس فرحاً، ولأن السعادة أصابت الناس حين ظهرت وقالت أمي هي السعد فطنت أن لا فرق بين الفرح والفرس سوى حرف، وكنت لا أدري أنه سيكون لاحقاً سبب حزني وحيرتي حين يقع الهجر.

زغردت النسوة للاسم فجفلت الفرس من فرحٍ مباغت وقع على الناس، وجفلت من فطنتي، ثم ناديتها باسمها فالتفتت نحوي ومالت بعنقها فهدلت غرّتها الذهب على عينها، عمّ الصمت وكأنّ الأرض توقفت عن الدوران، برقت في عينها دمعة أحسبها اليوم دمعة فراقٍ تمّ. وللحظة شاهد الناس شهاباً يهوي ناحية الغرب فوقع الصمت ثقيلاً كأنه إشارة لحدثٍ جلل سيصيب البلاد. قال عجوز خبير في أحوال الدنيا إنه شاهد في حياته لمرات وقوع شهب في هذا الوقت ولم يحدث شيء. ثم جاء سؤال الحيرة: من يكون صاحب الفرس وأين تبيت؟ لا أدري لماذا نظر الناس كلّهم إلي كأنّهم ينتظرون مني اقتراحاً مثل اقتراحي

للاسم، لعلّهم وجدوا عندي حكمة في التقدير وإن كنت أصغرهم سناً، في الحقيقة لم تكن حكمتي هي التي ألهمتني اقتراح الاسم، بل افتتاني بها، بجمالها. أما السؤال الثاني الذي بدا أنّه موجّه إلي فلم أجد عسراً في الجواب وهو أن نخيّرها بين الناس. علت الجلبة: كيف تخيّرها؟ وهل هي عاقلة لتفهم؟ قلت: "ليمشِ كل واحد منكم وينديها باسمها فالذي تتبعه وتلحق به سيكون هو الذي اختارته من بيننا"، "نساءً ورجالاً"، قالت الامرأة التي تقف في النافذة نصفها يتدلى لتتمكن من متابعة ما يجري. وجد البعض في هذا الاقتراح حلاًّ والبعض قال إنها بهيمة والبهائم لا تعرف أن تختار، صاحت أمي قائلةً: "البهيمة هو من لا ينتظر ليرى إذا كانت تعرف أم لا". استحسن البعض ردّ أمي اللاذع ولم أعهدها بلسان سليط، ثم بدأت المنافسة وراح الرجال ينادون عليها واحداً تلو الآخر وكلٌّ يبذل أجود ما عنده في الاستلطاف وهو يناديها باسمها، والشرط أن لا يعود من لا تتبعه، وهكذا بدا الجمع يتناقص شيئاً فشيئاً، حتى لم يبقَ أحد سواي فناديتها ومشيت ومشت خلفي ثم جنبي ثم امتطيتها وراحت تعدو بي في الطريق المؤدي نحو السهل، ثم طارت بي جهة الغرب كأنّها الريح حملتني بعيداً بعيداً. وحين كنت أنظر خلفي كنت أرى سهلاً من القمح يتماوج على الضحى كالذهب.

رويت المنام لأمي يومذاك فتنهدت أمي.

البلاد

لا أدري كيف وصلت.

أنا الآن هنا، أقف على قمّة جبل تشرف على السهل الذي أذكر أني قطعته مرة، في الصحو أو على الفرس في المنام، لكنّي بالتاكيد عبرته في رحلة ما، هي القمة التي شاهدتها من على سطح الحافلة. يبدو أني وصلتها ليلاً وبتّ هنا في هذه الصومعة المبنية من حجر أسود لها ثلاث نوافذ صغيرة من الغرب والجنوب والشمال وبابها جهة الشرق يطلّ تماماً على المدى الصحراوي. وجدت نفسي حين صحوت أنام على سرير عسكري، أعرف هذا الصنف من الأسرّة، وكنت أتدثّر بفيلد متروك من زمن استعماري وجدت في جيبه رسالة مكتوبة بالفرنسية تكاد تتفتت بين أصابعي وأنا أتهجّأ الكلمات، رسالة يقول فيها لحبيبته: "أنا الآن أقف على قمة جبل في الشرق أكاد أرى منه الشاطئ الفرنسي لشدة الصفاء، زرقاء سماء هذه البلاد كعينيك"، ويختتم الرسالة: "اشتقت إليك بشدة، أحبك بحزم. الكولونيل جيلبير". سررت بهذا الوصف للشوق وللحب، وصف عسكري متين. هناك رواية لماركيز يختم فيها الكولونيل رسالته لحبيبته بهذه العبارة أيضاً، "أحبك بحزم"، قرأتها في بيروت قبل اختطافي، يبدو أن الضباط برتبة كولونيل يحبون بحزم. ضحكت لهذا التعبير وأنا أعيد الرسالة إلى جيب السترة الفيلد، لا أدري لماذا بقيت في جيبه ولم يرسلها... ربما غادر الموقع على عجل ونسي هذا الفيلد، أو أنه قتل في معركة ميسلون، وبكت حبيبته حين انتظرت على مرفأ مرسيليا وصوله مع الجنود العائدين، فوصل في اليوم التالي ملفوفاً بالعلم حملته ثلة من الجند على إيقاع نشيد الموت. حزنت لهذه الفكرة أو لهذا التقدير المأساوي، لا أحب هذه النهايات للعشاق، لكنّ الحب ينتهي دائماً بالفقدان، والفقد درجات، تمنيت أن تكون نهاية الكولونيل من الدرجة الأقل حزناً وليس كما حلّ بي. ربما اللحظة التي أعيشها وهذا النسيم البارد الذي يحمل من البعيد رائحة القندول وصمغ الصنوبر جعلني في هذا الشجن.

تذكرت تلك الليلة حين عدت فيها من تونس إلى بيروت، كانت هذه العودة الخطوة الأولى في هذا المجهول الذي عشته والذي أواصله الآن منذ ثلاثين سنة، لأشرف على بلاد تزاول هي أيضاً خرابها، رجتني هدى يومذاك أن لا أعود إلى بيروت وأبقى في تونس وتلاقيني هناك أو في أي مكان غير بيروت، لأنها تعرف بحسّها العالي أن سوءاً ينتظرني، وأنهم سوف ينتقمون منها، لكن الشوق أحياناً هو الذي يحدّد مسار من هم مثلي، المصابين بالحنين.

وأنا أفكر وأستعيد هذه الأيام أجدني أفكر بصوتي وليس بصمتي كأنّي أروي لأحدٍ ما، تعوّدت هذا منذ أن التقيت ذلك الصديق الذي ضاع مني، الكلب فرند، غريب كيف تلازمني صورته، على كل حال أظنّ أنّني عاطفي إلى حدّ مرضي، لذلك أدفع ثمن حنيني وأشواقي من هذه الروح والكثير من جسدي.

من الأشياء المتروكة في تلك الصومعة مرآة مستديرة معلقة على الجدار، وكتاب لإميل زولا متروك على جزع شجرة عفص صنعت منه طاولة صغيرة وضع عليها أيضاً قنديل زيت نحاسياً لا زيت فيه، فكرت أن أحمله معي ذكرى، ولكن من مثلي يحتاج لتخفيف الأحمال، لكنّ الفكرة ألحّت علي، أن أحمله، قد يضيف إلى مظهري وهيئتي بعداً فلسفياً، ضحكت على حالي، أستأنس بروحي المتهكمة التي تجعلني في

مزاج خفيف. جرّبته، حملته بيدي وصرت أتمرّن على البحث عن الحقيقة داخل هذه الصومعة، عكّاز بيد وقنديل بيد، يبقى السعي فقط، للعثور على الحقيقة.

استمتعت بهذه اللعبة، لمحت المرآة، خفت، لم أتجرأ على أن أقترب منها كي لا أرى وجهي، وجهي جزء من الحقيقة الضائعة، كأنّي لمحته ولكن لم يخطر في بالي أن هذا الوجه الذي شاهدته على غفلة هو وجهي، هو حقيقتي، علماً أني شاهدته قبل أيام، في تلك السيارة التي اختطفتني أيضاً، ظننته وجه إنسان آخر حين لمست ذلك الزر في سقف السيارة وتحرّكت تلك المرآة نزولاً، تملّكني في البدء خوف مما فعلت، قبل أن ألمح فيها وجهاً ناحلاً ملتحياً ظننته صورة قبل أن يتحرك، فرحت أبحث عنه خلفي، قبل أن أدرك أن هذا الوجه هو وجهي، وأنا أحاول إعادتها إلى موضعها قبل أن ينتبه أحد من الذين خطفوني، حينها كانوا خارج السيارة يقيمون الصلاة، وكانوا قد تركوا واحداً منهم يحرسني، وكان خارج السيارة لم ينتبه إلى ما فعلته، تمكّنت في النهاية من إغلاقها بلمس مفتاح آخر قبل أن ينهوا صلاتهم. والآن ظننت أن أحداً غيري قاسمني هذه الصومعة حين لمحت وجهي بتلك اللحية البيضاء بعيون غائرة في وجه نحيل، كأنّه وجه راهب دير مهجور أو قديس بري يبحث عن الله في كل ما يراه.

لم أقترب ثانيةً من المرآة، رغم أن رغبتي في أن أرى وجهي بتمعن كانت ملحّة. يا إلهي! كأن الاقتراب من الحقيقة كالاقتراب من النار، شيء مخيف، يهدّد كل ما هو قائم، يخرّب المسار ونظام الأشياء. خرجت على عجل كما الجندي الذي أمره الكولونيل بالخروج، وجدت نفسي على هذه القمة كحارس ليل انتهت نوبته، ما زال القنديل في يدي، حرت فيه، أعيده إلى مكانه أم أحتفظ به، متعبةٌ علاقتي بالأشياء، تصبح جزءاً مني أو امتداداً لشيء في نفسي، ويصبح التخلص منها موجعاً.

شعرت برهبة وأنا أنظر إلى المدى، قبالتي جبلٌ آخر كأنّه ظلٌّ للذي أقف عليه، لكنه أكثر ارتفاعاً وشموخاً وحدّةً في الصعود. هناك خلفه تركت طفولة جرفها النهر كصنوبرة صغيرة قبل ستين عاماً. أنا مثلك أيها الجندي أقف حيث وقفت أكاد أرى النهايات لو أسعفتني قدرتي، لكني أرى بوضوح ما يمكن أن أراه، وما بعده غامض كمصيري، وأحببت كثيراً وبحزم، كما حبّك.

لكني لا أذكر كيف وصلت إلى هذه القمّة، كأنّي أقطع المسافات قفزاً، أو أن أحداً حملني في نومي إلى هنا، أدخلني هذه الصومعة، هذا غالباً يحدث معي في هذا التيه الذي وقعت فيه منذ خروجي من السجن، كأنّي حين أسير تتقلّص أمامي المسافات، تطوي نفسها لتهوّن علي هذا المسعى، حقيقةً لا أعرف كيف صرت هنا وكيف دخلت الصومعة وكيف غفوت، كأنّي في هذا المسعى أمشي بلا وعي كالنائم، أمشي في غيابي، لم أكن معي حين أسير إلاّ إذا سمعت صوتي يروي شيئاً عنّي أو عن غيري. كأنّي أذكر أن نجماً كان يغمز من تلك النافذة الغربية في هذه الصومعة حين تمددت على السرير لحظة الوصول. كنت كأنّي خدر، وقبل ذلك أذكر أنّي كنت أركب دابةً تصعد بي هذا الجبل، لكن أين تلك الدابة؟ لعلها عادت إلى مرعاها ومرقدها، لا أحد هنا غيري، شاهدت بعر ماعز وبعر حمار في المنحدر الذي صعدت، أعرف هذه الأشياء، ورثتها كشاعر جاهلي يتبع أثر حبيبته ويبكي على الطلول: "وترى بعر الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل". الفرق بيني وبين امرىء القيس قليل، كالفرق بين الرمح والفرس، كلانا والده قتيل. شعرت بأمان حين لمحت روث هذه الكائنات التي أحبها وأشتاق إليها.

حين وصلت هذه القمة، وقبل أن يسرقني النوم، أذكر نجماً هدهدني، خطفني بريقه إلى رؤيا أو منام. ما أراه الآن ليس في البين بين، ليس رؤيا ولا مناماً، هو حقيقة منبسطة أمامي بكلّ وضوح. المهم الآن ما

سوف يأتي وليس ما تمّ.

حملت القنديل، أعدته إلى حيث كان، تحاشيت ثانيةً التطلع إلى المرآة، كأنّ نفسي وشوشتني أن أحملها معي لعلّها تفيد في شيء غير التطلع إلى الذات من خلالها، أن أعكس فيها ضوء الشمس كما فعلت صغيراً حين كنت أحمل مرآة صغيرة وأوجّه دوائر الضوء على بيت مريم، أسلّطها من النافذة، كنت أفرح حين تطلّ، كان الضوء هو نداء لها تسمعه فتطل من النافذة، وكان كل ذلك تمريناً أولياً على الحب الذي وقع بعد حين، أدواته مرآة وشمس ونافذة، يا لها من أيام ساحرة!...

سلاماً لأيامك ولعينيك أيتها الحبيبة القتيلة...

أنا الآن هنا، أقف على هذه القمة، أُشبهُ، نسبةً لمن يراني من بعيد، خرقةً يرفعها جندي استسلم لعدوّه، هكذا تخيّلت نفسي، أو هكذا رأيت جسدي بعيني الافتراضية الواقفة وسط السهل الذي سأقطعه نحو الجبل القادم الذي سأصعده بجسدي هذا الواقف هنا كإشارة متبقية من حياةٍ كانت.

حزنت على حالي وأنا على هذه القمة واضحٌ من كل الجهات، مكشوف كسارية، حزنت على حالي؛ على جسدي الذي لطالما التبس علي وهو يجرّني وأجرّه في اليباب، جسدي الذي كل ما فيه لا يشبع الطير، قلت ذلك مراراً وأكرر لأذكّرك، أنت الذي تبصرني في كل مكان، في خارجي وفي داخلي، جسدي لا يشبع الطير، هل تسمعني؟ هل تسمعني؟ هل يصلك صوتي... أنت الذي هنااااااك... أنت الذي هنااااااا... علق حرف الكاف كالمنجل في سقف حلقي، شددته، اقتلعته، لوّحت به وقذفته جهة البلاد، أظنه سقط في الغابة كمنجل حصاد...

شعرت أن منسوب رغبتي في تفريغ شحنات النفس قد ارتفع حدّ الطفح.... أحببت أن أخاطب جسدي الضامر الذي لا يوحي بمتانة أو بمقدرة، هو في الواقع شيء قليل بقي لسبب ما، لسبب أجهله، لذا أحببت أن أخاطبه وأصارحه في هذا الصبح العالي، الذي سيكون بداية الوصول، هكذا شعرت أنّني على بداية الوصول ففاض تناقضي كالحليب بدرجة الغليان في قدر لا يسعه...

أيها الجسد من أين لك القدرة على مزاولة مسعاك وأنت شيء خفيف يطيّره النسيم؟ من أين أيها الجسد الفاني أيها الحطام أيها التراب أيها الرميم، جسد من انت؟ أنت الذي كنت لي قبل سنين؟ أنت الذي كنت منصهراً بالشهوة صاخباً جامحاً، كنت كالصهيل على مرتفع، كنت اندلاع نار في الهشيم، كنت سنديان الغابة، كنت الصخرة، أنت الذي كنت لي، تذكر كم تمرّغت على العشب مع أنثاك مريم في تلك الحقول حين كان يغمرنا الضباب يخبّئنا من السابلة وتضيع القطعان في السهوب هناك، هناك حيث جرف النهر في الطوفان الجداء وبكت راعية الغنم سعاد، أتذكر أيها الجسد كيف حملت البنت التي غرقت في النهر وأعدتها إلى أمها وكيف غمرتك مريمك في غابة الشوح؟ أتذكر؟ كأنك لم تعد لي!

جسدي، ماذا تبقّى منك؟؟ كيف لك أن تصعد الجبال القادمة وأنت على هيئة خرقة بالية، وحين تصل إلى القمة المقابلة، فيما لو وصلت، هل في ظنّك أنّك ستلمح بيتاً كان بيت أهل وطفولة وعشق وقطيع وغناء وأمّ وحبيبة تطلُّ مع أمّها من النافذة الغربية على غروب يومٍ بعيد كمنامٍ غائم، وعلى أختك الطفلة التي قالوا إنها لا تكبر مهما توالت السنوات عليها، أو على مدينة علّمتك الكتابة والعشق؟ أنت يا جسدي الذي كان، لماذا لم تمت واقفاً؟ مت ياجسدي... لأنهي هذه المهزلة. تعبت من طيّ المسافات والجبال، تعبت تعبت تعبت... كلّما لاحت قمّة أحسبها الأخيرة قبل الوصول، أنا أعلم الآن أن القمّة التي تلوح هناك هي الأخيرة، لكنّها عالية كالمستحيل ومفزعة، كيف سأصعدها بهذا الجسد الناقص؟ كيف؟ لا أدري... يا اااا...

سمعت صوتي يتدحرج كمعدن على سلم رخامي...

هي واحدة من النوبات التي ترافقني أو التي صارت ترافقني حديثاً، أعلن فيها سخطي وجنوني وأصير آخرَ يشبه شخصيات شكسبير، هاملت أو الملك لير. وجدتني أجنّ على قمّة الجبل كشجرة عارية في الريح.

قلت: المكان هو الذي شحنني لأعلن عن فنائي.

لا بأس.

الأن هنا، أقف على قمّة الجبل، في السهل الممتدّ أمامي بين جبلين بانت بلاد كأنّها غير البلاد التي كنت أعرف، أو التي مررت فيها في أول خروج لي من تلّة سليمان، ليس فيها شيء مما كان في ذاكرتي، لا شجر ولا نهر تشيع ماؤه صفوف من شجر الحور والدلب، ولا غابة سنديان تكسو المنحدر نحو السهل. شعرت برعشة اجتاحت بدني حين ظننت أنّني مخطئ في الجهة وأني على القمة الخطأ، ثم تبددت كغيم حجب الرؤية وهبّت عليه الريح، حين بانت القلعة التي كادت تختفي وسط أكوام مرتجلة من الأبنية، التي تشبه حمولات من ركام فُرّغت عشوائياً، والكثير من المآذن التي كان يصلني منها أذان الفجر بأصوات غريبة على مسمعي ظننت أنّني أسمعها في المنام، أصوات لا شجن فيها ولا جمال، عديمة الإحساس، لا تشبه أذان الصبح أو العصاري في تلة سليمان الذي بقي في بالي كالوشم في ظاهر يد جدتي، ربطت بينها وبين تلك العصابة الملتحية التي تسلّت بي ليوم كامل في طقس من التعذيب، لي ولكلبي حين خطفت، تبدو مرتجلة كهذا العشواء الممتد كالانتظار.

خلفي تمتد الصحراء المغطاة بحطام معدني وتظهر كالمنام تلك الحافلة التي بتّ فيها ليلة كانت في عزلة متقدمة بعيدة عن القوافل المدمّرة، قدّرت أن سائقها كان يحاول الفرار لكنّه نجا لمسافة تخيل خلالها أنه سيصل إلى بيت أهله. لم يصل.

كل ما أراه من هنا تماماً كما الرؤيا، ليس تفسيراً لها بل تجسيدٌ لها، يا الله! أخاف مني عليّ. نعم أخاف أخاف أخاف... حين أغمضت عيني على نجمة بعيدة في سماء تلك الليلة بعد أن هدّني التعب، نجمة في القبة العالية مغرية في لمعانها، حاورتها بما سمح لي القلب وأغمضت عينيّ عليها لأمضي في الرؤيا فرأيت ما أشاهده الآن، صرت أخاف من نفسي لأنها ترى ما سوف أراه، كنت لا أصدّقها وأحيل التطابق بين الرؤيا والحقيقة إلى الصدف، ولكن يستحيل أن يحدث كلّ ما أحدس به فأنا لست البصير ولا الرائي ولا العالم بالغيب، إلا إذا كان هذا الهجر الطويل والتيه قد جعل من بعضي مرآة، صقلني وشفّيت إلى حد أن أحداً يستطيع أن يرى من خلالي ما هو ورائي. وأشاهد من خلالي ما هو بعيد في الزمان...

شاهدت بالعين دخان الحرائق كما الرؤيا، تماماً كما الرؤيا، يغطي جانباً من القرى الشمالية للسهل، ولمحت على تلّ قريب جنوباً جنازة سريعة بنعوش كثيرة، كوم رجال يحملون بضعة نعوش أنهوا الدفن على عجل وكرّوا كشلعة متبقية من قطيعٍ نفق متدافعين نحو الطريق العام حيث تعبر حافلات فاضت بركابها الذين بدوا على سطحها وأبوابها كقفير نحل. ليسو بعيدين عنّي كثيراً، أكاد ألمح وجوههم لولا الغبار المتصاعد خلف المركبات، وأكاد أسمع أصواتهم لو أنّ الهواء لم يعاكسها.

كنت أقف هناك على رأس الجبل عيناً محايدة، أحاول أن أفهم ما أشاهده. تهيّأ لي كأنّني أتابع فيلماً عن نهايات العالم، أو شيئاً يشبه ما في مخيلتي عن إشارات يوم القيامة، ثم وجدتني أتدحرج بأسمالي صوب المواكب الهاشلة.

لا أدري كيف حدث وتدحرجت كمتزلج فقد توازنه، بعد قليل صرت على الطريق وسط الشتات، حيث لم تنقطع الشاحنات والحافلات الممتلئة بالناس والماشية الصغيرة وصرر من ثياب وآنية وصغار متشبثين ببعض ألعابهم وبأثداء أمهاتهم، تركت دموعهم خطوطاً على وجوههم المغبرّة. كانت هذه الحمولات تتدفق كالطوفان، تشقّ الوادي من ناحية الشرق وكأن شيئاً هائلاً قد حدث واستدعى الخروج على عجل.

أنا ابن الحروب والشتات، لا داعي للتخمين أو السؤال لمعرفة هذا المصير الذي صار إليه هذا الطوفان البشري، وسببه، هي الحمولة الناجية من الذبح من هذه البلاد التي عدت إليها حرّاً من سجني الماضي لأصبح سجيناً لمصير مجهول، نعم هي الحمولة الناجية، مثلي تماماً. كنت الوحيد الذي نجا من السجن الذي دُمّر علينا في ذلك الفجر، مثلي مثلها، تعبر أمامي بذهولها مثلما عبرت الصحراء مع فارق هائل أنّني كنت وحدي كثيراً بعد أن فقدت كلبي...

ثم وجدتني ألوّح لهم كأنّي أشيّع رحيلهم وأبارك مسعاهم الغامض، وقفت على جانب الطريق، كان هناك من يمرّ على دابة أو مشياً يحمل صرّةً أو شيئاً أو طفلاً أو يضمّ فراغاً إلى صدره. صرت ألوّح للكل كأنّي أودّعهم، هكذا، دون تخطيط أو وعي كنت ألوّح لهم ويلوّحون لي كأنّهم أهلي في هجرة غامضة.

توقفت واحدة من هذه الشاحنات قربي ونادوني كي أصعد، لماذا اختاروني دون سواي؟ لا أدري، فضممت جسدي إلى حمولتها مثلما فعلت جدتي قبل مائة عام، وهكذا قلت: أنجو معهم أو أهلك معهم. لم يسألني أحد من أكون ومن أي مدينة أو قرية هربت، كلُّنا هنا متساوون في الحال والمصير وحتى في الهيئة تقريباً، كثرٌ كانوا حفاةً مثلي وبلباس من مزق ثياب، كثرٌ يحملون أكياساً مثل كيسي، لكن رغم ذلك شعرت أن بعضهم تعاطف معي وأفسح لي مطرحاً أحشر فيه نفسي في تلك الشاحنة التي تنقلنا إلى مكان مجهول، وهذا يعني، دون لبس، أنّ هيئتي في عيونهم أشدّ بؤساً مما كنت أعتقده عن نفسي. قلت إن السائق حين شاهدني قدّر أني بهذا الهزال قد لا أصل إلى مكان مهما كان قريباً، لذلك توقّف لي، ولي تحديداً وليس لسواي من الآلاف الراجلة.

ثم تحرّكت الشاحنة وحرّكت في ذاكرتي ما كان نائماً.

يا إلهي، مرة أخرى عدت إلى الشاحنة! هكذا عصفت في بالي تلك الحادثة، لكني في المرّة هذه صعدتها، حراً وبإرادتي صعدت إليها وضممت مصيري إلى مصير هؤلاء الناس الذين جمعتهم في هذه الحمولة المصيبة الواحدة وإن كانو مختلفين على أسبابها، وهذا ما سأتبينه لاحقاً.

قبل ثلاثين عاماً "حُمّلت" في شاحنة مع آخرين، كنت معصوب العينين لا أشاهد شيئاً، كنت فقط أسمع وأشمّ، أسمع أنين السجناء وأشمُّ رائحتهم، وكان جنزير يربط مصيري بمصير من حملتهم آنذاك في تلك الصحراء التي أكلت عمري، كانت أجسادنا تنزّ عرقاً وخوفاً، بادلونا على الحدود بين بلدين شقيقين بسجناء آخرين في إطار صفقة بين الحزبين الحاكمين، كم تضحكني عبارة الشقيقين، صرنا نتدافع نتخبّط في الشاحنة كالماشية المساقة إلى الأضاحي. حين تمّت عملية التبادل بيننا وبين دفعة من هناك، وهناك... كنت لا أعرفه أين هذا الهناك، هو ذلك السجن الصحراوي الذي التهم نصف عمري، وأخيراً حين قُصف بتلك الأطنان نجوت، تمّ الإفراج عني!!! بدون جهة تبلغني، بلغني الموت الذي لم ينجُ منه أحد سواي... يا إلهي، كم كان هائلاً ذلك الفجر الذي أمطرت فيه السماء أطناناً على السجن! تركته خلفي حطام كائن خرافي يلفظ أنفاسه تحت شمس حارقة، ومشيت ومشيت ناقصاً عمري وساقي وذاكرتي وصار لي ما صار، صار كلب السجان رفيق دربي في أولى أيام متاهتي، حين صحوت من نومي تحت شجرة السدر المباركة

وجدته مكوّماً بالقرب مني، كان مثلي يبحث عن صاحب يعيده إلى طبعه، فصار صاحبي، حكيت له حكايتي من ألفها حتى يائها، حكيت له أوجاعي ومسرّاتي، كان ينشرح لمسراتي ويحزن لأوجاعي، سمّيته "فرند"، مدهشاً كان وحزيناً وعاتباً، لم يكمل رحلته معي لأن عصابة تكفيرية خطفتني وتركته وحده في الصحراء لأنه نجس كما قالوا، تركوه للضياع بعد جولات تعذيب لي وله في جعله يجري خلف السيارة التي اختطفت بها حتى يسقط أرضاً من التعب وأسقط في قعر نفسي من الألم.

رويت ذلك والآن أذكره بحسرة، لا أدري ما حلّ به، لربما حملته غريزته على النجاة وصار رفيق ولد من قرى الشرق البعيد يجري خلفه نحو النهر، أتخيل ذلك لأطفئ الحسرة الحارقة، أتوهم ذلك وأحاول أن أصدّق أنه لم يبقَ وحيداً، آمل ذلك.

عجيب أمر الزمان. كلُّ يوم فيه ما يذكّر بالأمس، وكلُّ أمس فيه مودعة للآتي من الأيام. كتلك العتمات في وادي الهد في "خربة النواح" التي ظنّها الصبي علي أنها مودعة لليل آخر، لكلِّ أمر مودعة ولكلِّ تأليف مودعة وهكذا لا يأتي الضوء إذا لم يترك منه مودعة في الليل، هذا ما قرأته مرة في كتاب اسمه **خربة النواح**، هي رواية كتبها صديق لي عرفته في بيروت كان نديم ليلها وشلة من زمانه، هو أيضاً كان على ودّ مع التي أحببت، هدى، كان يحب الشجر والصمت والنبيذ وكان من بين الذين شيّعوا رحيلي في البحر وكتب في ذلك الكثير، لا أدري أين هو اليوم، لعلّه يؤلف رواية عني لأنّ غيابي هذا هو مودعة لملحمة. كان يهجس في الفقدان كلما شرب قدحاً، لأن الأيام حسب رأيه هي تشييع أبدي لدورة الزمان. اشتقت إليه هذا المجنون، إذا وصلت البلاد سأبحث عنه بالتاكيد.

سلاماً لأيامك أيها المجنون؛ شبيهي.

على كلّ حال لا أدري ما هو الشيء الآخر، غير هزالي، الذي أوحى لهذه الشاحنة تحديداً بالوقوف، لا بد أن فيها مودعة لشيء ما، أنا في الحقيقة لم ألوّح بيدي لكي يتوقف سائقها، كنت ألوّح لكلِّ العابرين أمامي كأنّي أودّعهم، كأنّهم أهلي ووقفت أشيّع رحيلهم بعد أن تركوني وحدي لأحرس البيت، حيث عزّ عليهم أن لا يبقى أحد في الديار، عزّ عليهم أن تُهجر ويموت ما بقي فيها من ماشية وشجر... هكذا تخيّلت حين وصلت الطريق وكانت الحافلات والشاحنات والسيارات تعبر في موكب جنائزي الهيئة ملبّد بالغموض، تخيّلت أنهم أهلي وأنهم نسوني ورحلوا فعدلت الصياغة وقلت: تركوني لأحرس البيت والماشية والشجر. نعم تخّيلت ذلك.

هو خيالي وأحبه، يسعفني على تدبيرٍ موازٍ للحقيقة. والحقيقة لا أدري لماذا صرت بين هذا الكوم من البشر والماشية الصغيرة والصرر، لماذا انعقد مصيري بمصيرهم؟ كانت الشاحنة كتلة من بشر في سياق كتل لا متناهية، هكذا هو المشهد بحيث لا يظهر من الحافلات والشاحنات إلا عجلاتها. الحقيقة أن هؤلاء فرّوا من مذبحة، أدركت ذلك حين صرت واحداً منهم، شممت رائحة المذبحة في صمتهم.

كانت الشاحنة تترنّح، الكلّ صامت ومنكسر، عيون تفحصتني قليلاً ثم تابعت زوغانها في البعيد، بكاء خافت يصلني من امرأة تحتضن صرّة، شاب يقف متمسكاً بحافة الشاحنة يحمل مزوداً جلدياً، كان ينظر بتمعن ورغبة في التعرف إلي، هكذا قالت عيناه، رجلان أحدهما يجلس على كرسي بعجلات في حرجه كيس صغير قدّرت أنه كيس دواء، الذي بجانبه يصغره سناً يرتدي بيجاما مرقطة، يبدو أنه ابنه، حزم على ظهره حقيبة، عجوز تحتضن جدي ماعز، بقربها زوجها يحتضن أمَّ الجدي، نظر الجدي إلي وثغا كأنه يحييني، أحببته وودت لو كان لي، شممت في رائحتهما بعض عمري الذي حدث وتمّ هناك خلف الجبل المقابل

حيث كنت عاشقاً صغيراً بعمر الجدي وكانت الحبيبة مريم، سريعاً اشتعلت هذه الذكرى في بالي وانطفأت، أطفأها الطوفان الذي يجرفني، شلة من شبان يجلسون فوق سطح كابين السائق، شلة أخرى على بوابة صندوق الشاحنة، امرأة في الأربعين من عمرها تحمل صورة شاب أخذ وجهها شكل الذهول، طفل في حضن أمه متمسكاً برغيف خبز، أمامي مباشرةً ملتحٍ ذكّرني بالذين اختطفوني لكنه بدا مستسلماً لمصيرٍ يجهله.

كنت أتطلع في هذه الوجوه وأفكر أنّني منذ زمن بعيد لم أشاهد هذا التنوع البشري، اعتدت لثلاثين سنة على رجال في لباس من لونين: الكاكي للحرس والرمادي الجارد للسجناء، لا بد أن الذي صممه وأراده لنا كان مدركاً أن هذا اللون ينسي المرء بقية الألوان، هو أقرب إلى فعل العماء، وهذا شكل من أشكال التعذيب. منذ زمن لم أرَ هذا الكمّ من الألوان، لم أرَ طفلاً أو امرأةً أو شاباً أو أشياء تخصّ عالم الأحياء، ما عدا تلك العصابة التي اختطفتني لغاية أن أكون قاتلاً وليس قتيلاً.

صرخت امرأة نحيلة تعقد منديلاً رمادياً على رأسها، ملوَّحٌ وجهها بالشمس: ابني... ابنيييييييييي... عمّت الفوضى في الحمولة، ما بها؟ لماذا تصرخين؟ قال شيخ مكوّم قربي، عرفت دون أن أسأل أو تجيب، لقد نسيت ابنها في المهد وبدل أن تحمله حملت شيئاً يشبهه، حملت لعبته، كأنّني انتبهت إليها فور صعودي الشاحنة، ناداني شيء فيها، ربما العينان، وقدرت أن الذي كانت تضمه بين ذراعيها وتهدهده دون توقف وباللاوعي هو دمية ملفوفة بخرقة. صرخت: ابنيييييييييي... فلعت الياء صدري، فجّت رأسي، توقفت الشاحنة، فقفزت وراحت تنتحب على الإسفلت، قفز خلفها شاب المزود، حملها ليعيدها إلى الشاحنة، ولكن دون جدوى، أصرّت على العودة إلى البيت، قال لها: "لن تصلي، يذبحونك في الطريق"، قالت له: "يذبحوني أفضل من أن أعيش بدون ابني حبيبي ضناي"، لم تعد إلى الشاحنة، مشت وحيدة كأنّها تمشي عكس الريح، هكذا بدت وهي تدفع بجسدها نحو بلدتها، ابتلع صوتها هدير الشاحنات.

ساد وجوم إضافي زاد الحمولة ثقلاً، ثم انطلقت الشاحنة، تمايلت، ترنّحت مثقلةً بالأجساد والأحزان لتأخذ مسارها من جديد، كأن جسدي شُقّ قسمين: بعضه مشى خلفها وبعضه ستحمله الشاحنة إلى مجهول آخر، حاولت أن أقفز ولكن يستحيل علي ذلك، أحتاج من يسعفني على النزول مثلما أسعفني على الصعود. إثنان يمنعانني من القفز: الأول ساقي والثاني هزالي، فصرخت بالسائق أن يقف وضربت بعكازي على الحديد، صرخت بالناس أن لا يتركوها وحيدة في الطريق، أين أهلها زوجها ربعها؟ قال رجل كأنّه كان ينتظر فرصة ليحكي: "ما بقي أحد، ذبحوا حتى المواشي في المراعي عند الغروب يوم أمس، لم يتركوا شيئاً، قتلوا أبي، غنمي وكلبي"، كان يضع في حرجه صرة وولداً، "بقي لي هذا الذي فوق"، أشار بأصبعه نحو السماء، "وترك لي هذا"، وأشار إلى طفله، "كذلك عاد الكلب إلى البيت على آخر الروح ومات، لم يبقَ لي شيء إلا الله"، ثم فكّر قليلاً كأنه يشك في ما يقول وتابع: "حتى هو تخلى عنا، كنا نصرخ من على السطوح وفي الحقول والمراعي: ياااا الللللللله"، أجاب رجل ملتصق به: "يمهل ولا يهمل"، أكمل الراعي، شممت به رائحة غنمه وحقول القمح والعشب اليابس، "كنت في الطرف الآخر للبلدة حين اختلط الصراخ بالرصاص، ركضت بكل عزمي صوب البيت لأحمل زوجتي وأطفالي ونهرب نهرب لا أعرف إلى أين، وجدتهم مكوّمين خلف الباب، وعلى العتبة يئنّ نجيم كلبي، حاولت أن أضمّد جرحه، لكنه ما إن اقتربت منه نظر في عينيّ ومات، تركته، دخلت، خبأت أولادي بأكياس القمح، طمرتهم حتى أعناقهم، لكن أمّهم خافت أن يختنقوا، حملت وليد وحملت ربيعة مهند وخرجنا في البستان باتجاه الدير على رأس

الجبل، رأيتهم خلفي يشعلون النار في البيت، شعرت بلهيبها يحرق قلبي، يشتعل في روحي، ولكن ليس باليد حيلة، تابعت الهرب بعائلتي بين الحقول نختبئ بين قصب الذرة وتارةً نزحف أو نحبو في البساتين، كي لا نظهر ونصبح صيداً سهلاً، نمنا حتى الصبح في مغارة تحت الدير، هناك"، وأشار صوب الشرق، "كنت أشاهد من بابها كيف تأكل النيران جنى عمري، كل هذا يعوَّض، والدي الضرير ذُبح مع غنمي، عرفت ذلك من الكلب، كان رفيق والدي يأخذه إلى الحقول ومع الغنم وإلى ساحة البلدة لشراء التبغ، ولد واحد نجوت به، ها هو نجا مع أمه، الثاني دفنته قرب المغارة، أصيب في رأسه، حفرت له هناك، بقي هناك، بقي وحده هناك، كنت أريد أن أحمله معي ولكن مستحيل، كيف أحمل في الشتات طفلاً ميتاً؟ كيف كيف يا اااللله؟".

بكت أمه وناحت، وعمّ الهرج في الشاحنة بحيث اتّهم الرجل شاب المزود الذي ركض خلف الامرأة بأنه وثورته جلبا الويل والخراب، أجابه آخر: "اتّقِ الله يا أخي"، همهم الشباب هنا وهناك، تبادلوا التهم، شممت رائحة الموت تأتي من الجهات الأربع. عاد الشاب وصعد الحافلة خائباً. نظر في عيني كأنه يعتذر من فشله في إعادة الامرأة التي نسيت رضيعها.

الرجل الآخر الذي ينام في داخلي

كأنّي أعيش من جديد قصة أهلي وقصتي وقصة جدتي التي كانت طفلة وضمت مصيرها في الشتات لآخرين لا تعرفهم، وحيدة نجت بإنجيل كتبت على صفحته الأولى أسماء أهلها وأخوتها الذين قتلوا قبل أكثر من مائة عام في تلك القرية النائية كالوشم الذي في يدها، حملت معها من كلّ البلاد كتاباً وأسماء، احتفظت به طوال عمرها، كانت تضعه قرب وسادتها عندما تنام، والآن تتكرّر الحادثة كأنّها الحكاية يا جدتي.

اختلط علي الزمن وتداخلت في رأسي الأحداث، كلُّ هذا الذي أنا فيه هو الحكاية نفسها. يا إلهي، محكومة هذه البلاد بالخراب يا جدتي، حاولت النزول من الشاحنة شدّوا بي وصاحوا: "لا ينفع، ستقتل قبل أن تصل، وإن وصلت ستجد رماداً ودخاناً، ما بقي مخبّر"، لكنّي أصرّيت أن ألتحق بالأم التي نسيت ابنها، يستحيل أن نتركها تذهب إلى الموت وحدها، رجوتهم، لم يفعلوا، طرقوا على نافذة السائق وطلبوا منه أن يمضي ويلحق بالقافلة، كانت عيناي معلقتين بتلك الامرأة التي تنحني وتنتصب وتضرب على أنحاء جسدها، صرت أنتحب كأنّ الولد المنسي ولدي، شعرت بذلك، منحني النحيب شعور الأبوّة، منحني انكسارها في الطريق تجثو وتنهض كنابض شعور الوالد المفجوع، وقلت لهم: "هو ولدي، توقفوا توقفوا، هو ابني، توقفوا أرجوكم". دفعة واحدة جعلتهم في الالتباس وصاروا ينظرون إلى وجوه بعضهم، كلمة واحدة لا أكثر جعلتهم في غير حال، "ابنك؟ ابنك، ابنك، ابنه؟ كيف؟ معقول؟ ابنك؟"، دار الهمس ونخر الشك العقول كسوس الخشب!!! ما كنت أتوقع أنّ ما تفوهت به ينسيهم مصيرهم ويصبح فضولهم لمعرفة من أكون أهمّ وأكبر من مأساتهم، التفتوا جميعهم نحو الأم التي صارت نقطة سوداء في الطريق بعيون تتّهم، أدركت أن ما قلته خطير، فيه اعتراف أنّني على علاقة بامرأة لها زوج قُتل ليلة أمس ويعرفونه، همهموا وتهامسوا وكأنهم جيرة على شرفة بيت في يوم عادي يتشاورون في شكوكهم، "عجيب! هل أنتم في شتات أم في رحلة؟ كيف يتسع عقلكم لهذا وأنتم على حافة الموت؟"، كان ذلك الملتحي يستغفر الله، وشلّة الشبان تتهامس ساخرة، صرخت بهم كصرختي الأولى: "هل تعرفونني؟ هل منكم من شاهدني مرة في هذه البلاد، في طريق أو قرية أو مدينة أو جامع أو حانة، في فرح أو مأتم؟ هل منكم من يعرف هيئتي؟ هل منكم من يعرف مصدري وأهلي ومن أين اتيت ومن أكون وأين أذهب؟ أنا غريب، لا أعرفها ولا تعرفني، أنا عبد الجليل الغزال، أحد منكم يعرف هذا الاسم أو يذكره أو سمع به؟ لم ألمس امرأة منذ ثلاثين سنة، هل تعلمون ذلك؟ هل تعلمون أني نسيت أن لي جسداً وروحاً وشهوة ورغبات؟ وفوق ذلك أنا رجل معطوب، هل يريحكم أني معطوب؟ هل يبدو في هيئتي ما يوحي بالفحولة؟ ما بالكم يأخذكم الكلام إلى الدناءات وأنتم في شتات لا وجهة له ناقصو أهل وأحبة وبيوت وبلاد وأوطان؟ هبط عقلكم إلى الخصية والفرج من جراء كلمة، كلمة تحمل الرحمة، تحمل الألم، تحمل الشهامة والكرامة، هو ابني وابنكم وابن أبيه الذي ذُبح كما أبي الذي قُتل قبل خمسين عام... أنا عاجز، أنا غريب، أنا مخصي، هل يفرحكم أني مخصي؟ هل يريحكم؟ هل يعيدكم إلى وعيكم أنكم في شتات؟...".

لا أعرف من أين خرج صوتي في خطبتي المجنونة ومن أين لي أن أكون خطيباً في حافلة تنقل حطاماً بشرياً تحوَّل إلى ذئاب حين مسّه الشك بأنَّ امرأة حملت من غير زوجها، "فكّروا في مصيركم وليس في

أعضائكم التناسلية، أنزلوني الآن، ساعدني أنت يا شاب، تبدو أكثرهم شهامةً وكرماً، ساعدني هذه بلاد لم يتغير فيها شيء سوى تجدّد العفن والجهل والحروب، سجني أرحب من عالمكم، متاهتي وصحرائي أخصب من كرومكم التي يحرقها الطاغية". ساعدني وتدليت من الشاحنة كخرقة حيث بدا هزالي فاضحاً أمامهم، "لم يلفتكم شكلي ونحولي وضعفي ولحيتي وأسمالي وآلامي. كلبي الذي لم يكن كلبي، لم يكن لي قبل أن وددته وألفني، حزن حين شاهدني مكوّماً تحت شجرة السدر في يوم خروجي الأول من السجن، كلب قطيعك أنت يا راعي الغنم ماذا فعل؟ اِحكِ لهم، ماذا فعل عندما ذُبح والدك وقطيعك؟ أخبرهم كيف جاء ليخبرك ومات، كلكم صرتم مفتين وكهنة وفقهاء ومعظمكم لا يعرف الألف من العصا". ساعدني ونزلت ومشيت في الحال خلف الامرأة التي تظهر وتختفي كنقطة سوداء في سراب. ثم فكرت بخطبتي وأدركت أنّي ربما تسرّعت في حكمي على الناس وأنّه كان لا داعي لردة الفعل هذه، وأنّ السبب صغير ليس بحجم الكلام الذي قلته، وأنّ هؤلاء الناس هم ضحايا أوهامهم، وحين أردت تفسيراً لما فعلت أدركت أني كنت أحتاج أن أبلّغ شيئاً متراكماً في نفسي ووجدت اللحظة ففعلت، وتذكرت مجنون الوادي في بيروت الذي كان يخطب في جماهير موجودة فقط في خياله، لا فرق كبير بين جنوني وجنونه.

كنت أمشي وأجوجل أفكاري، شعرت ببعض الندم، ربما ظنّ بعضهم أنّني متعال، أو أني أستغل مسألة سجني. كانت القوافل تمرّ بي وأفكاري تمرّ معاكسة، بعد قليل توقفت حافلة جانباً وبشكل مباغت حيث أثار وقوفها زوبعة من الغبار حجب الرؤية لوقت كنت أسمع خلاله هواشاً بشرياً مسعوراً، ثم شاهدت من في داخلها وعلى سطحها في عراك وصياح كأنّ ما جمعهم في هذه الحافلة قد انتهى مفعوله فجأةً أو فُقد، ففقدوا السيطرة على أنفسهم، ترجّلوا متدافعين نساءً ورجالاً وأطفالاً، رأيت شاباً يهوي أرضاً ينزف وقد فجّ رأسه، يتبعه آخر يهوي عليه بحجر، صرخت به أن يقف، زعق صوتي فجمد مكانه والحجر في يده، تأمّلني متفحصاً هيئتي كأنه يحاول التذكر إذا كنت في عداد قطيعه أم أني نبتٌ فجأةً من الأرض، لم تدم حالته هذه طويلاً بل عاد إلى مهمته، لكن الجريح كان قد تسلق السلم إلى سطح الحافلة وبيده شلف حديد والدم يغطي وجهه.

صرت أسمع مفردات كأنّي قرأتها في كتب التاريخ، ومنذ زمن لم أسمعها، حتى ظننت أن المتقاتلين قد جاؤوا من تلك العصور البعيدة، بدون رايات ومصاحف ورماح، كان يبدو من اتهاماتهم بعضهم لبعض أنهم فطنوا لشيء كانوا قد ظنوا أنهم نسوه ومات في النسيان، فجأةً عاش في نفوسهم كوحشٍ كاسر. وعندما يصحو الوحش ويستفيق في الإنسان يقتل فقط للقتل، على عكس الكائنات المفترسة التي تقتل لتأكل ولا تقتل بني جنسها وحين تشبع تآخي القطيع، يا لهذا الإنسان!...

كان البعض الذي لم يصب بلوثة الجنون هذه يحاول الفصل بينهم، لكن هذا البعض سرعان ما ضاع واختلط بالكل أو انسحب ومشى، كأنه مرض كالطاعون يتفشى ويصيب الناس دون استثناء وليس من محجر أو كرنتينا تأوي المصابين، وهكذا يصبح الناس كلهم عرضةً للعدوى.

"هذا هو الجنون بعينه"، صاح عجوز من على سطح الحافلة يرتدي عباءةً سوداء مقصّبة بخيوط الذهب وعلى رأسه كوفية بيضاء وعقال أسود، بدا شيخ عشيرة فقد سيطرته على الناس، وراح يضرب بعكازه الهواء كأنّه يضرب كائناً غير مرئي يهاجمه، ثم لمحت السائق يصعد الحافلة وينطلق بها بسرعة بمن تبقى في داخلها من عجائز وأطفال وعلى سطحها ذلك العجوز يصيح: "هذا هو الجنون والكفر بعينه"، والجريح يتوعد بالثأر ولو بعد أربعين عاما. غابت الحافلة وغاب صوت العجوز ومن بقي واصل القتال بما تبقّى من

عزيمة، صرت أصرخ بهم محاولاً ثنيهم عن مواصلة هذا الجنون، عبثاً حاولت، كأنّي أصرخ في وادٍ عميق، وشعرت أنّ شيئاً تحرك في نفسي، تململ كالوحش لينقض على الجميع لكنّه بدا في جسدي هذا صغيراً لم ينمُ ولم يتغذَّ بالضغائن ليتمكن من الانقضاض، تركتهم ووقفت عاجزاً مهزوماً أمام شهواتهم الدموية، واصلوا معركتهم بما أوتوا من قوة وحجارة وعصي حتى تساقطوا جميعهم أرضاً كخرق. ثم رأيتهم يتململون كالزواحف وقد انقسموا قسمين منهزمين داميين، الأقل إصابةً يجرّ أو يحمل من عُطب أو فقد قواه، ومشى كل قسم في طريق، لكن الجهة بقيت واحدة: المجهول.

مشوا على خطين متوازين لكنهما متباعدان كنمل يجرّ بقايا نمل. وقفت أتأمل فلولهم وقد بقي منهم في أرض المعركة بقعٌ من دمهم ومزقٌ من ثيابهم ونتفٌ من شعرهم وصررٌ ممّا حملوا وهويات طارت من جيوبهم تمزّق بعضها تحت نعالهم التي كانت تحفر في التراب. قرأت بعض الأسماء في الهويات ورميتها ونفضت يدي كأنّي أريد التخلص من عار لمسته، ووجدت دفتراً يتصفحه هبوب الهواء، انحنيت ولممته، تصفحته لأتبيّن ما فيه، يبدو أن أحداً كان يدوّن ما يشبه اليوميات، قرأت منها:

في صبيحة يوم من شهر أيار تركنا أبي، شاهدت أمي تودعه عند عتبة البيت وتبكي، وحين سألتها إلى أين ذهب والدي يا أمي، لم تجبني بوضوح، قالت لي سيعود، مرت أيام كثيرة وكلما سالتها كانت تقول لي سيعود، كنت في السابعة وصرت في الثامنة ولم يعد، في العاشرة من عمري ولم يعد، مشيت نحو العشرين وعلمت أنه لن يعود لأني رأيت صورته في صحيفة مهرّبة خبّأتها أمي في خزانتها قرأتها وعلمت أنه لن يعود....

قرأت هذا في الصفحات الأولى من الدفتر، قلبت صفحاته كأنّي أقلّب أيامي بيدي، يبدو هناك الكثير مما يجمع بين الناس، أكثره وأنبله هو الحزن المتأتي من الفقدان، قرأت قصيدة يبدو أنها من تلك القصائد التي يحبها لنزار قباني، لم تعنِ لي شيئاً، ليس لكوني شاعراً ولي رأي نقدي بل لأن ما أنا فيه من اعتكار وحسرة لا ينسجم مع كلام يخاطب المرأة من موقع ذكوري منتصب، ثم عثرت على مقاطع من نصوص لمحمد الماغوط يقول:

يا بركة السنونو الزرقاء، لقد عاد الأرق القديم يضرب صدغي كحطّاب جبلي، خمسون عاماً وأنا أسير أسير ولم أصل إلى شيء... هل الخطأ في الطريق أم في قدمي؟

جميل هذا المجنون الآخر، "عندما أتعب أضع رأسي على كتف قاسيون ولكن عندما يتعب قاسيون على كتف من يضع رأسه؟". أجبت الماغوط من هذا التيه: "يضعه أيها الشاعر على كتف الغمام"، قلت ذلك لأعدل مزاجي بعد هذا العرض الدموي.

وهكذا صرت أفلفش في دفتر أيام رجل لا أعرفه ولا أدري إذا كان من بين أولئك الذين أيقظوا أمواتهم وهاشوا كالذئاب، أشكّ أنّ من يكتب هذه الأشياء يسقط في الهمجية، ثم عثرت على نص في أواخر هذا الدفتر تقريباً يشبه منامي عن بلال الدمشقي الذي رأيته يحترق في باحة السجن وصوت يعلو في الجهات يقول: "إلهي، إذا كان في سابق علمك أن الجحيم يوجد فوسّع خلقي فيه حتى لا يسع معي أحد غيري...".

وجدت نفسي هكذا وسط الطريق وحدي مع دفتر ذكريات لا يخصني، ولا أعرف صاحبه، وضعته في كيسي وتابعت.

التلميذ

كان المتقاتلون قد أصبحوا في البعيد يجرّون أجسادهم ودائماً على خطين متوازيين نحو الجهة الواحدة كنمل يجرّ بقايا نمل. بعد حين سمعت وقع أقدام تتبعني، التفتُّ فوجدت صبيّ المزود الذي شاهدته في الشاحنة وأعانني على النزول يجري خلفي، فتوقفت ظننت أن الدفتر له أو لأبيه. نظر إلي نظرة مريد إلى معلمه، وفاجأني بطلبه المباشر: "أريد مصاحبتك، هل تمانع؟"، هكذا دون أي تردد قال وبثقة مطلقة، "اخترت طريقي معك وليس معهم، هل تمانع؟".

– نعم أمانع لأنني لا أريد أن أحمّلك تبعات جنوني ولا أريدك أن تقتل.

– لا تخف، أنا أعرف الطريق وأعرف كيف نختبئ.

– ومن قال لك أنّني أريد أن أختبئ وأريد أن أعرف الطريق، طوال عمري كان الموت يفرّ مني وأنا أريده وأسعى إليه لأنهي هذه الحكاية، لأنهي مهزلتي، لأنهي رحلتي هذه، قل لي صراحةً لماذا تريد أن ترافقني، أنا لا أنفعك بشيء بل سأكون عبئاً عليك.

– بلى، تنفعني كثيراً، أنا أحتاج إليك تحديداً. ثم والتفت خلفه والتفتُّ معه.

في البعيد شاهدت الشاحنة التي كانت تحملني وتحمله تنطلق مترنّحةً بحمولة زائدة، أظنها الندم الذي أرخى أثقاله على قامات بشرية مكسورة في عمقها ومهانة.

ومشيت بحمل إضافي هو الشاب ويوميات رجل لا أعرفه وحمل آخر استجدّ هو ندمي، اندفعت بكامل إرادتي نحو المجهول لأنقذ إبني، استسغت هذه الفرضية وفرحت بها، فرحت أنّ ذلك الطفل المنسي في مهده هو إبني، ثم وأنا أسرع من خطواتي كانت تتحول هذه الفرضية إلى ما يشبه اليقين، حالة تشبه الظل الذي يمحوه الضوء تدريجياً، تماماً كشمس تشرق من وراء جبلين متقابلين تبدأ تدريجياً، وهي تطلُّ من خلف الجبل الشرقي، تضيء سفح الجبل الغربي الغارق في ظل الآخر كأنه السحر، وهكذا حالي كلما قطعت شوطاً خلف الامرأة في تلك الطريق التي لا أدري إلى أين تصل في النهاية، كانت تزداد نسبة يقيني أن الطفل هو إبني، كأنّها في عتمة وبدأت تتكشف تحت الضوء، وكأنّ الحقيقة والوهم هما الجبلان المتقابلان والشمس التي تشرق تمحو ظل أحدهما عن الآخر، هذا الفعل هو الحنين لما سأكون عليه، وليس الحنين لما كنته حين جرّتني أمي كشاةٍ تُساق للذبح إلى يومي الأول في المدرسة وبكيت، الحنين إلى فعل يكمّلني أو يعوّض نقصاني المتزايد، يملأ بعض هذا الفراغ الذي يتّسع في داخلي كخواءٍ متمادٍ، كنت كأنّي أركض بحيث لم تعد قدمي المعطوبة تلامس الأرض، جعلت العكاز يقوم بدورها، وهذا شيء صعب ومرهق، لكنّ الجموح الذي أصابني أسعفني على احتمال الألم، طاقة عجيبة توالدت للتو في مجاهل بدني وجعلتني كنابض يقفز. كانت تمر بي السيارات والحافلات والشاحنات، ممتلئةً كسابقاتها بالبشر وبالكائنات الممكن حملها، وبصرر وفرش وأغطية محزمة بأمراس بلاستيكية، أحمر وأصفر وأخضر، من تلك الألوان التي تسرق النظر والتي أشتاق إليها، كذلك كانت قوافل من الدواب، بغال وحمير، محمّلة بالعجائز والنساء والصرر والأسمال وبعض الماشية، خطّ طويل من الراجلين كأنهم في تشييع يمشون خلف جنازة، مجاميع تتدافع على الطريق هذا الذي أسير عليه عكس الهجرات. وكنت أسأل بعض من يمرّ بي وأمرّ بهم عن امرأة عائدة، كانوا يجيبون بنعم هي تركض كالمجنونة وتلوّح بمنديلها الأسود.

وكان بإمكاني أن أميّز طبقات الناس ومستوى غناهم وفقرهم، وهذا لا يتطلب ذكاءً أو خبرة أو شيئاً يشبه النبوءة، من الواضح أنّ كلّ من أمكنه مغادرة البلاد فعل دون تردد وبالدرجة الأولى من يمتلك سيارة. كانت تمر بي سيارات عجيبة لم أرَ مثلها سابقاً، منها شبيهة بتلك التي خطفت بها في الصحراء، مهيبة وغامضة لا يظهر من زجاجها الأسود من في داخلها كأنّها تحمل سراً، أتخيل من في داخلها ينظرون إلى الآخرين بازدراء، سيارات أخرى أصغر حجماً وهيبةً وأكبر عمراً، وهناك سيارت تشبهني، مهلهلة تجرّ نفسها رازحةً تحت حملين، حمل عمرها وأعطابها وحمل الركاب مع أشيائهم المكدّسة على السطح وفي الصندوق، "هذه تشبه بلادي"، كان يقول صديقي المصري، "حطامٌ يحمل حطاماً".

من بقي هناك؟ وهناك بالنسبة إلي جهة مطلقة، هناك هي أي مدينة أو قرية أو بيت أو حارة، كنت أسأل الراكبين على دواب والراجلين نساءً ورجالاً، وكانوا يقولون لي: "القتلة والذين قتلوا"، "من القتلة ومن الذين قتلوا؟"، لا أحد يجيب بوضوح، هو الخوف، الخوف الذي مشى معهم حتى في شتاتهم، حملوه معهم، وهو حمل ليس بالسهولة التخلص منه، شعرت به في الشاحنة التي خطبت فيها خطبتي التاريخية واليتيمة، وهذه محطة ستبقى في ذاكرتي حتى أموت وقد أوصي بها أحداً ليكتبها، كان الكل يخاف الكل حين يصبح الكلام في التفصيل.

عندما اتّهم الراعي هذا الشاب الذي يحمل المزود أنه وثورته قد جلبا الخراب إلى البلاد قال ذلك في غيابه وليس في حضوره، قال حين قفز من الشاحنة وركض خلف الامرأة ليحاول إقناعها بالعودة، ثم أن الرجل الذي طلب من الراعي أن يتقي الله لم يكتفِ بهذا الطلب المشفّر بل تابع وقال: "إن الذين ذبحوا أهل بستان الحور هم ليسوا أبناء عمومتهم بل شباب الساحل والريف والأغراب"، فصرخ آخر: "أنا من الساحل، لا تخلطوا بين الناس، الناس معادن مختلفة"، هذا كله كلام غير واضح تماماً بالنسبة إلي لكنه واضح بالنسبة إليهم ومحدد.

الخوف حملٌ زائد يخفّ وزنه حين يبتعد المرء عن مصدره وقد يتبدد في الشتات، لكن خوفاً آخر يبدأ بالنمو في النفوس، هو أكثر منه خوفاً، هو الرعب. كنت أسير، أجوجل هذه الأفكار ولم أنتبه أن الشاب ما زال يتبعني، وكنت قد قطعت مسافة طويلة ولم أنتبه لذلك حتى حين استوقفت شيخاً راكباً على بغل وخلفه امرأة لا يظهر منها سوى العينين متدلية الرجلين من جهة واحدة، لأسأله سؤلي الوحيد الذي يرافقني في هذه الطريق: هل شاهدت امرأةً عائدة في الطريق؟

– نعم، هي زوجتك؟

حرت في أمره، كنت أسأله صار يسألني، قلت له: تقريباً

– تقريباً!!! أستغفر الله، ليس بعلمي أن زواجاً اسمه تقريباً. تأفف وامتعض

لم أتوقع أن آخرَ يبقى واعياً إلى هذا الحد المرضي لتأويل الكلام وفق معاييره الثابتة كالصخر وهو في حال نزوح يرافقه الموت فقط، كأنّي لم أعش هذه الأجواء في سنوات صباي، أشياء كثيرة نمت خلال سجني كنمو الفطر على جذوع السنديان، كيف لهؤلاء الناس أن ينتبهوا لما هو أقل بكثير من الكرامة الإنسانية وهم أمام سؤال الوجود؟ لم أحتمل هذا المشعوذ فأجبته بحدة: "يا أخي أنت هنا لتفتي؟ أسألك إذا كنت شاهدت امرأة، لماذا تحقق من تكون ومن أكون وتمتعض وتستغفر؟ هل كفرت؟ ثم ألا تخاف ربك في هذا الحر جاعلاً من زوجتك في هذا الكيس الأسود خلفك كحمولة زائدة؟ أنا من أسالك، كيف تسمح لنفسك أن تجعلها تركب الدابة بهذا الشكل المؤلم؟ ثم ارحم الدابة من ثقلك الهائل الذي يفوق

وزنها بأضعاف، إذا كنت تعرف الحرام، ألا تشاهد بطنها يكاد يلامس الأرض، سينكسر ظهرها، خاف الله، خاف الله"، ومضيت فصاح بي وانتقى ما يهمّه وما يعزز قناعته من كل ما قلت: "وتفتي حضرتك كيف يركبن الدواب؟"، استخدم فعل يركبن للتعميم، أي ليس فقط زوجته بل زوجات وبنات الآخرين، "للحشمة يا جاهل، المرأة لا ينبغي أن تركب الدواب كما الرجال كي لا تشعر بشيء يا أميّ، لعنة الله عليك". أُصبت بالعدوى وهممت أن ألتقط حجراً أرميه به وأدميه، فصاحت بدورها من خلفه: "ما لك وما لنا يا أخي، أنا راضية وأريد هذا، اذهب في طريقك". لا أدري ماذا حدث، سمعت طلق نار، وزوبعة عصفت من غبار وحصى أصاب بعضها وجهي، ثم سمعت طلق نار آخر، صرخت على أثره الامرأة، التفتُّ رأيته مكوّماً على الأرض وفوقه امرأته بدون غطاء، ظهر كامل جسمها الذي حشرته في بنطال يظهر تفاصيل جسدها وقميص ضيق يفيض منه بعض ثدييها، وبجانبي يقف ذلك الشاب.

"قتلته؟"، وجهت له اتهامي مباشرةً، فقال لي: "كان سيقتلك برصاصة ثانية، ولكن لست أنا" ومدّ يديه الفارغتين وأشار بهما، "بل من هناك جاء الرصاص"، التفتُّ إلى حيث أشار، رأيت سيارة كالتي خُطفت بها قبل أيام تعبر مسرعة وخلفها سحابة غبار.

مشيت، لم ألتفت خلفي، كأنّي قلت في أعماقي: "دع الموتى يدفنون موتاهم"، ثم فكرت أنّ في نفسي مودعة للجريمة، مودعة نائمة، وأن عدوى القتل تصيب البشر كما الطاعون، يا إلهي كيف ينمو الوحش سريعاً في النفس حين تصاب بالعدوى! أنا الذي لم أقوَ على قتل نملة كدت أقتل هذا اللعين الذي أيقظ في داخلي حقداً كنت أجهله، أو أنّي نسيته، هو كرهي للذين يتحدثون باسم الله، وبحرية لا ينالها إنسان سواهم، لعل هذا عائد للرجل الذي كان يزورنا في وادي الدموع، أو أن عقلي لا يحتمل هؤلاء. مشيت، لم أشعر بتردد أو بشيء ينبغي القيام به، أن ندفن الرجل، كما حدث لي مع تلك العصابة التي اختطفتني وضللت كلبي، لتنفيذ مهمة لم تكن متمرسة عليها على ما يبدو، هي مهمة القتل، اختطفوني لأقتل رهينة لديهم كانوا يخفونها في صندوق السيارة، وهذا أمر لم أتوقعه على الإطلاق رغم جولاتي في التفكير بالسبب الذي جعلهم يختطفون رجلاً مثلي لا ينفع لشيء. وحين وضعوا البندقية بين يدي وأمروني بفعل ذلك وأن الله سيدخلني الجنة فيما لو فعلت ذلك لأني أنفذ مشيئتة شعرت بانحلال في مفاصلي وبتنميل عبرني، صرخوا بي: "قل باسم الله، قل واضرب، هياااا"، تحولت أصواتهم إلى ضجيج في رأسي وصرت أرى وجوههم مستطيلة وسوداء، لم أعد أشعر حتى بجسدي، لم أفعل، بالطبع لم أفعل ولم أنفّذ مشيئة أحد، كأنهم بوغتوا بشيء، سمعت صراخهم وجلبة وهدير طائرة، فأطلقوا الرصاص علي وعلى الرهينة، وأحلّل أن عدم إصابتي كان لسبب سقوطي أرضاً جرّاء حالة الإغماء التي أُصبت بها تماماً في تلك اللحظة التي صوّبوا علينا بنادقهم، وظنّوا أنّني قتلت، ولكني لم أُقتل، كأنّ شيئاً يحول دون موتي، وكما رويت سابقاً ظننت حين صحوت من الغيبوبة أنّني أنا القاتل، وأدوات الجرم ماثلة، بندقية في يدي وقتيل بجانبي، القتيل الذي سميته حامد المقدسي، دفنته هناك في الرمل بعد استفاقتي من الغيبوبة وبعد أن لممت شتات وعيي. ستبقى صورته في بالي كالوشم، أما صور زوجته وبناته التي في كيسي كأنّها أمانة فلا أعرف لمن أحملها.

ما حدث الآن ذكّرني بذلك ولكن لم يذكّرني أبداً بمشاعري حيال القتيل الذي ظننته قتيلي، غريبة هي الصدف، والأغرب في هذا العالم هو أن كل هذه السنين التي قضيتها في السجن، هناك خلفي في تلك

الصحراء، لم تغيّر من سلوك الناس الذين التقيتهم، وهم قلّة حتى الآن، كأنهم هم السجناء كانوا والزمن مرّ بغيابهم فلم يضف أو يغيّر شيئاً فيهم.

موسى

كان الشاب يتبعني كظلي، مرة ورائي ومرة جنبي عن يميني ويساري، كنت طوال هذه المتاهة أحدّث نفسي وكنت في نصفها الأول أحدّث كلبي صديقي، ليتني أستطيع العودة إليه، قلت في نفسي، لا بأس ان يكون لي رفيق في ما تبقّى من درب أحدّثه ويحدّثني، على كل حال لأن المهمة أصبحت واضحة أمامي وهي أن ألتحق بتلك الأم لننقذ ابنها الذي صار ابني، نعم صار ابني لرغبة غامضة في روحي، هي حاجة أم وهم أم حماسة أم شهامة أم نخوة أم نتيجة نقص، لا أدري، كل هذه الأشياء وغيرها جعلتني مندفعاً خلف هذه الامرأة التي ذكّرني وجهها بأمي، فيها كثير من أمي، كأنّها هي يوم كنت صغيراً وكانت تغنّي لي، كلُّ ما فيها أمي، منذ لحظة صعودي الشاحنة ناداني وجهها الخمري المتورّد وعيناه الواسعتان والحزينتان في آن، فمها الساكت على حياء وعنقها المائل كانكسار الخاطر، وشعرها الكستنائي الكثير الطول الذي يغطي بعض وجهها، ولبسها الحائر بين البادية والريف والمدينة، خلطة ألوان وتفصيلات تذهلني، ألوان أمي، حتى كأنّي شممت فيها رائحة أمي.

...وسألت الشاب الذي برفقتي، الذي أراد أن يكون رفيقي، سألته: هل تظن أن الإنسان تسيّره الأقدار؟ ما الذي جعلني أصعد تلك الشاحنة تحديداً وأنا لا أريد ذلك وأنت من ساعدني في صعودي وفي النزول؟ أنا كنت لا أريد أن أضمّ مصيري لمصير أحد، كنت سأزاول عرجي نحو بيت كان بيت أهلي يقع حسب تقديري خلف السسلسلة الغربية هناك، كنت عائداً ربما إلى هناك، هكذا أرجح،، كنت أتبع غريزتي وليس عقلي، ثم حين أصل كنت سأفتش عن امرأة أحببتها في بيروت في وادي أبو جميل، وكنت سأذهب إلى تلة سليمان لتفقّد مطارحي، وكنت أتوقع أنّي لن أجد أحداً في جهتَي القلب، في بيت أهلي وفي بيت الحبيبة، لأنني أعلم أن مطحنة الزمان ومطحنة الحروب قد قتلت من قتلت وشتتت من شتتت. وكان حدسي يقول لي إن مساراً آخر سيوصلك إلى غير جهة.

هكذا رأيت أو أنه حدث بالفعل، لا أدري.

والحقيقة كأنّي كنت متيقناً من ذلك وأراه سأروي لك ذلك: رأيت يا صاحبي أنّي وصلت تلة سليمان، بلدتي الثانية بعد وادي الدموع، ضحى يوم أحد ربيعي، جرس كنيسة الحي الغربي "يربِّعه" نديم الحوراني، رأيته بنحوله المفرط يتدلى من حبل الجرس يعلو ويهبط متأرجحاً في الهواء، رأيته ورأيت قلة من المؤمنين المسنين يعبرون الطريق صعوداً نحو الكنيسة فوق التل في غابة البلوط، كنيسة عتيقة حجارتها ملونة، كنا نجلس تحت الشجر الذي يزنّرها في عصاري الصيف، نقرأ في كتب لمصطفى لطفي المنفلوطي ولجبران و**الأيام** لطه حسين. لا أذكر أيّاً من هذه الوجوه التي رأيتها تصعد نحو الكنيسة ما عدا الحاج نقولا يجرّ أخاه الضرير، وهذا ما ذكّرني به، كان الحاج نقولا إسكافيا يصنع أحذية لأهل التلة، وكان قد صنع لي واحداً في بدايات جنون الهوى بنيّاً غامقاً مرصوصاً متيناً، قال لي حينها ممازحاً: "هذا الصبّاط يا عبدو تركته أكبر شوي من إجرك مع ضبان حتى يضاين ويبقى حاملك لكم سني، أنت يتيم ما فيك كل سني تفصّل صبّاط، هو حديد، لو كنت صياد بيهتري الجفت وهو ما بيهتري"، وضحك الحاج نقولا وبانت أسنانه كأسنان طفل. أذكره كشيء نادر تفوح منه رائحة الجلد، كنت حريصاً على تلميعه، مشيت فيه سنوات عمري الأولى في التلة. أذكرالحاج نقولا بمزاحه، كانت دكانه مقهى يجتمع فيها الشباب ويخططون للثورة

على الطريقة البلشفية ويتحدثون عن الرفيق لينين كما لو أنه واحد من أهل البلدة وعن ماركس كأنه قديس. كنت خاماً في تلك البدايات لكنّني معجب بصورة ماركس.

أثقل الزمان حمل الحاج نقولا فانحنى كأنّ هذه الإنحناءة قد فعلها للتو ليدخل باباً واطئاً، هو باب دكانه. شاهدته يجرّ أخاه في الطريق كما كان من زمان ويحدّثه عن والده الذي هاجر إلى كوبا أو وصل إليها خطأً، واشتغل بالـ"كشّة" ولم يعد، تزوج هناك امرأة ثانية، كان أخوه الضرير يسأله: "وهل يحق له الزواج مرتين كالإسلام؟"، كان نقولا قد وجد حلاً لأبيه: "البعد الطويل والغربة تجعل الرب يسامح على هذا الفعل".

كما رأيت بيوتاً عشوائية مرتجلة والكثير من المآذن ليس في صوت مؤذّنيها شجن ولا خشوع كحال قرى السهل العالي، اختفت المئذنة التي كنت أحبها بحجرها الأسود والأصفر تعلو كالشهقة فوق الجامع المملوكي يصعدها المؤذن الذي كان صوته يطرب حتى شجر الحور، حفظت منه بعض السور بالمقدار الذي حفظت فيه مواويل الجدة، لما كان في صوتهما من شجن أظنه هو المؤسس لما صرت عليه.

كنيسة حارة الزيات في المنقلب الآخر ظننتها مهجورة لو لم ألمح في داخلها أبونا إدريس يقيم قدّاس الأحد وحيداً وبضعة من الناس منهم مسلمون مسنّون عزّ عليهم غياب جيرانهم، وحين سألته: "أين الرعية يا أبونا؟" أشار إلى جدار مليء بالصور داخل أطر سوداء. يا إلهي كم دار هذا الرحى يا دنيا على الناس؟ لا أحد هناك يعرفني ولا أعرف أحداً، كأنّها بلدة غير التي نشأت فيها وأحببت، هي تلة سليمان حين رأيتها من بعيد بغاباتها وجبالها، ولكن حين تصل الساحة تجدها حائرة بين أن تكون هي أو مكاناً آخر: الساحة تعجّ بالباعة والفوضى والشحاذين والعربات والنساء المحجبات وأخريات حاسرات بلباس عادي يحملن أجهزة في أياديهن يتكلمن بها، شاهدت مثلها في السيارة التي اختطفتني، وشاهدت صبية يجرون خلف كرة يهتفون باسم لاعب جزائري، شلة من شباب ملتحين يشربون الشاي في مقهى البلدية، شلة أخرى غير ملتحية تتسكّع نزولاً نحو حارة النصارى، باعة ومتسولون تختلط أصواتهم بأغنيات من النوع الذي لم أسمعه سابقاً يوحي أن المغني يتألم في بطنه فيخرج صوته تمغيطاً ورفيعاً. ومن بعض النوافذ يتسرب صوت مقرئ يذكّرني بخميس الأموات حين كانت تُتلى سورة ياسين على المقابر ونركض صغاراً لنحصل على حصة من الكعك وأقراص الكبّة المشوية، فتاة تتشاجر مع ملتحٍ حديث الورع شبيه بالذين اختطفوني في الصحراء، تنصحه أن يتحاشى النظر كي لا يقع في الفتنة.

كنت أعبر الساحة وكانت تتبعني النظرات التي تقع بين الفضول والشفقة، بعض الصبية كانوا يتبعونني بزفة يصفقون ويردّدون:

مجنون التلي / يو يو
حاملي سلي / يو يو
سلة مليانة / يو يو
ملياني قناني / يويو
وقناني زيت / يو يو
رايح عالبيت / يو يو
والبيت بعيد / يويو
بغنّي وبزيد / يو

مجنون التلي... وهكذا زفّوني وشارك حتى بعض الكبار في ذلك لعلّهم وجدوا في هيئتي ما يستدعي هذه الزفة التي فرحت بها في الحقيقة، لم تزعجني ولم أنهر الصبية ليتفرقوا. تركتهم يستنفدون طاقتهم ويملّوا، وهكذا حدث، استنفدوا لعبتهم وملّوا وتناقصوا وتفرقوا، وتابعت عرجي، والحقيقة كنت مستمتعاً

بكلماتهم التي تصلح أهزوجة.

هَمَّ بعض الناس بأن يتصدّقوا علي بالدراهم، ظنّوني شحاذاً، منهم امرأة مسنة ناولتني قطعة ورقية بدوت معها كرجل من أهل الكهف لا أعرف قيمتها وماذا يمكن أن تشتري، قالت لي: "اطلب من الله أن يرد لي ابني من غربته"، ولفضول بي سألتها: "أين هاجر ابنك يا خالة"، قالت لي: "لا أعرف، كان شاباً بعمر هذا الشاب هناك"، وأشارت نحو مقهى يجلس فيه شاب يقرأ في كتاب ضخم، شبيهي يوم كنت بعمره، "تركني وحيدة ومشي، ركضت خلفه أسأله لوين يا أمي؟ لوين تاركني وحدي ورايح؟ ما رد عليي، وقعت أرضاً من حزني، وغاب ومن يوما ما هديت عيني من الدموع، دعيلو يرجع بخير"، قلت لها: "رح يرجع بخير".

لم أسالها أكثر عن التفاصيل، خفت أن تكون هذه العجوز التي أكل العمر ملامحها وعينيها الغائرتين عميقاً أمي. خفت، لأني لم أحتمل أن أجد أمي في هذه الحال، وربما لا أحتمل هذه الحادثة بكاملها، لأن حياتي تدربت على الفقدان وليس على اللقاء، وهي في الأساس ليس فيها من أمي أي شيء، حتى لو أنّ العمر محا ملامحها فقد يبقي على ما يذكّر بما كانت عليه في صباها، أعلم أنّ الزمان يترك مودعة في كل شيء يؤلّفه، هذا كلام فلسفي أحب أن أستعيده في لحظات كهذه يعلو عندي فيها منسوب السأم، على كل حال لم أشعر بشيء نحوها، لم يلفحني ذاك النسيم الذي كان فيه عطر حليبها أو لسع من حنيني أمي، حتى صوتها ليس فيه من صوت أمي شيء، كان جرشاً متعباً وخاوياً.

سلامٌ لأيامك أيتها الغالية. سلام لصوتك الشجي لورد خدك لصبرك لحزنك لحبك...

هي بالتأكيد ليست أمي، فلو كانت أمي لشمتني، لعصرتني كالعنب في يديها حين كانت تعصره للخل، وكنت شممت في ثوبها رائحة العشب وخبز الذرة والحبق والعطرة التي تزرعها في الأحواض وتغليها مع الشاي، لو كانت أمي لانتهى الأمر، لا داعي لكل هذه التحليلات، ولو كانت أمي لسقطت بدون علمي عند قدميها، لو كانت أمي لاخضرّ عمرها كشجر الحور وأزهر بستان الدار المهجور، واخضرّ عمري. هي أم لرجل آخر لا أدري من يكون وأين يكون. تركتها وفعلت ما طلبته مني، أن أتدخل لدى الخالق بدعاء سخي كي يعود ابنها من غربته، ليقينها أنّي من سلالة الأولياء، قد ظنتني كذلك حين كانت جالسة وسمعت التي بجانبها، وهي امرأة تصغرها سناً وعقلاً مع الأسف، لأنها قالت لها: "هذا، وتعني أنا، واحد من أهل الله يمر، اذهبي إليه واطلبي منه الدعاء، لأن الله يستجيب للذي مثله"، فتقدمت نحوي وراحت ترجوني لأتوسط لها عند رب العالمين ليعيد ابنها من غربته، وقبّلت يدي وشبّت نحو جبيني وقبلته. يبدو أن هيئتي في عيون الآخرين متقلبة لكنها ليست أبداً كما أشتهي أن تكون. تكررت هذه الحادثة لأكثر من مرة، كنت أسمع البعض يتوسل لي أن أدعو بالشفاء لقريب له. التقيت برجل يحمل راية سوداء طلب مني أن أساعده في الدعاء لنصرة الإسلام، قلت في نفسي: هي اللوثة المعدية، طاعون نهاية الزمان. كان يكبّر ودخل مسجداً من تلك المساجد المرتجلة، حيث تجمع في ساحته نفر من الذين دمغ جباههم السجود أو هم دمغوه بوشم للإيحاء بالتقوى والورع. دعوني للصلاة فقلت لهم إنني لا أصلي ثم أن الوقت ليس ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً ولا فجراً، فقال حامل الراية: "أستغفر الله، ألست مسلماً؟"، قلت له: وما همك أنت إن كنت مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً؟ هل تواصل نشر الدعوة هنا في تلة سليمان؟"، جفلوا من كلامي وتمعّنوا في وجهي، لست بعيداً عنهم. قال شاب: "إنه يشبه الزهاد، هو واصل، واصل من زمان، ولكن ما رأيك لو تستمع إلى الدرس". شعرت أنّني قادر على فتح معركة مع هذه الزمرة من المهووسين بالدين، ولكني فضلت مزاولة تفقدي للمكان، هذا ما أملته عليّ الأشواق. مشيت وتركت خلفي سحابة من الشكوك،

سمعتهم يقولون: "يبدو أنه عابر سبيل سائح في حب الله"، لم يضرني هذا الوصف لكني لم أسمعه منذ زمن بعيد.
وتابعت إلى البيت الذي كان بيت أهلي، لم أجد بيتاً، وجدت حارة، ليس بين بيوتها بيت أهلي ولا بين أهلها أحد من اهلي، لا أحد هناك ممن كانوا أهل وجيرة وحبايب، ليس من بستان رمان ولا من نبع ولا من ساقية ولا من حور ولا من شجر سميناه شجر الود، حتى بيت مريم صار غير بيت، بقيت منه شجرة الزيتون تتوسط حديقة من العشب والزهر، جميلة ولكنّها ليست هي التي كنا نشاغب تحتها، لا تشبه التي في بالي، بدت لي غير أليفة كأنّها غريبة مثلي وسط سور حجري صغير يحيط بجذعها.
مطرح البيت بقايا بيت فوق القبو الذي ما زال سالماً، نزلت باتجاهه، كان بابه مفتوحاً، ليس فيه شي من الذي كان. هنا كانت أمي تربّي دود القز وهنا مرقد الماشية، لكن الغريب أنه ما زال يحتفظ برائحته الترابية، فيه سرير من صنع ذلك الزمان وأشياء قليلة: خزانة ومقعد وأكياس صغيرة فيها بعض الفاكهة، ليس من صور على الجدران، شعرت أن روحاً هنا تخصني.
مشيت، من الغريب أيتها البلاد: أنا أم هؤلاء الناس الذين ليس في طباعهم ما يشبهني؟ سألت رجلاً يجايلني: "أين صار سكان هذه الحارة القدماء؟"، لم يجبني كأنه استغرب سؤالي، ثم أشار لي نحو مقام إسماعيل على تلة عالية جرداء في الجنوب الشرقي للبلاد تبقى طوال فصول السنة معمّمة بالثلج، فكرت بالولي اسماعيل: لماذا اختار هذه التلة الجرداء لمسكنه؟ من أين جاء؟ هل كان يبحث مثلي عن بلاد ضاعت منه ومات في الصقيع ودفنه راعي الغنم الذي جاوره بعد مماته هناك على تلك القمة العالية حيث لا أحد يمر إلا زائر أو تائه؟ ترى لو مت الآن هل يحملونني إلى جواره لشبهٍ بي في المسعى الغامض وفي الهيئة، ثم ماذا؟ سيشاع الخبر أن رجلاً غريباً من زمرة الهواشل أو المتسكعين المتروكين على باب الله، ربما يصفونني بالمجنون أو من أهل الله، وليٌ حي، أو متسول أو جاسوس، سينعتونني بصفة من هذه الصفات أو الاحتمالات، كما حدث لي بالفعل مع بعض الناس، ثم سيختلفون في الطريقة التي سأدفن بها، سيحتارون في ديني، قد لا يعثرون في جيبي على أي شيء يعرّف بي ومن أكون وأي نبي نبيي، ثم سيظهر من بينهم رجل ينادونه المسكين يدلّهم على المكان الذي يعفيهم من طقوس الدفن هو أن يحفروا لي حفرة قرب مقام إسماعيل ويكتبوا على الشاهد لو أرادو "عابر سبيل"، وهكذا سيفعلون، سيلفّون جسدي بشرشف تتبرع به أم المهاجر التي طلبت مني دعاءً يعجّل في عودته، الوحيدة التي ستبكيني ربما وتحمّلني سلاماً للولي إسماعيل، وستبقى على مدار سنوات عمرها الباقية تزورني وتضع على قبري وردة وتشعل البخور تحت الشاهد وتواصل الدعاء والطلب من الله أن يعيد لها ابنها...
خفت مجدداً أن تكون هذه العجوز أمي.
ورأيت ما رأيت، رأيت ولداً هناك يلهو بسيارته الصغيرة على الطريق التي تربط التلة بقرى الجوار، سألته كما كنت أسأل في سني طفولتي: "ابن من أنت؟"، سألته لا لكي أعرف من هو والده بل لرغبة أن أكرر السؤال الذي طُرح عليّ مراراً حين كنت أمرّ في الساحة قبل ستين سنة. نظر إلي الصبي باستهجان وسألني لماذا أسأله، أُحرجت واعتذرت منه على الفور، لكنّه ركض خلفي وصاح بي: "يا عمو يا عمو بتريد مساعدة؟"، قلت له: "أبحث عن بيت أهلي"، دهش لهذا الجواب، رازني من أسفلي إلى رأسي الهاشل بالبياض مروراً بلحيتي الطويلة. "أهلك؟!"، سأل بتعجب وباستغراب، هل يعقل من هو على هيئتي أن يكون

له أهل وبيت ومصدر؟ أيقنت أن هيئتي في عيون هذا الصبي لا تسمح بهكذا سؤال، رجل معمّر تخطّى التسعين، ومن تخطّى التسعين لا أب له ولا أم. شكرت الصبي وتابعت سيري.

التقيت امرأةً في الأربعينات من عمرها على مفرق حارة أهلي، أو التي كانت حارة أهلي، حيث وقعت أحداث المنام الذي رأيت فيه فرساً بيضاء تائهة وصارت لي وحملتني إلى البعيد البعيد، حين شاهدتني أسرعت ثم راحت تركض وتلتفت صوبي، حاولت أن أخفف من ذعرها لكن صوتي لم يسعفني، لم أفلح في مناداتها لأني لا أعرف ماذا أسمّيها وماذا سأقول لها، استوقفها شاب ودار بينهما كلام من الواضح أنها قالت له شيئاً يخصني لأنها أشارت إلي، فربت على كتفها وضحك ورافقها في الطريق، عرفتها، هي أختي الصغيرة التي حتى لو قلت لها أنا أخوك عبد الجليل سوف لا تعرف ماذا أقول، هي هكذا كبرت وبقي وعيها صغيراً كعمرها يوم غادرت البلاد، عرفتها من حدسي من إحساسي، هي في بالي على هذه الصورة الآن رغم أني لم أرها ولم أعرفها إلا وهي طفلة. عدت إلى الصبي وسألته: "تعرف تلك السيدة؟"، قال لي: "هذه يسمونها الطفلة، لا أعرف اسمها، ليس لها أحد هنا، أهلها ماتوا"، قلت له: "حتى أنا لا أعرف اسمها، تعرف أين تسكن؟"، قال لي: "هنا" وأشار نحو القبو، قلت له: "هل تعيرني ورقة وقلم"، نظر إلى يدي كأنه شك أني أجيد الكتابة، ذهب الصبي وأطلّ مع أمه من على الشرفة، أمُّه في الثلاثينات تبدو مدرّسة أو هكذا قدرت، حييتها وقلت لها: "أنا عابر سبيل أحتاج فقط لورقة بيضاء وقلم"، دخلت وناولتني دفتراً سميكاً وقلمين وقالت: "احتفظ به، لدي الكثير، تأتي مساعدات للتلامذة"، قلت لها: "لم يخطئ حدسي"، ابتسمت وغابت في الداخل مع إبنها. جلست على سور حديقة البيت الذي كان سوراً حجرياً متداعياً، وكتبت رسالة إلى أختي التي لم تكبر:

> أختي الحبيبة، أنت خفت حين شاهدت رجلاً عجوزاً كالشبح قرب البيت، أنت أختي التي لا أعرف اسمها، نسيت أشياء كثيرة منها اسمك، لا تزعلي، عندما تركت البيت كنت صغيرة وكنت أعلم أنك ستبقين صغيرة حتى لو كبرت في الزمن، كلنا نسعى للعودة صغاراً حين نكبر، لنصبح مثلك، ولكن مستحيل هذا إلا في الخيال، الكتّاب يكتبون طفولتهم والرسّامون حين يكبرون يرسمون كما الأطفال، ونلعب أحياناً كالأطفال، هو الحنين إلى فردوسك يجعلنا نكتب ونرسم ونفكّر ونلعب وندفع أثمان العمر الكثير يا أختي، ليتني أعود إلى تلك الطفولة التي أنت وحدك لم تغادريها، ولا تدرين أنّك لم تغادريها، أنا غادرتها كثيراً وبعيداً وعدت لأتفقّد الأهل والمطارح، وجدتك وحدك لكنّك لم تعرفيني ولن تعرفي من أكون.
> أنا أخوك عبد الجليل.

وضعت الرسالة على سريرها في القبو ومشيت صعوداً حيث المدرسة العتيقة، شعرت أن حبلاً يشدّ على عنقي لكن شيئاً آخر يناديني في البعيد فمشيت.

التقيت بكثير من الناس، قال بعضهم: "هذا العجوز يشبه اليهودي، لنقتله"، والبعض رفض الفكرة. شاب ملتحٍ على زنده وشم ثعبان وعظمتين استوقفني وسألني من أكون، استفزني هذا الكائن الآخر فأجبته بسؤال مضاد: "أنت من؟ ومن كلّفك أن تستوقف الناس وتتحرى عن أسمائهم؟"، أجابني: "أنا أمن المنطقة"، قلت له: "أنا رجل استطلاع لغزوة بني جهل، على التلة هناك يرابط الغزاة، سيبدأون السبي خلال دقائق، اذهب وبلّغ، اللهم إني بلّغت"، تمعّن الشاب طويلاً في وجهي يبحث عن شيء في رأسه وليس في ملامحي، ثم لوّحت له بعكازي أن يحيد من دربي وتابعت. أعلم أنه غبي لكنه هو لا يعلم أنه كذلك، وتابعت ورأيت، رأيت بلاداً غير بلادي.

هكذا هي حالي. كأنّ بعضي يسبقني ليتفقد أحوال الطريق قبل الوصل، وهكذا وجدتني كما في زمان طفولتي، أمشي وأستسلم لضياعي في الغابة وأنا أصعد القمة العالية لمعاينة النهايات والغروب الذي

طالما ترك في نفسي أوجاعاً لم أشفَ منها، لكم كنت أتوحّد بصفاء عندما أعاين السهل الممتد من السفح حتى البحر، لكم كنت أنتشي بوحدتي حين أقصد خرب الرعاة وأُصاب بهسيس الحمّى التي يحدثها صوت راعية الغنم سعاد. مشيت على غير ما مشيت في أي يوم مضى حين لم أجد البيت، مشيت لا أرغب في أي كشف، مشيت لأمشي فقط ووجدت في ذلك هدفاً نبيلاً وخلاّقاً، هدفاً محايداً في عدميته وغموضه، مشيت ليلة كاملة، وحين لاح الفجر خلفي ورديّاً، وهو يعالج خيوط السحب وبقايا الليل على تلك الحافة الكونية حيث كنت أصرخ من هناك في الأودية السحيقة والظليلة، غنيت مثلما غنيت قبل خمسين سنة وتردد صدى صوتي في الوديان.

قبالتي تلة إسماعيل حيث أشار لي الغريب حين سألته عن أهلي، لم يطرأ على التلة أي تبدل، هي غير صالحة لسكن الأحياء لشدّة ارتفاعها، لا أعرف لماذا اختار الولي إسماعيل سكنه الأبدي هناك وكيف تدبّر أمر الريح والصقيع في تلك العزلة الإلهية، شيء ما كالجمر لذعني في القلب... هل أشار إلى المكان الذي سيكون بيتي الأبدي؟؟

هكذا رأيت، أو هكذا تخيّلت، أو أنّني وصلت بالفعل إلى بلدتي تلة سليمان ولم أعثر على أحد من أهلي سوى على أختي الطفلة التي لم تكبر، تركت لها رسالة لا أدري لمن ستحملها كي يقرأها لها، وسوف يعرف هو وليس هي أنّني عبرت هناك مزاولاً عرجي الطويل؟

فعلاً لا أعلم.

ما أعلمه الآن أني زاولت مسعاي في الدرب هذه التي اخترت، الشاب قربي كنسمة، أنعشني حضوره، سألته:

– ما اسمك أيها الرفيق؟

– موسى.

– موسى، من سمّاك موسى؟

– لا أدري.

– كيف لا تدري؟ من اختار اسمك، أمك أم أبوك أم جدتك أم جدك؟

– لا أدري، قالوا إن جدي اسمه موسى، أمي كانت تناديني شام، لكن اسم موسى طغى.

– أين والدك؟

– والدي؟ لا أدري كنت صغيراً عندما غادر البيت ولم يعد، أهل الحارة التي عشت فيها كانوا ينادونني شام، في الدير صاروا ينادونني موسى، وهكذا صرت موسى، أحب الاسمين شام وموسى.

– درست؟

– نعم، درست الفلسفة والرياضيات في الدير، تعلمت في الدير.

– قرأت الأديان؟

– نعم.

– كلّها؟

– تقريباً.

– ماذا وجدت؟

– لا شيء، الكثير ولا شيء، هكذا كان يقول أستاذي الذي علّمني الفلسفة، أستاذي يشبهك تماماً كأنّه

أنت، أظنّك هو، لأنه قبل حوالي عشر سنوات ترك كل شيء ومشى، أعطاني بيته، قال لي: هذا البيت لك بكل ما فيه، وأعطاني بعض ما ادّخره من أموال، حمل عكّازه وحقيبة فيها بعض الحاجات القليلة ومشى، قال لي إنه سيمشي دون هدف أو جهة، ألست أنت هو؟

– ولأجل ذلك تبعتني؟ ظننتني أستاذك، وماذا تريد بعد من أستاذ تخلّى عن كلِّ شيء، عاف كلَّ شيء ومشى؟ لعلّه في هذا الفعل قال آخر ما عنده أو صفوة القول، الكثير ولا شيء، هكذا قلت وهكذا قال وهكذا أردّد... الكثير ولا شيء.

"لا شيء يحدث"، هكذا بدأ بيكت **في انتظار غودو**، أحب هذا الكاتب الذي يقف على حافة العدم وينظر إلى العالم، أشعر كأنه هو من كتب ما يحدث معي وما أعيشه وأروي، فمنذ خروجي من سجني كأن أحداً كتب رواية أعيشها أو أمثلها، قد يكون هو، بيكت، أو أحد آخر سواه ينظر بهذه الدقة إلى عمق غائر في النفس، وهذا لا يستطيعه إلا المصابون بالرهافة القصوى، رواية كأنّ الخيال فيها ولودٌ، خيالٌ يلد خيالاً يلد خيالاً. من رسم لي هذا المصير، هذه الدرب، من وضع لي هذه الفخاخ والأشراك، من جعلني غير قابل للموت وأنا في الموت عينه؟؟ من؟؟ عجيب أمر الزمان.

الكثير ولا شيء.

– أنت أستاذي؟ عاد وسألني.

أحببت أن أعزز شكوكه، أحببت أن ألعب، اللعب على طرف المأساة يخفف من أوجاعها، فقلت له: "ربما"، هذه الربما هائلة، تحمل النعم واللا، بدون أي حرج أو مسؤولية، محايدة ومثيرة للشك رغم صغرها، كلمة من ثلاثة أحرف "ربما" تجعل العقل ينشطر بين الشك واليقين. ثم أدركت أن هذه ليست طبيعتي، لماذا ألعب هذه اللعبة؟ وشعرت في هذا الحوار مع الشاب كأنّي قرأته منذ زمن بعيد في رواية أو أنّ شيئاً مشابهاً حدث معي مرة أو مع أحد غيري، ثم تنبّهت إلى أنني، فيما لو ذهبت في لعبتي إلى الآخر، سأضيع عن هدفي في تتبع أثر شبيهة أمي، التي نسيت ابنها في المهد لحظة المذبحة وحملت عوضاً عنه دمية ظنّتها ابنها، رضيعها، وجعلتني حماستي أو شيء آخر أعمق في النفس أن أتماهى أباً للطفل، وكأنّي صدّقت ذلك إلى حد أني كنت سأقتل رجلاً بحجر لو لم يقتله غيري ويعفيني مما لا أستطيع حمله: القتل، يا إلهي وقع هذه الكلمة يفجّ عقلي! على كل حال لم أدرِ لماذا لم أسأل من هو القاتل ولماذا قُتل هذا الرجل الذي كان سيقتلني!! ولم أسأل الشاب، حتى هو لم يعر ما حدث أي اهتمام، وكأنّ ما جرى شيء عادي ولا بدّ من حدوثه. هي ليست بلادة، أو أنّ محواً أصاب المشاعر تجاه القتل أو الموت، شيء ثالث، هو أنّ صدفة هائلة كانت أكبر من أن تتيح لنا ردة الفعل، حتى الامرأة التي كانت خلفه على البغل، شاهدتها تركب البغل كفارس وأطلقت له العنان وبقي الرجل مكوّماً على الدرب كأنّه شيء من الدرب، خرقة أو جذع يابس... ثم أن الحادثة في هذا الهول تبدو صغيرة وعابرة.

تداعت هذه المشاهد في رأسي وجعلتني مرة أخرى على البرزخ بين الشك واليقين تجاه هذا المسار الذي أخذته حياتي.

– هل تعرف أيها الشاب يا موسى؟

– نعم.

– كثيراً ما تراودني الشكوك حيال ما أعيشه ويحدث معي، حيث أظنّ أنّ كلّ ما أنا فيه حلم راودني وأرويه، أو أنّي منام في غفوة أحدٍ ما من هذا الكون. فعلاً كثيراً ما أتفقد وجودي فيزيائياً وأعضّ يدي لأرى

إذا كنت أتألمّ، ثم أغني أو أنادي عليَّ، تخيّل، أنادي: يااا عبد الجليل، وأسمع ندائي. مرة فعلت ذلك بعد أن دفنت ذلك القتيل حامد المقدسي وتابعت سعيي لأتأكد من حضوري وأنّ ما جرى معي هو حقيقة وليس مناماً، ناديت في الليل هناك: يااا عبد الجليل، سمعت ندائي، سمعت نفسي تنادي عليّ فسررت وكأنّ اللعبة راقت لي فكررت لأكثر من مرة: يا اا عبد الحليل، وصرت أنوّع في صوتي، أقسّم على النداء وأغنّي اسمي، فجأةً سمعت صوتاً يجيبني، صوتاً ليس بعيداً عني: نعم نعم نعاااااام، لماذا تصرخ هكذا كالمجنون وأنا معك ألازمك منذ خروجك من السجن؟ ما بك في كل مرة تناديني؟ ماذا تريد مني؟ لقد سئمت جنونك وهلوساتك، يااااااااا عبدال... إخرس إخرس... آنذاك جمدت وجمد الدم في عروقي، لم أتجرّأ أن أنادي على نفسي مجدداً كي لا أثير غضبه، نظرت حولي، لا أحد هناك سواي، يا إلهي! هل هو القتيل يتبعني؟ هل يمكن أن يكون مثلي غائباً عن الوعي ونهض من تحت الرمل؟ لزمت الصمت وتسمّرت في مكاني، جفّ ريقي وشعرت بتنميلٍ يسري في رأسي، بقيت واقفاً لوقت، موجة قشعريرة عبرتني، قلت في سري: ربما هناك أحد ما في هذا الحطام الذي يحيط بي، أحد ما زال حياً، أو أن أحداً يتفقد هذا الركام المعدني المتبقي من قوافل منهزمة في الحروب التي طحنت البلاد، أظنّك تعلم أنّ الصحراء التي قطعتها من سجني حتى هنا بعضها كان غابة من حطام آليات عسكرية وخوذ جنود وعظام وجماجم. ما رأيته كفيل أن يذهب بعقلي ولكني تمسحت لهول الأيام، المهم تجرّأت وناديت عليّ مجدداً بحيث لم يكن خوفي بالمقدار الذي يجعلني في العجز ويمنعني من فعل شيء، موجة وعبرت وتمالكت وناديت: يااا عبد الجليل، لا أحد: يااا عبد الجليل الغزال... يااا، لا أحد هناك سواي، أنا والليل وعصاي وكيسي، قلت: ربما هذه واحدة من تهيؤاتي، أو أنّ لا وعيي جاوب وعيي، ثمّ من هو هذا التائه الآخر الذي يحمل اسمي؟ ما رأيك يا موسى؟

– نعم، هي النفس تتقابل في بعض الحالات وتصيب الناس الذين جرحوا في أرواحهم، هكذا كان يقول أستاذي.

ظننت موسى يسايرني، يجد مبرراً وتفسيراً لحالتي كي لا يحرجني ويقول لي هذه عوارض جنون أو انفصام أو ما شابه، ولكن من يقطع شوطاً في هذه الحالات لا يعرف ما حدث له أو يحلّل ما يحدث له. أجبت: "ربما ما قلته صحيح. نعم، الكثير ولا شيء، نعم، هو العالم كثيٌر ولا شيء"، وأضفت، كررت تلك الجملة التي قالها أستاذه، "ما اسمه استاذك؟".

– كنت أناديه معلمي، قد أجعلك مرة أخرى في الالتباس فيما لو قلت لك ما اسمه.

– لماذا تضعني في الالتباس؟ ما اسمه؟

– شبيه اسمك، عبد الجليل الغزال!!

كأن شيئاً سمّر قدمي في الأرض، لا بسب التباس أو لحالة عبرتني بل لسؤال لماذا يستعير هذا الشاب اسمي لأستاذه؟ وهل فعلاً هو هذا الشاب الذي عرّف بنفسه أم أنه ارتجل تعريفاً عابراً؟ التفتُّ نحوه، كان على يميني، سألته: هل تعرفني سابقاً؟

– لا.

– هل أستاذك يحمل نفس الاسم حقاً؟

– نعم.

– هل هو موجود فعلاً أم أنك تتخيل ذلك؟

– موجود وله مؤلفات كتبها خلال سجنه هُرّبت ونُشرت في غيابه!
– هل كان سجيناً؟
– نعم، سُجن لعشرين عاماً والحكم "كان متآمر على أهداف الثورة الاشتراكية"، وكتب على ورق السجائر سبع مخطوطات واحدة من هذه المخطوطات **حوار مع الحلاج**. أحفظ الكثير من شعره وأقواله.

ثم قال شعراً من تلك القصائد التي تخصني، شعري!! شيء لا يصدق، هذه الكلمات كلماتي.

رأيت ظلَّ تابوت في الدرب
يمشي
يتكىء على عكاز
ظننته نعشي.

الكلمات كلماتي، عجيب أمرُ الزمان، نظرت في هيئتي، استجمعت طاقاتي، تمالكت نفسي كي لا تعاودني تلك الحالة وأصاب بالجنون، هل أنا أكثر من أنا، وهل أنا أنا؟ هل كلُّ ما أنا فيه وهم والحقيقة في مكان آخر؟ وهل السجين الذي كنت هو غيري الآن؟ يستحيل ذلك، أنا أعرف كل حياتي وأحفظها كإسمي، ربما شبيه لي ويحمل إسمي هو الآخر الذي يتحدث عنه، هناك مئاتُ الآلاف من عبد الجليل، فور ولادتهم يجعلهم آباؤهم عبيداً لله في التسمية قبل الفعل، ربما، هذه الربما هي خلاصي أيضاً كي لا أكون حاسماً في شيء، حتى في كل ما عشته وشاهدته منذ ولدت في وادي الدموع ومشيت مع أهلي في الشتات. قد تكون أمي من نسج خيال، وأبي ومريم التي كانت أول امرأة جعلتني أكتشف قارة جسدي ونفسي، وهدى التي كانت الحضن الذي "لملم" الغريب الذي كنت من تبعثره، وحين أبصرت هي أبصرتُ في عينيها كل أوجاع النساء في بلادي، قد يكون حتى سجني هو حكاية سجين آخر، دع الأمور هكذا غير يقينية وغير أكيدة وقابلة للتأويل والشك والنفي والقبول والتصديق، لا شيء يزيد ولا شيء ينقص. الكثير ولا شيء... هي الحياة.

لا مانع فيما لو كنت عبد الجليل الأول الذي تعرف قصته أنت الآخر، ولا مانع لو كنت الثاني هذا الذي صار برفقة موسى تابعي أو مريدي، لا بأس لو ظنني معلمه كما يحدث للمتصوفة وأنا لست ببعيد عن هذه التجربة الروحية، لقد شففت في السجن حتى صرت أرى ملامحي في الجدار كأنّه مرآتي وأرى من خلال الجدار الصحراء التي سأقطعها بعد حين وحدي بحمل قليل من الماء والتمر والخبز اليابس لأصل إلى هذه البقاع.

نعم، كنت أشاهد نفسي في مستقبل أيامي ويرتجّ بدني من رؤاي، كنت أشاهد مصيري، وتتفرج نفسي على نفسي في أحوالها المتبدِّلة، مرة أضحك ومرة أبكي ومرة أراود الموت فيفرُّ مني، لا مانع أن أكون الذي تشاء أنت، أيها البعيد القريب، لكنّني أنا، أنا عبد الجليل الذي يكره اسمه للخضوع الذي يحمله معناه، وأنا كرهي للخضوع جعلني ذلك السجين الذي غارت جروحه حتى روحه وبقي يقاوم بما تبقّى فيه كي لا تموت فيه تلك الكرامة.

وتراني أرى موتي وأهرب من التفسير.

الآن هنا في شتات آخر كأنَّ وادي الدموع مسقط رأسي تتكرر أمامي، رأيتها بعين الصبي الذي كنته قبل سنين تقارب الستين، يوم حملني والدي على ظهره وغنّت جدتي للبيت الذي هجرناه ووجدتني أعود لأمرّ به ثانيةً على حافة العمر، بعد خروجي من السجن لأجد خرباً داشرة بيوتاً بدون سقف ولا جدران ومقبرة

بدون أسماء، وجذوع نخيل بدون نخيل، ونهراً بدون ماء، وجبلاً بدون أعياد ولا غمام، حتى الطير هجره والغيم، وكلّ ما شاهدته يتكرر الآن، الآن هنا كأنّ الحريق الذي بدأ في أول عمري ما زال يلتهم هذه البلاد، كلّما خمد لينطفئ يأتي نيرون آخر لإشعاله، ولودة بلادي للطغاة، أما قافلة الشتات التي مشيت فيها مع أهلي فيبدو أنّني عدت لألتحق بها من جديد. كأن آخري يعود لأولي، هناك كنت في السابعة والآن هنا أطلّ على السبعين من وهدات ستيناتي، أما الفرق فهو أنّي اخترت من شتاتي الثاني ما أريد. اخترت أن أضمّ مصيري بشكل حاسم لهذه الامرأة المنكوبة التي نست ابنها في البيت، هي لم تنسَ، هي أخطأت بينه وبين الدمية، وصار برفقتي موسى، هو أيضاً ضمّ مصيره لمصيري.

هناك شيء في الكون يجمع ويشتت.

خفّت القوافل وبدأ الليل يقترب، شبيهة أمي ليست بعيدة، هي بعد لحظات ستنحدر في الطريق، والطريق من أوله على هذا النحو ينحدر ويصعد مع طبيعة الأرض المكونة من تلال صغيرة مترامية إلى ما لا نهاية على طول هذا المدى المترجرج أمامي كأنه يسعى دون ملل نحو الغموض...

– يا موسى.

– نعم.

– خبّرني عنك، ما الذي جمعني بك؟

– كان يقول أستاذي: الصدف ألّفت كوناً لا نعرف فيه من نكون. وماركس يقول: الصدف تحدثها الضرورة.

– أنا كنت في السجن، أنت أين كنت؟

– كنت في بيت أستاذي، هناك في جبل قرب الدير نواحي الشام.

– نعم، وكيف صرت هنا؟

– مثلك، وجدت نفسي في هذا النزوح.

– وأين كنت قبل ذلك؟

– كنت في بيت أستاذي قبل أن يحرقوا البلدة، كان من الصعب أن أبقى لأنهم كانوا سيقتلونني، لأنهم لم يتركوا شيئاً يتحرك إلا وقتلوه.

– كنت وحدك؟

– كنّا أنا وفرسي الجريحة.

– فرسك!

– تظنني أمزح، نعم فرسي.

ذات يوم، تماماً أواخر الفجر، سمعت صهيلاً تحت الشرفة في بيت أستاذي، الذي سكنته بعد غيابه، نهضت من فراشي، شاهدتها من النافذة تحت البيت في الحديقة، فرس بيضاء، واقفة على مدخل البيت، لم أصدّق، ماذا تفعل هذه الفرس هنا، غمرني شعور ما بين السعادة والتوجس ودفعني فضولي لأنزل نحوها لألمس عن قرب ما شاهدت، فعلت، نزلت درجات البيت وعلى مهل اقتربت نحوها، صرت أكلّمها كما العاشق الذي يهمس للحبيبة كي لا تجفل، بياضها يفرح القلب لكن عينها دامعة، كان الفجر ورديا وقلبي بستان كرز، هكذا شعرت، اقتربت منها، مسحت على خدها، حككت لها تحت عنقها، شعرت بسائل ساخن على يدي، كان دماً، لا أدري ماذا أفعل، كانت تنزف كثيراً، خلعت قميصي وسكّرت جرحها

ثم مزّقت مزقاً من قميصي الداخلي وسوّيت منه رباطاً ربطته على الجرح، وضعت خدي على خدها وقلت لها: لا تخافي، سوف تشفين ويلتئم الجرح، صعدت إلى البيت، كانت هناك علبة في الحمام تحتوي على ضمادات ومطهّر وشاش متروكة من زمن أستاذي، حملت العلبة كاملة وحملت شرشفاً أبيض ومقصاً، نظفت الجرح وعقّمته ورششت عليه البودرة ثم ضمدته وأحكمت رباطاً من تحت قائمتيها، لا تخافي، كانت تتألم وتصدر همهمة، هو أنينها، موجوعة يا وش الخير؟ سمعت فارساً يقول لفرسه "وش الخير" فسرقت العبارة، أحببتها. "يا وش الخير"، صرت أمسّد غرّتها، هناك مشط في العلبة، لم يسلك في الغرة، رميته أرضاً وصرت أمشطها بأصابعي، مسدت ظهرها ووضعت خدي على خدها، قبّلت عينيها فمالت على كتفي برأسها. بانت الشمس، ماذا تراني أفعل بها، هناك قبو تحت البيت كان يستخدمه أستاذي للنبيذ، أتيت بمفتاحه وفتحته وأدخلتها، حملت لها دلواً من الماء، شربت كثيراً، عطشى كانت. من أين أتيت يا وش الخير؟ من جرحك؟ من حاول قتلك؟ من تجرأ عليك وأنت بكلِّ هذا الجمال والعز؟ كان في الدير بعض الماشية وكان هناك علف من البرسيم وحبوب، حملت لها مؤونة وصرت أهتم بها، وأكتب ما أوصاني به أستاذي، هو أن أؤرّخ لكل ما هو مفصلي في حياتنا، وكنت بدأت بهذه الحكاية عن الفرس باعتبارها أشارت إلى تحول في حياتي.

بدا لي، حين كان موسى يحكي عن تلك الفرس، أنّني أتابع المنام الذي رأيت أو أنّ ما يرويه هو منامي الذي رأيت فيه فرساً بيضاء حائرة على مفرق بيت أهلي، وكنت صغيراً، وشربت من النبع فغزر ماؤه وفاح منه عطر الورد، باركها أهل بلدتي ورفعوا الأذان من أجلها ودقّ نديم جرس الدير، ثم حين سميتها مستبدلاً حرفاً من اسمها، فرح، لتصبح السعد حملتني نحو البعيد. يا إلهي! كأنّها خرجت من المنام إلى الحقيقة، فرس بيضاء عبرت في مناماتي حملتني وأوصلتني إلى هذه الحقيقة.

كأنّي لا أصدق يا موسى ما يحدث، أخرجت الدفتر من كيسي وسألت موسى: "هل هذا دفترك يا موسى؟"، قال لي: "لا، دفتري معي" وأشار إلى مزوده الجلدي، "ولكني قرأت ما تقوله هنا، اسمع ماذا قرأت فيه أيضاً، كأنه المنام الثاني الذي رأيته في غفوتي فجر يوم أمس. هذا اليوم يقول صاحب المذكرات إن سجيناً أحرق نفسه في باحة السجن وامتد للهب وأحرق السجن كاملاً، ففرّ الحرس وتركوا السجناء خلف الأبواب الموصدة لكن بعض الحرس والجنود عادوا وفتحوا الأبواب للسجناء، نجا الكثير ومات الكثير، سمعت بذلك؟".

– نعم سمعت ودوّنت ذلك، هل أنت واحد من الذين نجوا؟

– لا، أنا الوحيد الذي نجا من سجن أخر. سأخبرك عني فيما بعد.

– نعم هناك كثر أحرقوا أنفسهم في مصر والسودان والشام لكن الرجل الذي كتبت عنه هو بائع الكرز، وجدت أن قصته تستحق أن تدوَّن، سمعت عنه؟

– لا، لم أُخبَر بذلك، وكيف لي أن أعرف يا موسى وأنا كنت أعيش خارج الحياة.

– هو بائع متجول يملك عربة يضع عليها بضاعته، يجول فيها يدفعها في شوارع بلدته، يقف مرة هنا ومرة هناك يتبع حدسه في العيش ويترك قلبه هناك حيث تقف على الشرفة في الحي، ياسمينة تدلي سلة تحمل ورقة كتبت عليها "أحبك وأحب الكرز".

ذات صباح استوقفه رجل ليشتري منه بعض الفاكهة أمام مقر الحاكم، تقدمت منه شرطية من الحرس لتمنعه من التوقف أمام المقر، كانت تريد أن تطبّق القانون وبالتالي القانون يمنعه من الوقوف حيث يشاء ليبيع، هي استنسبت أن تطبّق القانون صبيحة ذلك اليوم ولم تكن تدري ولم يكن في سابق علمها أن فعلها

سيؤدي إلى حريق هائل يبدأ من هناك ليصل إلى هنا، تصوّر كيف أنّ التاريخ يبدأ من صدفة، والصدفة قد تكون تجليّاً من تجليات الضرورة، كيف يبدأ من حادثة صغيرة تكاد تضحك في بعض تفاصيلها وتبدو مهزلة. المهم، طلبت منه أن يغادر من أمام مقر الحاكم للحفاظ على هيبة المكان، رفض البائع، أصرّت على طرده، أصرّ على البقاء، صرخت بوجهه: ممنوع هنا، أجابها بإصرار: سأقف هنا...

وهكذا تدحرجت اللغة إلى الهوة حسب تعبير معلمي حين كان يصف المشادات بين العامة، كان يقول حين سماعه شتيمة ما: تدحرجت اللغة إلى الهوة إلى القاع، وهذا يعني إعادتها إلى موقعها الطبيعي سيصبح أمراً صعباً. شتمها وشتمته، حقّرها وحقّرته، ثم أخذت مكايله التي يزن بها الفاكهة ومشت، لا أدري إذا مشت لكني أتخيل أنها مشت، أخذت المكاييل كي تجرّده من وسيلة عيشه، ينبغي أن تفعل ذلك بوعي أو بدونه لتردّ الاعتبار لهيبتها ولتؤكّد سلطتها، على كل حال هذا يعني بالنسبة إليه أنه حتى لو بقي فإنه لا يستطيع البيع، كيف يزن للناس؟ بماذا يزن العنب والتفاح والكرز؟ بماذا يزن ذلك لو جاءته للتو سيدة واختارت كرزا؟ والمكاييل يا موسى، كما كان يقول أستاذي، هي أساس في كل شيء، هي التي تؤكد الحق، هي التي نزن بها حتى الكلام، للكلام وزن يا موسى، مثلاً لو قال قائد في معركة: أشعل هذه المدينة العدوة ارمها واحرقها، هذا الكلام الآمر يزن ألاف الأطنان من القذائف التي ستحوّل المدينة العدوة إلى حطام، أليس كذلك؟ كنت أجيبه: نعم يا أستاذ، ويضيف: نعم يا موسى، اللغة خفيفة كالهواء وثقيلة كالرصاص لها عطر الوردة نفسدها بالدناءات. المهم، صرخ محمد ببنت الأمن كما قيل وليس كما أقول: يا شرطية يا بنت بماذا تريدنني أن أزن بضاعتي، قولي لي؟ بنهودك؟ وأشار إلى نهديها المشرئبين، هكذا قيل والله أعلم، جنّت الشرطية، لم تتوقع أن تسمع هذا الكلام من بائع معتدٍ على النظام وصار بكلامه هذا معتدياً على كرامتها شخصياً، فرمته بالمكاييل ثم تقدّمت منه وصفعته على خده، وهنا وقعت الواقعة، بالطبع لم يتجرأ البائع أن يردّ كرامته بصفعة، ليس من شيم الرجال أن تضرب امرأة، هذه مبادئ رضعها مع الحليب، هل يضرب أنثى؟ من العيب أن نضرب بنات الناس، ولكن أن تصفع امرأة رجلاً في أعراف تلك الناحية من البلاد فيه إهانة مضاعفة للرجولة، لم يجد محمد مخرجاً لتصريف هذه الإهانة فذهب واشتكى لحاكم المدينة، أراد بعفويته وبكرامته المهانة أن يبقى في القانون الذي أرادت أن تطبّقه الشرطية ذلك الصباح، لكنّ الحاكم استخفّ بالموضوع، لم يعطه قيمته الحقيقية ولم يلحظ الجرح الغائر في نفس الرجل، ويروى أنّه طرده، وهذه إهانة مضافة أشدُّ من الأولى، كيف يثأر محمد لكرامته، فكّر أن يقتل هذه التي سببت له هذا الألم، أن يجرّدها من سلاحها ويطلق عليها النار، أن يعرّيها من لباسها العسكري لعلها تعود أنثى وتعتذر له. ضاقت المنافذ أمامه، لم يعثر على مخرج ليعيد لنفسه ما خسرته، وهو كبير لا قيمة للنفس بدونه، ففكّر بالنار، النار وحدها تطهّر، تعيد الاعتبار، لأنها تحيل البدن المهان إلى رماد، وهذا يعفي النفس من الألم وإلى الأبد.

ومن أسماء النار العافية.

نزل محمد درج الحاكم جارّاً خيبته وجرحه، ذهب إلى محطة الوقود، قايض الوقود بالفاكهة، حملها معه وأعطاها لصبي المحطة، وهي تشكيلة من حبات الكرز والخوخ الأحمر والأبيض والتفاح الأحمر والدراق، مقابل خمس ليترات من البنزين، قال للصبي: "لم أستفتح بعد، لم أبع شيئاً، ليس لدي نقود وأحتاج لخمس ليترات من البنزين، تقبّل ثمنها بعض الفاكهة". قال الولد لمحمد: "ربما لم يقبل معلمي"، أجابه: "قل له إنَّ بائع الكرز دفع ثمن البنزين فاكهة، هو يعرفني". وافق الصبي وملأ له غالوناً سعته خمس ليترات، حمل

البنزين ومشى، شعر أنه سيبرأ من هذا الوجع الذي ينهشه، شمّ ذلك في تلك الرائحة التي تفوح نفّاذة، رائحة البنزين هي أكثر من رائحة، فيها صوت النار ولون اللهب وطعم الرماد. لم يكن قصر الحاكم بعيداً لكنه عاد إليه بسرعة كأنه على موعد مصيري وتأخر، صار يجري ممسكاً بيده نهاية اللعبة قابضاً عليها بقوة كي لا تفلت من يده، وصل حيث ترك العربة، كانت مثل كائن حزين ينتظر أمام قصر الحاكم. كان الحاكم أمام المرآة يشعل سيجاره الكوبي، شاهد في المرآة رجلاً لا يشبهه، بدا لنفسه رجلاً آخر، ليست فيه ملامح الرجل الذي تخافه الناس وتهابه، بدا بدون ملامح وجه بدون معنى بدون تاريخ. وصل محمد، وقف أمام القصر كحرس، أنشد نشيد البلاد، أراق السائل على رأسه وبدنه، تذكر أمه والبيت والحي ووجوه زبائنه وفتاة يحبها تنتظره كل صباح على شرفة البيت تدلي سلة بالحبل فيها رسالة فيضع في السلة بعض الكرز والتفاح والكلام، تذكّر وجهها، فكّر أن يذهب ليودعها ليقول لها أحبك، قبل أن يشعل عود ثقاب ويقرّبه من جسده، لكن الرائحة سلبته إرادة المشي والعودة، لا عودة بعد الآن، أشعل عود الثقاب فمشت النار من أطراف أصابعه وانتشرت في كامل الجسد، جعلته يدور بسرعة، كمروحة، يدور يدور يدور وتمتد النار، وكلما زاد في سرعة الدوران امتدت النار وأشعلت البلاد.

احترق الرجل وامتد اللهب في جهات الأرض.

سكت موسى فأضفت:

– إلهي، إذا كان في سابق علمك أن الجحيم يوجد فوسّع خلقي فيه حتى لا يسع معي أحداً غيري، هكذا طلب البسطامي من ربه في لحظة الوجد. ما ترويه يا موسى رأيت مثله في الرؤيا، لذلك تراني أقع في الالتباس، نفسي تلتبس على نفسي، كأنّ عمري يقع بين الحقيقة والمنام، بين الواقع والخيال، أتخيل الآن أننا شخصيتان في رواية كتبها ذلك النمساوي ستيفان تزفايج، رواية ننتحر في نهايتها مثل انتحاره الحقيقي حين كانت تطارده عصابات النازية، انتحر مع زوجته في البرازيل لأنه لم يعد يحتمل عالماً صانعاً للجريمة ومنظراً لها، من يحتمل هذا الذي نحن فيه خيالاً كان أم حقيقة، وأنا أقرأ في دفترك كأنّي أقرأ فصلاً أخيراً من حياتي يا موسى.

اكتب يا بني، ما تكتبه هو الكتاب.

لم يجبني موسى، رأيته يبكي، لم أخرب عليه وجده بل سكتُّ وخففت خطوتي كي يخفّ لهاثي، تركته يبكي حتى خرجت من أعماقه دفعة كافية من الحسرات، أنا أعلم لماذا بكى موسى، لذلك لم أسأله "لماذا تبكي يا موسى؟" بل سألته: "أين وضعت ما كنت تكتبه؟"، أجاب وهو يمسح دموعه براحة كفه: "معي هنا في هذه الحقيبة، كانت حقيبة أستاذي، جميلة تتسع لأشياء كثيرة وحملها هين".

"والكلام الذي فيها لا يتعبك؟"، ولوّحت له، "هذا دفترك يا موسى، الدفتر الذي وجدته في ساحة المعركة". بحث موسى بسرعة في حقيبته، لم يجد شيئاً، ضرب بكفه على جبينه وبلهفة تناوله من يدي، فلفشه، شمّه، وضحك، جميل وجهه وهو يضحك، قال: "كنت سأجنّ لو ضاع مني، هذا كل ما بقي لي من البيت والأهل".

– لم أقرأ يا موسى أنك التقيت بغريب يشبه معلمك في يوم النزوح في دفترك هذا!

– سأدون ذلك عندما ينتهي هذا الفصل. ابتسم موسى وقال: لكنك لو قرأت كل شيء لعثرت على ملاحظات سريعة سأعود إليها في النهاية، أولها حادثة لقائي بك، ملاحظة كتبتها على عجل...

– ماذا ستقول عني؟ ستقول كنا في شاحنة تحملنا نحو المجهول مجموعة من الناجين من مذبحة الحزب

الحاكم، التقينا برجل يقف على عمره كراية منكسة مهلهلة نخرها الوقت، رجل نحيل تكاد لا تراه إذا لم يتكلم، كأنّ الموت لم يلمحه لشدة نحوله، يصح فيه بيت المتنبي "كفى بجسمي نحولاً أنّني رجل/ لولا مخاطبتي إياك لم ترني"، رجل معطوب الساق يحمل كيساً وعكازاً كان تائهاً في الصحراء، هو الناجي الوحيد من مذبحة السجن الصحراوي، وحين وصل إلى البلاد كان توأم الحزب يفتك بمن تبقى من أهله، ماذا ستقول يا موسى؟ حزب بغداد شرّدني من وادي الدموع وحزب دمشق شرّدني من تلة سليمان ثم خطفني في بيروت بعد سنين وبادلني على الحدود مع بغداد بسجناء آخرين كالماشية التي تقايض بماشية، لأمضي عمري في السجن بتهمة التآمر على أهداف الثورة، حزبان يطارداننني كذئبين يتناتشان فريسة لا تشبع الطير، ماذا ستكتب يا موسى؟

ماذا يكتب الكتّاب عن هذا الزمان؟ اكتب يا موسى ليس كما يكتب الكتّاب بل كما ترى عينك، الكتّاب يهربون في الكلام، يختبئون في المجاز، الكتّاب لا يكتبون. اكتب يا موسى: إني رأيت رجلاً يحمل ما تبقّى من طفله ويهرب في سهل القمح الذي يشتعل خلفه، وقطيعاً من الغنم يرمى بالرصاص ويقهقه القاتل وهو يرقص فوق جثة الراعي. اكتب يا موسى: إني رأيت شلعة من القتلة يذبحون ابن عمي ويعلّقون رأسه على المئذنة، ويأخذون امرأته يغتصبونها واحداً واحداً على مذبح الكنيسة. اكتب: إني رأيتهم يخصون صبياً ويقتلعون حنجرة مغنٍّ، واكتب أنهم ألّفوا باسم الله عصابات تساعدهم في القتل تجرّ البلاد كاملةً إلى المقصلة. اكتب يا موسى، الكتّاب لا يكتبون، نصف شعراء الأمة مدحوا القاتل ونصف المؤرخين محوا الجريمة من الكتاب. اكتب يا موسى أنك التقيت هذا الفاني، وروى لي سيرة الحزب القاتل، أعرفهم يا موسى سارقي عمري قاتلي أهلي. اكتب ما تراه يا موسى، كما أوصاك معلمك الذي مشى وسلّمك البيت والكتاب، لأنه يعلم أنك أصدق من الرواة، وأنا أعلم، لأنك بكيت، أنك أصدق من الرواة.

خذ هذا ما تبقى مني إليك.

صحبة الليل

وقع الغروب، لم تعد تظهر الأم في البعيد أمامنا. "تخاف الليل يا موسى؟"، أجابني: "أخاف الناس وليس الليل". صرنا نسرع الخطى كي لا نضيّع الأم، "ما اسمها يا ترى؟"، أجابني على الفور: "مريم". دخل الاسم إلى حنجرتي، مشى كالماء في فمي دون أن ألفظه، "يا الله"، ناجيته بصوتٍ عالٍ، سألني: "لمَ تناجي ربك عند سماعك اسم مريم؟"، قلت له: "كأن حياتي تتكرر أمامي، الأمكنة والناس والأسماء والأحداث، لا أصدق، لا أصدق، لذلك قلت لك أشعر كأنّ ما أنا به هو منام يراه أحد ما أو كتاب قرأته. هل تعلم يا موسى أنّ مريم أول أنثى عرفتها وأول حب وبداية الحريق الأول في عمري، تبدو حياتي في مفاصلها الأساسية مكوّنة من نار، يوم احترق بيت مريم خرجت من تلة سليمان، ويوم أشعل الحاكم نخيل وادي الدموع خرجت وأهلي من وادي الدموع، وخرجت من السجن بعد أن دُمِّر واحترق ونجوت وحيداً منه، ودائماً تراني أنجو ولم أمت، ويوم حرق شارون بأطنان من القذائف بيروت خرجت أيضا في البحر إلى تونس، واليوم أمشي في النار التي أشعلها بائع الكرز!!!".

– والفرس يا موسى أين الفرس؟ ماذا حلّ بها؟ أين تركتها؟

– تركتها في الدير هناك، قلت لأبونا يوحنا: هذه فرس وجدتها في الحديقة تنزف سأتركها أمانة عندك حتى أعود. باركها، ثم قبّلتها في جبينها ومشيت، نظرت خلفي شاهدتها تنظر بحزن نحوي كأنّها عاتبة علي، دمعت عيني ومشيت في هذا الشتات. سكت موسى قليلاً وأضاف: حظي جيد أني التقيت بك.

– ترى هل سألت نفسك لماذا اختارتك الفرس الجريحة يا موسى؟

– فكرت أكثر بالذي حاول قتلها، كيف يستطيع الإنسان قتل الأرواح ببرودة أعصاب؟ كيف يستطيع أن يقتل بهيمة لا ذنب لها؟

– من يقتل الناس يقتل أي روح، لا فرق عنده.

– ولكنك أنت الذي قلت: إلهي كيف تركت البهائم تقتل في عرائك وهي لا ذنب لها ولا حسب ولا نسب، حسبي أنت، "كيف تركت وجهي يداس بالنعل، وأنا عمري كلّه حافٍ حافٍ حافٍ من عتبة بيت أهلي حتى آخر الدرب؟ كيف تركت وجهي يداس بالنعل وملامح وجهي رسمك؟"، ألست أنت من كتب هذا؟

– كأنّي نسيت يا موسى. لكني أذكر خيولاً وفرساً داشرة في بيروت خلال الاجتياح الإسرائيلي.

– نعم، أنت كتبت هذا يوم هربت الخيول في طريق المطار.

– نعم، وأذكر أني كتبت عن امرأة كانت تجلس في صندوق سيارة تفرّ في شوارع بيروت قدماها يتأرجحان خارج صندوق السيارة محشورة بين كومة من نساء مسنّات ينتحبن بدون صوت، كانت الامرأة نصف حافية، تنتعل في إحدى قدميها فردة حذاء رجل والقدم الثانية حافية، كذلك بقيّة المسنات كلّهن نصف حافيات نزلن على كورنيش البحر في بيروت قرب مدينة الملاهي كأنّهن حمولة زائدة، تابعت السيارة سيرها في بيروت، ومشت النساء في الطريق إلى المقبرة... صعوداً باتجاه الباشورة، أذكر أني كتبت شيئاً من هذا القبيل. يبدو يا موسى كلانا كتب الكتاب نفسه مع فارق السنين والصفحات، في الكتابين فرس هاربة وأم ناحبة وبلاد حطام.

لم أعد أتبين الطريق، وقعت العتمة كاملة، محت الجهات، أضواء بعيدة خافتة بدأت تلوح، ونباح كلاب وطلقات نارية، لا أدري من أصابت هذه الطلقات، إنساناً أم دابة داشرة أم جدار بيت مهجور.

– هذه الطريق تؤدي إلى أين يا موسى؟

– إلى بلدة مريم.

– ما اسم بلدتها؟

– بستان الحور.

قبل حلول العتمة كنت أراها نقطة سوداء تزداد بعداً وغموضاً، شعرت برعشة خوف حين تخيلت أن الطلق الناري ربما أصابها، سألت موسى: "هل من أحد بقي في بستان الحور؟"، قال: "لا أعرف، ربما بعض العجائز والماشية، لكنهم أحرقوا البيوت قبل أن يغادروا". عندما كنا نشاهد في البعيد ضوء سيارة كنا ننبطح جانب الطريق خلف الصخور والنباتات اليابسة، هكذا قرر موسى، وهكذا واصلنا المشي والاختباء، ترى هل مريم تفعل الشيء نفسه أم أنها تشق الطريق غير مكترثة بشيء...

خفّت رغبتي في الكلام أو الإصغاء، حتى موسى كان قد صمت، أسمع وقع أقدامه، كانت الطريق ممتلئة بالحفر، تنزلق فيها قدمي المعطلة فتسعفني عكازي في عدم السقوط لكني سقطت أكثر من مرة ويسعفني موسى في النهوض، شعرت كأنّ موسى يقيّم خياره في مصاحبتي، بحيث أنه كان هارباً من الموت فصار معي عائداً إليه بطاعته وبكامل إرادته. سألته:

– هل تشعر أنك تسرّعت في خيارك؟

– خيار ماذا؟

– أن تتبعني وتربط مصيرك بمصيري.

– أبداً، أنا راغب في العودة وكنت أنتظر رفيقاً فكنت أنت.

– ولماذا تعود إذا لم يكن لك أهل هناك وطالما تركت فرسك الجريح في الدير، ليس من شيء يجعاك تختار الخطر وتغامر بروحك.

– وأنت لماذا اخترت أن تتبع امرأة؟ فقط لشعورك أن من العار أن تتركها وحيدة؟

– اخترت هذا وغيره.

– وما هو غيره؟

– لا أعرفه بوضوح، هو رغبة أن لا أبقى أسيرَ مجهولٍ في شتاتٍ جماعي، أفضّله لوحدي، تماماً أن أختار وحيداً جهة لا أعرفها وأسعى نحوها، ستقول لي: هذه الجهة قد لا ننجو منها، أقول لك: كل الجهات فخاخ لا ينجو منها المرء، لذا حيث يكون احتمال المنازلة راجحاً تراني أندفع، هل تروقك شخصية مغامرة إلى هذا الحد؟

– كان أستاذي مثلك يندفع في كل ما يفعله إلى الآخر.

لاح في البعيد وهجٌ تتصاعد منه ألسنة نار تعلو وتخبو، "اقتربنا، سنصل"، قلت وأشرت بعكازي صوب الحريق، أجاب موسى: "نعم".

ما زالت تمرُّ بنا في أوقات متباعدة سيارة مسرعة، نتحاشاها ونختبئ في الهشير والقصب الممتد على جنبات الطريق وخلفه سهول وبساتين أشمّ فيها رائحة فاكهة متخمرة، يبدو أنّها تساقطت واهترأت تحت أمّها الشجرة. قلت لموسى: "هذه بساتين خوخ ومشمش"، أجابني: "صحيح، كيف عرفت وهي غير مرئية

في هذا الليل؟"، قلت: "من الرائحة، أنا خبير روائح، تدربت حاستي منذ اختطافي في بيروت حين حزموني كصرة ووضعوني في صندوق السيارة، لم أرَ الضوء لأيام، كنت أتخيل ما أشمّه وأسمعه، وهكذا خلال ثلاثين سنة صرت أنافس كلب الصيد، كثيراً ما كنت أشمّ ما يشمّه كلبي فرند في أيام رفقتنا، وأبزّه في الشمّ، فرند الذي كان كلب السجان وصار كلبي بعد نجاته من السجن". ضحك موسى، قدّرت أنه سعيد بصحبتي، وأنا بدأت أسعد به، ولكن هذه السعادة لا تدوم، يبدّدها المجهول الذي نقصده وسيارة عابرة تجعلنا في التوجس!

سمعنا جلبة وراء السور القصبي الذي يفصل بين الطريق والبساتين، توقفنا، أصغينا لنتبين طبيعة ما سمعناه، ثم اقتربنا على مهل، أخفينا أجسادنا بالزحف، وأصغينا طويلاً. كأنّها دابة أو أكثر، شممت رائحة غنم. "هو غنم"، قلت لموسى، فتحنا كوة في العشب بين القصب لنرى، شاهدنا شلعة من الغنم مكومة، وبقربها راعٍ مستلقٍ على ظهره، همسنا له: ها ها ها، لم يسمع، مددت عكازي ولكزته، لم يتحرك، دفعته أكثر، لا حياة فيه أما غنمه فسليم، تململ حين أحس بنا. "قتلوه"، قال موسى. قلت له: "لندفنه"، ولكننا لم نعثر على معول أو شيء نحفر به، التربة ليست كما الرمل الذي دفنت فيه حامد المقدسي، هنا التربة متماسكة، تربة زراعية، تصلح للأمرين، للزراعة والدفن، يا لعجب الدنيا! فتشنا على عجل، ليس بالإمكان العثور على شيء في هذه العتمة المضاعفة بين الشجر، وجدت أن نساوي له قدر المستطاع قبراً يحميه من الهواشل، جمعنا حجارة وأعشاباً وأغصان أشجار وغطيناه، وحين هممنا بالرحيل سألت نفسي: "ترى أين كلبه هذا الراعي؟"، كأن ما رأيت هو تكملة لما رواه لي الراعي الآخر في الشاحنة. "اكتب يا موسى ما رأينا وأضف أني التقيت ابنه في الشاحنة مع زوجته وولد واحد لأن الثاني قُتل حين هربوا ليختبئوا في الدير فدفنه والده هناك ومشى بولد واحد".

فجأةً شعرت أني تحولت وموسى إلى فريق يوثق للبلاد. اقترح موسى أن نمشي قرب السور من الداخل، قد يكون آمَن لنا، كان الغنم ينظر نحونا مستسلماً لمصيره بعيون حزينة تلمع في ضوء القمر، حزنت على الغنم الذي صار بدون راعٍ ولا صاحب، عبقت رائحته في مشاعري أكثر من أنفي وجرفني الحنين إليَّ راعياً في تلة سليمان، مع مريمي الأولى، سلام لأيامك أيتها الحبيبة.

مشينا بمحاذاة السور، أخذتني رائحة الخوخ، اشتهيت طعمه، منذ زمن بعيد لم أذق هذه الفاكهة الفاتنة الجمال الشهية المذاق، كنت أتأمل لونها الخمري الداكن وأنا أشمّها كخد الحبيبة، تبيّنت بضع حبات على ضوء القمر المتسسلل من بين الأغصان، شممتها، يا الله!... أكلت أربع حبات، شعرت أن شيئاً ذابلاً في روحي تفتح، وهذا الطعم السكري رجّع لي بضع سنوات من عمري، ضاعت كسواها، حملت في كيسي بعضها والأقل استواءً كي لا تفسد بسرعة، كذلك وجدت حبات دراق، أنا أسير هذه النكهات منذ طفولتي، كتبت مرة أنها أنثوية، فيها شيء من طعم الأنثى هذه الفاكهة، وكنت أقول لهدى إن طعمك يشبه طعم الخوخ، كان ذلك في زمن بيروت قبل الخراب.

أشتاق إلى بيروت.

تابعنا السير بمحاذاة السور وأنا في حالة سؤال: أعجب من هذه النفس التي تذهب إلى الماضي وتعود إلى الحاضر، تخترق الزمان والحروب بسرعة الضوء، تفرح وتحزن في آن، تضحك وتبكي، تيأس وتأمل وتختزن صوراً لا حصر لها.

اكتب يا موسى عن هذا، نحن نسعى وراء امرأة اسمها مريم، نست ابنها في المهد، هي لم تنسَ، هي

حملت عوضاً عنه دمية أخته القتيلة، الدمية التي تنام في سرير الغائبة. حين بدأ الحريق يأكل البيت كانت مريم عائدة من الحقل بسلّة هندباء وفاكهة، رمت السلة وركضت بلا وعي إلى المهد، حملت ما في المهد لتقدير أنّه ابنها، ووجدت في الحشر مطرحاً لها في شاحنة تهرّب الناجين، وحين استفاقت غريزتها نبّهت الأم إلى أن ما تضمّه جسم غريب لا روح فيه لا رائحة فرمته وصرخت: ابنيييي، ففجّ صراخها عقلي، وقفزت من الشاحنة لتعود إليه فتبعناها أنا وأنت، لكلٍّ منّا سببه ودافعه.

هكذا ونحن نسعى كانت الأرض تتابع دورانها، لا شيء يتوقف يا موسى، حبة خوخ شممتها أعادتني بعكس الزمان، أحيت في روحي ما ظننته مات. اكتب يا موسى ما ترى، لا تصدّق ما تسمعه، الرواة المحترفون يحكون رواياتهم وليس الحقيقة، اكتب ما تراه.

صرنا نشعر بوهج النار يحمله الهواء، يا إلهي! للحريق ألف رائحة، أستطيع أن أتبيّنها، ولكن حين تحترق البيوت أي رائحة تنفذ من هذا الجحيم، شيء آخر أقوى من الرائحة هو الرعب، ويصبح للرعب رائحة، رائحة الرعب لا تعفوها النار، النار تستعر في ما تطاله إذا كان يابساً ومستعداً، تعفو عنه رماداً، لكنها لا تستطيع التهام الرعب لتحيله إلى رماد، وللرماد رائحة الرماد فقط، هي مزيج من أشياء وكائنات احترقت حتى الترمّد.

الوصية

حين أموت احرقني يا موسى، هذه وصيتي لك، سأدوّنها وأوقّعها. احملني أو جرَّني إلى تلٍّ عالٍ، تستطيع ذلك، أنا لست ثقيلاً، وزني حمولة جَيبٍ في خرج حمارٍ عجوز، هذا مكيالٌ خاصٌ بي، جَيبٌ من الخرج املأه قمحاً وضعني في الجيب الثاني يتوازن الحمل، وإذا وجدت حماراً يكون ذلك أكثر مهابةً، حمّلني على حمار واصعد بي إلى القمة هناك التي تشرف على البلاد، هناك كأنّي أطلّ على جهتي عمري الذي ضاع في السجون والشتات، من هذه الناحية جهة الشرق هناك في ذلك الغموض الصحراوي ثلاثون عاماً من عمري ضاعت هباءً خلف جدران ذلك السجن، ومن هذه الناحية الغاربة بلاد الحنين ثلاثون أخرى من العمر أكلتها الحروب والشتات، ماتت كشجرة خوخ فتية، أحب ذلك المكان منذ كنت راعياً ومصاباً بحمّى الشوق لمريم، مريمي الأولى. تستطيع أن تجد حماراً، هذه مهمة هيّنة، ضعني عليه من جهة ومن الأخرى ضع وزني حطباً، وهذا أمر هيّن أيضاً، في البداية ضع "شنداً" فوق الحمار، تعرف ما هو "الشند"؟ هو كالكرسي الذي بدون مقعد وبدون ظهر، أظنُّ هذا وصف واضح ويمكن على أساسه أن تصنع لي واحداً يليق برحيلي، إذا لم تعثر على واحد لدى الحطابين، الحطابون ماهرون بصناعته، اصنع لي واحداً، ثم اربط من كلِّ جهة فيه حبلاً كالأرجوحة، اسند كل جهة من الحبل بشاعوب، والشاعوب يشبه علامة النصر يا موسى، التي يرفعها العرب غالباً ولأيّ سبب. ضحك موسى من أوصافي التفصيلية، ونحن على مقربة من النار. ربما تسأل: كيف يمكنني التحدث في هذا الأمر ونحن في المأساة؟ لأنني في المأساة أملي عليك كي لا تنسى إذا مت، ولا تدفنني تحت التراب، أنا لا أريد ذلك، أريد أن تحرقني. المهم اسند الحبلين من الطرفين بعلامة النصر هذه، السنادتين أو الشاعوبين بعامية أهلي، تجد الكثير منها بين الأغصان اليابسة، ضع على الجهة اليمنى حمل الحطب وضعني في الجهة المقابلة في الحبل الذي أخذ شكل يدين متشابكتين، احزمني جيداً كي لا أسقط في الطريق إلى القمة، الطريق وعر يا موسى، ووازن الحمل جهة الحطب فلا زيادة فيه أو نقصان كي لا تبتلي بخلل يصيب الحمولة وأنت تجرّ الحمار صعوداً، وفي مطرح قد أتدحرج منه إلى قعر الوادي، سيتعذر عليك الوصول إلي، وتقع في الندم، وازن جيداً بيني وبين الحطب، كما فعلوا بابن رشد حين حملوه وكتبه على حمار، لغاية التخلص من كتبه وليس منه، هو لم يعد يشكل خطراً على بلادة الفكر ويقلق العالم بأسئلة حية، هو مات، لكن الكتب لم تزل حية لذلك حزموه وكتبه، وحرقوا كتبه، أنا ليست عندي كتب خطرة للحرق، عندي جسدي وقصائد تشبه التنهدات لا تشكل خطراً على العقل.

تستطيع أن تطوف بي قليلاً في الدروب، ولا مانع عندي لو استطعت أن تلفّ بي بعض المدن التي أعشقها وحرمت منها، بيروت ودمشق وبغداد، كم أعشق هذه المدن! أعرف، هذا طلب صعب قد لا أضمّنه وصيتي بشكل رسمي، لك الخيار أن لا تنفذ هذا الجزء من الوصية كي لا أُربك التدبير وأُنهك الحمار، وليتك تعود بي إلى السجن الذي دُمّر وتمشي الدرب التي مشيت، تمرّ بوادي الدموع حيث ولدت وتعبر الصحراء التي عبرت ليتفرج على رحيلي العدم وأنصاب كأنّها كائنات حية أُصيبت بالجمود وتصخّرت واستقرت قامات اتّخذت أشكال الناس والطير والحيوان. لعلك تجد كلبي الذي بقي هناك، ليودعني، ربما يجري خلف الجنازة ويقفز نحوي ليوقظني من هذا النوم، ليت ذلك ممكن. ثم وتأتي بي إلى تلة سليمان

حيث كبرت ومريم، مريمي الأولى، كشجرتين صغيرتين، ماتت مريم مسمومة وذبلت على زندي، سممت لها أمها، كلما تذكرت ذلك أشعر أن العالم كله صحراء بدون شجر وماء.

على كل حال، ليتك تعبر بي جهة بيروت من ناحية وادي أبو جميل حيث أقمت وعشقت وخطفت من تلك العصابة نفسها التي تزاول حرق البلاد، لعلّ هدى ما زالت هناك، ستطلّ من شرفتها على حمار يحمل ميتاً وحطبه فترشّني بعطرها، وتفتح قنينة نبيذ لتشرب كأس وداعي وترشّني بآخر.

هدى تشبه مدينةً أنهكها الغزاة، تشبه شجرة جرّدها الجراد من خضرتها. امضِ بي صعوداً نحو شارع الحمراء، ارفع فوق جنازتي ما شئت من كلام وأعلام وأناشيد، لا يهمني شيء، يهمني أن لا تثقل على الحمار حملاً، سوف يتعب من الإطناب واللغو. قد يندهش الناس من حمولتك هذه، ميت يوازيه حمل حطب ستثير قريحة الشعراء والكتّاب والرسامين والمسرحيين في مقاهي الرصيف إن وُجِدوا، قل لهم هذا فلان عاد من سجنه ومات، سيحرّك عبوري ميتاً ذكريات الرصيف ويحيي ذكرى عبوري حياً في المدينة التي كتب فيها الشعراء ما يفوق حزنها وفرحها، صخبها وسكينتها، بيروت ليس من مكان يضاهي صباحاتها.

لا تمشِ بعكس السير كي لا تثير المتاعب، أكره حماقات السائقين المتهورين وميليشيات الأحزاب والأمن وجيوش الصمود والتصدي، العصابة التي خطفتني.

أحب الجوري، لا مانع أن ترمي عليّ بعض الورد، أحبه من زمن مريم، أحب الياسمين، لا مانع إن دلّلت عليّ وقلت هذا فلان، قد يعرفني البعض وينضم إليك ويخبرك بما لم أخبرك لتكتبه يا موسى، سيتهافت عليك الفضوليون والمصورون والعاطلون عن العمل والنساء والصبية، اصرخ فيهم وقل: أخلوا الشوارع من المارة والنساء لأنني عائد عارياً ووحيداً إلى غابتي، كما قال الماغوط.

لا تقترب من المقرّات الحكومية والحزبية كي لا يهلعوا ويظنّوك تحمل عبوة، وأن الحمار مفخّخ بي.

إذا أراد أحد تصوير الجنازة لا تمانع، أنا مشاع لا ملكية لأحد في، هناك البعض قد يرغب في أخذ صورة تجمعه مع الحمار المحمّل بي وبحطبي، دعهم يفعلون، قد ينشرونها في وسائل الإعلام وفي هذا الذي تحمله بيدك كأنه إصبع سادس، على هذا الذي تسميه "الفيسبوك"، أحببت هذه الكلمة، أعرّبها لك: كتاب المحيّا، تضحك؟ أعجبتك هذه الترجمة؟ المهم دعهم يصورون، لا نفع في الصور لميت محايد لا يثير العصبية ولا شهية القتل ولا التحقق من أسباب وفاته. أعرف أن هذا مستحيل أعدك بأني لن أضمّنه الوصية ولا تأخذه بعين الإعتبار، فقط يا موسى حمّلني كما وصفت لك على حمار يليق بي من جهة ومن جهة ضع حزمة من الحطب اليابس المفلع من شدة جفافه ومن القش واصعد بي نحو القمة هناك المشرفة على البلاد.

جهّز حطبك، ارفعه قليلاً عن الأرض بحجارة وضع القش تحته، مدّدني عليه واحسب بدقة من أين يأتي الهواء، ضعني في الجهة المعاكسة له كي لا تضيع النار خارج جسدي وتتبدد بدون نفع.

أبعد الحمار نحو السفح، دعه يرعى العشب، أشعل عود الثقاب تحت القش وتراجع، لا تقف من جهة الهواء ولا عكسها، قف عند رأسي واقرأ عليّ ما شئت من الشعر، واصرخ عالياً كما الصوت الذي جاءني في الرؤيا: "إلهي، إذا كان في سابق علمك أن الجحيم يوجد فوسّع خلقي فيه كي لا يسع معي أحداً غيري". إياك أن تتركني قبل أن أصبح رماداً، إن وجدت الحطب لا يكفي اركب الحمار وجيء بحمل آخر يزنني مرتين، وانتظر حتى يصبح جسدي رماداً، دعه، لا تنثره في أي جهة، دعه في مكانه تتقاذفه الرياح الآتية.

ودوّن ذلك، إذا رأيت جسدي ينتفض ويستقيم جلوساً في النار لا تخف، هذا يحصل لبعض الأبدان، لا تظنّ أنّ الحياة عادت إليّ وأنّ النار أعادتها، هو تقلّص قوي يصيب الجسد الميت الذي يُحرق في النار، وأظن أنّه لا يصيبني لهشاشتي، لا ماء فيّ، سيكون احتراقي هيّناً، ستلحظني عين الخالق من القبّة العالية، سأوفّر على النار اللاحقة حمل حطب.

ضحك موسى، "مجنون أنت"، قال لي، "مجنون وجميل كأستاذي". أجبته: "مجنون ربما لكن جميل، هذا أمر صعب".

"أنا مرآتك"، قال موسى.

سكت قليلاً وأضفت: "لا تنسَ يا موسى. انتهت الوصية، هل تفعل ذلك؟".

– أفعل، قال والتفت صوبي بعين تتفحص جديتي.

– تعدني؟

– أعدك. كانت نبرة صوته واثقة موحية بالتصميم على تنفيذ ما أريد.

البيت

وتابعنا السير.

الروائح التي يحملها الهواء هي روائح بقايا حريق، أشياءٌ لم تتحول كاملةً إلى رماد، نصف احتراق، الأشياء والكائنات التي تحوّلت إلى رماد فقدت رائحتها، لذلك أقدّر أنّ النار التي أكلت البلاد قد أبقت على أشياء لا تصلح لشيء سوى أنّها تذكّر بأصلها: نصف غصن، نصف شجرة، نصف وردة، نصف بستان، نصف بيت، نصف كنبة، نصف فراش، نصف نعل، نصف ثوب، نصف باب، نصف إنسان، نصف دابة، نصف قطيع، نصف راعٍ، نصف صرخة، نصف سهل قمح، نصف قرية، نصف بلدة، نصف مدينة، وهذا النصف هو الرعب، وللرعب رائحة.

اكتب يا موسى: استطعنا أن نشمّ رائحة الرعب ونحن نتقدم جهة الحريق.

جهة الشرق تلٌّ عالٍ ليس بعيداً بان القمر من ورائه، شاهدنا خيالات ترقص حول النار على التل العالي، شممت فيها رائحة الجريمة. قلت: يا موسى، ترى ما أراه على التل؟.

هؤلاء في كل ليلة يجتمعون هناك يشعلون النار ويحتفلون بسبي النساء، كانت أصواتهم الماجنة تصلنا متموجةً مع هبوب الشرقي.

ارتجّ بدني كأنّي رأيت مريم يتناتشها الرجال، يمزّقون ثوبها على عتبة البيت ورضيعها يبكي في المهد، وهي تتلوّى كحورة في مهبّ عاصفة عاتية.

"أسرع يا موسى، إنهم يغتصبون مريم"، أخاف من حدسي، هذه اللعينة قدمي لا تسعفني لكن الرؤية شحنتني بالعزيمة، وحبات الخوخ كأنّها إكسير الحياة، فطرت بقدم واحدة، أنهب البساتين، رائحتها تزيدني عزيمةً وموسى خلفي كالسهم.

"تعرف بيت مريم يا موسى؟"، "نعم أعرفه، هو في أول البلدة، لا داعي لإشارة تدل عليها، هي التي ما زالت النار تأكلها وتعسّ في روحها، ليس بينا وبين البلدة سوى النهر، ماؤه خفيف في الصيف"، قال موسى، "لكنّه لا يزال غزيراً. هذا العام معظم البساتين عطشى لأن أصحابها غادروا ولم يرووا بساتينهم لذلك بقيت المياه كلها في النهر، عادةً في الصيف يكون ماؤه برفع الخيط، يذهب كله للري".

تعرّيت كاملاً ورفعت ثيابي وكيسي على عكازي وعلى مهل أرسلت جسدي في مائه البارد الذي غمرني حتى رأسي، شعرت كأنّي أولد وشيء يولد في نفسي. وأنا في هذا النهر الذي ذكّرني بحكايتي مع زينب، ومضت سريعةً ذكراها في بالي، زينب التي شاهدتها تستحم في النهر وكنت صغيراً. فركت رأسي مستودع هذه الذكريات بماء النهر كأنّي أغسلها من غبار السنين، فركته بيد واحدة، فركت جسدي، جسدي الذي منذ زمن لم أتحسسه بهذا النحول المهين، ضحكت عليه كأنّه لسواي، كان ماء النهر يدفعني في المجرى كأنه يحمل غصناً يابساً، اغتسلت وشربت وعبرت على عجل، وموسى دائماً بجانبي، يحميني من الانجراف مع التيار.

سمعت بكاء طفل يأتي من البيت المقابل، "هذا بيت مريم يا موسى؟"، "نعم". على الضفة لففت جسدي بمزق ثيابي ومشينا نحو البيت، النيران لم تصل البيت من جهة النهر لكنها تحاصره من الشمال. في الدرب إلى البيت، بعض الناس الذين قتلوا يبدوا أنّهم أُعدموا أثناء هروبهم، لم أتبيّنهم بوضوح لكنّ

دمهم اختلط ببعضه وبدم بعض الماشية التي أَعدمت وهي تفرّ بالغريزة، كأنّي أشاهد ما روته لي جدتي يوم اختبأت في الهشير في قريتها "فاند جاك".

صار صوت الطفل أقرب إلى سمعي، قدرت أنه ابن مريم، لا أحد في الدرب سوى القتلى، وصلنا البيت، صار موسى ملتصقاً بي، همست له: "خائف؟"، "شوي". بيت مريم صغير سوره واطئ، شجرتا صنوبر في الدار لم تصلهما النار، شممت رائحتهما الصمغية، حين تدحرجت من على السور سكت الطفل، كأنّه سمع الجلبة وسكت ليتبيّن مصدرها، بالطبع هذه تهيؤات وليست حقيقة. اقتربت بحذر من الباب كان نصف مغلق، دفعته على مهل، بانت مريم في الداخل على ضوء خافت واقفة تحتضنه وترضعه، شاهدتني، ضمّته أكثر، بدون شك كان شكلي يثير الرعب، الماء يسقسق من شعر رأسي الذي ازداد طولاً حين دعكته بماء النهر، ومن لحيتي. بادرتها بالقول: "لا تخافي، أنا كنت معك في الشاحنة، جئنا لنساعدك". بان موسى خلفي، طلب منها أن تسرع، حملت بعض ما يحتاجه الطفل وتحتاجه، ثم تأمّلت هيئتي وغابت لثوانٍ في الغرفة، حملت كوماً من ثياب زوجها وقالت لي: "بدّل ثيابك"، فعلت بدون تفكير أو تردّد، عبرني شعور فرح كالذي كان ينتابني في زمن الطفولة حين كنت أرتدي ثياباً جديدة، وهي مرات معدودات، منذ سنين لم أرتدِ ثيابا نظيفة، شممتها، مغسولة بمسحوق معطّر بالورد، فرحت بها فعلاً وكدت أنسى أنّنا في مواجهة الموت في بلاد تحترق. ارتديت الملابس الداخلية وقميصاً كحلياً وبنطال جينز وسترة، لكنّي احتفظت بثيابي في كيس إضافي. أصلاً ثيابي مزق من ثياب كنت أعثر عليها في طريقي تخصّ جنوداً قُتلوا ورعاة أضاعوا بعضها، كنت أجدها في بيوت مهجورة، لا أعرف لماذا احتفظت بها وهي لا نفع فيها، بالية، لا أعرف، ربما لأنها كل ما أملك، هي شيء يخصُّني ولا أستطيع رميه بسهولة، تلك لوثة الملكيّة التي طالما ظننت أنّني ملقّحٌ ضدها، لكنّها ملكيّة تستدعي الرثاء، أظنُّ احتفاظي بها يعبّر عن حالة نفسية.

على كل حال خرجنا على عجل بعد انتهائي من تبديل ثيابي، التفتت مريم كأنّها تلقي نظرة وداع على البيت، سلكنا الدرب نفسه، تركنا خلفنا بيوتاً مهجورة واستغاثات بعيدة لنسوة، أصواتاً مرعبة لماشية تبدو محاصرة في النار، عواء كلاب وطلقات بعيدة تسكتها إلى الأبد، هسيساً وفرقعة أخشاب كأنّ البلدة قُذفت في فوهة بركان.

حدسي لم يصب هذه المرة، هكذا ظننت ونحن نهمّ لنعبر النهر فوق عبّارة وضعها زوجها منذ زمن ليختصر الوصول إلى البساتين بدل الصعود نحو الجسر في أعالي البلدة، "وهناك نكون مشينا بإرادتنا نحو الموت"، هكذا قالت مريم حين كنّا نفكر كيف سنقطع النهر. مشينا بموازة الضفة مع الماء، كان موسى يحمل الطفل ومريم تحمل حقيبة صغيرة ونتبعها نزولاً، فرحت أنّ حدسي لم يصب، وأني ساهمت بإنقاذ روحين، قبل أن نسمع صوت فتاة تستغيث على بعد أمتار، في البساتين، جمدنا دون حراك فوق النهر، خلفنا بيوت تلتهمها النيران وزمر من عصابات تنهب، وأمامنا عصابة أخرى تغتصب فتاة لمحتها بين الأشجار كما الرؤيا، تتناتشها الأيادي كذئاب تتناتش طريدة، شعرت أنّه ليس أمامنا خيار ثالث: نتدخل أو نتابع الطريق، هكذا فكرت حين ذبحني صوت هذه الفتاة التي تصرخ "يا بيييييي..."، أيقظ صراخها لهفةً في نفسي كدت أنساها، تماماً تشبه تلك التي دفعتني لأكون هنا مع هذه الأم التي صرت أرتدي ثياب زوجها القتيل، وهذا أمر آخر بدأ ينبّه في أعماقي أسئلةً منذ زمن لم أطرحها أو لم تجد سبيلاً لطرحها قبل ذلك.

هناك في النفس مشاعر تنام لسنين في صقيع النسيان، فجأةً يأتي ما يشعلها، وأسأل نفسي: ما الذي جعلني هنا؟ كنت أحتاج لمن ينقذني صرت منقذاً، أمر عجيب! هل هي الشهامة النخوة الرأفة شهوة الثأر

التي هي أيضا تخبو وتنام؟ شيء يشبه الخيال، كأنّي أتابع مناماتي في تلك الحافلة المهجورة بين حطام العربات، في تلك الناحية من الصحراء حيث فرق كاملة من جيش البلاد أُبيدت لنزوة في رأس حاكم، يبدو ما أعيشه فعلاً أقرب إلى منام طويل وليس إلى حقيقة.

طلبت من موسى أن يمضي في سبيله مع مريم، أن لا ينظر خلفه، أن يحمي الأمانة التي حملناها سوياً، هي مريم وابنها، وأن يلتحقا بالشتات، لأنّني قررت أن أنقذ هذه الفتاة التي تُغتصب، سأفعل ذلك مهما كانت النتيجة، كنت أراها عارية في ضوء القمر على حافة الاستسلام بعد أن خارت قواها. رفض موسى وقال: "أنا اخترت دربي معك، نبقى معاً أو نمشي معاً".

كان صوتها يذبح الليل ويذبحني، لم أنتظر، جذبني صوتها كأنّه حبل رُبط بعنقي وسحبني بقوّة نحوها، جذبني جذباً، نظرت خلفي كان موسى يتبعني ومريم تكوّمت وابنها في الهشير، يبدو أنّ تلك العصابة التي اختطفتها لم يكن بحسبانها أن أحداً عاقلاً يمر في هذه الناحية من البساتين، لذا كانوا قد تركوا بنادقهم ملقاة خلفهم بشكل عشوائي، وتمسكوا بها كقفير نحل.

شاهدت موسى يتناول رشاشين، رمى واحداً نحوي، التقطته بلاوعي ولا تدبير، ودون إنذار أو تنبيه باغتهم موسى وأطلق النار وطلب مني أن أفعل بسرعة، ارتبكت أمام هذه المهمة شعرت وكأنّي صرت خارج جسمي، كيف لي أن أقتل وأنا لا قدرة لي على قتل نملة، شاهدت بعضهم يسقط أرضاً والبعض يفرّ في العتمة، صرخ بي موسى أن أرمي وإلا تكاثروا وقتلونا جميعاً، ناديت على الفتاة أن تتقدم نحونا، "لا تخافي، قال لها، أنا موسى"، عرفته وركضت باتجاهه، كاد الرشاش يسقط من بين يدي المرتجفتين، حين شاهدت أحدهم يصوب مباشرة على ظهر الفتاة، ليس أمامي أي وقت للتفكير: أقتله أو يقتلها ويقتل موسى، شعرت أني صرت إنساناً أخر هو الذي ضغط على يدي، هو الذي شد سبابتي بصلية اخترقت جسده فصار ينتفض ويهوي كخرقة مبللة بالماء، شيء تحرك في أحشائي صار هو الذي يتحكم بسلوكي، شممت رائحة الدم، أعرفها جيداً هذه الرائحة، صرت أبحث عن آخر لأقتله دون تردد، تحرك شبح بين الأغصان أطلقت عليه، سمعت صرخة لم تكتمل، نصف آخ كانت حائرة بين الآه والآخ، شاهدت الفتاة عارية بين ذراعي موسى كأنهما تمثال، ذكّرتني بتلك الامرأة التي صلبوها على النافذة في السجن وطلبوا مني أن أبرهن على رجولتي، يا لهم من سفلة! صرخت بهم يومذاك: "تريدونني أن آكل لحمي يا أبناء الزنى" وسقطت أرضاً بعد أن طعنت عند أسفل ظهري بحربة، اختلطت هذه الصورة أيضاً بتلك الليلة البعيدة حين سقطت هدى بين ذراعي على سفرة الدرج في بيروت في جحيم القصف، وصار الذي صار وصارت الحبيبة. عبرت هذه الصور سريعاً في بالي.

حملت للفتاة ما تبقى من ثيابها التي تحولت إلى مزق بين أيادي كانت تسيّرها الغريزة الخالصة التي أبطلت عمل العقل، مشينا باتجاه مريم، كانت مكومة في الهشير فوق ابنها كقصعة سلحفاة. ليس ببعيد بين قامات الشجر لاح بيت هو أقرب إلى صيرة أو مراح للماشية، عندما صرنا بموازاته شممت رائحة نوع من الشجيرات الصغيرة التي تسمى الكوكلان والشيح كان أهلي في تلة سليمان يضعونها في القبو ليغزل عليها دود القز شرنقتة، وقفت في الباب ودفعته وتطاولت برأسي نحو الداخل، مملكة من الشرنقات يلمع بياضها في ضوء القمر المتسلل من نوافذ ضيقة، يا الله كم يغويني هذا السحر، هذه الأرواح التي تحيك على نفسها الخيوط، هي لا تدري أن يداً ستقطفها قبل اكتمالها وتموت كي يصنع أحدًا ما قميص حرير ملمسه كملمس جسد أنثوي، سريعاً مرت برأسي هذه الخاطرة: من منا سيموت ليكتمل هذا الغزل

الذي نحن فيه؟ ما السّر الذي جعلني أرتدي ثياب رجل مات وأندفع بكل عزيمتي لأنقذ هذه الفتاة؟ تذكرت أني لم أسألها عن اسمها، الأسماء حين يكون أصحابها على البرزخ بين الموت والحياة تؤجَّل أو تُنسى، وهكذا أحببت أن أسالها بعد أن قطعنا شوطاً: "ما اسمك؟"، أجابت بصوت ما زال نصفه غائراً في صدرها: "نجاة"، قالت: "اسمي نجاة"، "تمزحين" قلت، "لا والله اسمي نجاة كانت أمي تناديني نجوى ووالدي نجاة".

يا الله! اسمٌ حائر بين النجوى والنجاة، لم أسألها عن أهلها، أين هم وماذا حلّ بهم، تركت ذلك للطريق للدرب، بعد حين ستحكي لنا ما حلّ بهم. الدرب هي التي تجعلنا نتعارف بشكل حميم ووافر، الدرب تولد الحكايات حين تطول بنا ولكن الدروب التي نسلكها ليست آمنة لتفتق تلك الرغبة، ثم كأنّي أعرف ما حلّ بهم، هو تقدير غير أكيد.

كانت نجاة تمشي متعثرةً تتألّم، انتبهت أنها حافية، قالت مريم: "لدي حذاء إضافي في الشنطة"، انتعلته، خلعت سترتي وألبستها، كانت ترتجف كعودٍ يابس في عاصفة، مشينا، موسى ومريم ونجاة وأنا عبد الجليل، كأنّي نسيت أنّي قتلت، كأنّي لم أفعل وأن أحداً غيري هو الذي قتل، لكن الحمل الزائد في يدي كان يذكّرني بذلك، هو ذلك الرشاش الغزير الطلقات، هممت أن أرميه، كالذي يريد إخفاء جريمته ليتنصل منها ويظهر براءته، لكن شيئاً في داخلي نهرني أن لا أفعل وأنّي لست الذي كنت قبل دقائق، وهذا خياري، نعم هذا خياري أنا الذي قررت أن أسلك هذه الدرب خلف شبيهة أمي التي اسمها مريم لكي لا أتركها بمفردها تعود لإنقاذ رضيعها من الحريق، وكنت مدركاً أن هذا الخيار سيضعني في مواجهة مع المجهول الذي سأتدبّر فيه أمراً للدفاع عن مريم وعن نفسي فيما لو تعرضنا للخطر، وأنا أعزل وعارٍ، يعني أني سأبحث عن سبل لحماية أنفسنا وهذا الأمر مفتوح على خيارات تصل حدّ القتل، يعني أن أجد وسيلة أقتل فيها من سيقتلني كي ننجو، وهذا ما حصل، معادلة لم أخطط لها لكنّني وقعت فيها، ولم يعد هناك من سبيل للخروج منها.

سجّل يا موسى، تذكّر أن تدوّن هذا غداً عندما نصل إلى ركن آمن في هذه الدرب، أنَّ الذي قتل هو ليس أنا، هو رجل آخر كان نائماً في جسدي الهزيل هذا الذي لا يوحي أنَّه قادر حتى على متابعة السير، رجل أيقظته صرخة مغتصبة يتناتشها رجال ليس فيهم من الإنسان إلا هيئة إنسان.

لا تنسَ، دوّن هذا غداً في دفترك.

الكتّاب لا يكتبون، يهربون في المجاز، والرواة يحكون رواياتهم، والتاريخ لا يتحدث عن فرس بيضاء تنزف عند الفجر في حديقة أستاذك ولا عن مريم تجري حافيةً في الدرب لتخلّص ابنها من الحريق ولا عن شلّة تغتصب فتاةً لم يكتمل جسدها نمواً، حائرٌ بين الطفلة والفتاة.

اكتب يا موسى، ولا تكتب كما الكتّاب، تستدعي اللغة لتشاركك التأليف، اكتب ما عشت ورأيت، بأمانة. اكتب عن التلّ الذي أعدموا عليه الخيول، رأيت الخيول يا موسى وهي ترمى بالرصاص مذهولة، والقتلة يقهقهون؟ أنت لم ترَ، أنا رأيتها، كانت تنظر عاتبةً على الإنسان منذ بداية الخلق، كأنّها تقول:

"حملتك يا ابن آدم في هجراتك وترحالك وغزواتك وحروبك، تلقيت سهامك في المنازلات، وعدوت بك ألف عام في الصحارى والجبال، جررت عرباتك ومدافعك ومتاعك، وتفاخرت بي وبسرعتي وكتبت في جمالي الشعر، وتبارى الرسامون في رسمي وعلقوا على جدران القصور إطلالتي، صنعوا لي التماثيل في

الساحات، لماذا تقتلني وأنا الذي أوصلتك إلى التلّ الذي أنت عليه الآن تصوّب وتقتلني كأنّي وحش سيفترسك؟".

اكتب يا موسى أنّهم قتلوا حتى الخيول وأنّ فرسك البيضاء هي الوحيدة التي نجت، حملت جراحها ومشت تبحث عن فارس يضمّد جراحها فكنت أنت الفارس. أنا رأيتهم يا موسى يقتلون الخيول، لا تنسى أن تذكر أني قَتلتُ أيضاً، ولكني لم أقتل الخيول، قتلت قاتلاً ينهش لحم طفلة، وأنت أيضاً قتلت وكنت مثلي لا تخطط لهذه المحطة في حياتك، اكتب أنّني قتلت وندمت، نعم ندمت، اكتب عن ندمي، ولكن لم يكن أمامي من خيار سوى خيار واحد أن أترك شلعة الذئاب تلك تمزق لحم هذه البنت وأن ترميها بالرصاص في ظهرها العاري، لذلك لم يكن ندمي عظيماً.

لا تنسَ، اكتب بفيضٍ هذا الهول، لا تنسَ أن تدوّن عن ذلك الملتحي الذي أفتى بقتلي، على كل حال غداً حين نصل سأملي عليك سيرتي ووصيتي كاملة.

رافقنا القمر في تلك الليلة، اعتدل الخوف واعتدل الحزن أما التعب فتملّك منا، صرت أجرّ نفسي، حتى عكازي ملّتني وتعبت، قلت لموسى: "سنرمي هذا السلاح عند خروجنا من الحدود، أجد فيه حملين يا موسى وزنه ووزن الآخر الذي استفاق في جسدي، هذا اللعين ظننته كسيحاً ضعيفاً مرمياً في قاع النسيان، لكنه حضر كالبرق، حضر كفارس، يلبّي نداء استغاثة. يا لهذا الإنسان!!!".

لا بأس، سأتعود على شخصيتي الجديدة إلى حين الوصول، تمنّيت لو أنّ كلبي معي وفرس موسى، وهكذا نصبح ألفةً جريحة، البعض جريح في القلب والبعض في الجسد، خارجين من مطحنة الحروب والقتل، نجونا من سجن وموت، وذاهبون نحو سفح جبل بعيد نبني بيتاً وحظيرة، من الحجارة والطين ونبدأ رحلة جديدة في الحياة، سأكون الأب وأنتم الأبناء تروون سيرتي بعد موتي للأحفاد. قلت ذلك لرفقتي الجديدة.

اكتب يا موسى أني تمنيت ذلك، قالت مريم: "يا ليت..." أما نجاة فبقيت غارقة في صمتها، تتمسك بي عند الخاصرة، لم أسألها عن شيء، تركت كل الأسئلة حتى الوصول كي لا أثقل عليها، ما زلنا في البساتين العابقة برائحة المشمش والخوخ، رائحة حملتني إلى بساتين أهلي إلى شقواتي الأولى مع مريمي الأولى هناك في تلة سليمان، لكن سرعان ما أعادتني بسرعة البرق صرخة عبرت جسدي كالرصاص، التفتُّ شاهدت ما شاهدته مريم، شاهدنا ما شاهدته مريم، لا أدري كم هو العدد لكني أدري أني لم أتوقع على الإطلاق أن أرى ما رأيت، لعلّ هذا يحدث في الخيال فقط، شعرت أني أصبت بالشلل التام، فسقطت كشيء، كثمرة خوخ سقطت عن أمها: ذبائح بشرية، رجال ونساء وأطفال عراة معلقين من أقدامهم في الشجر! سمعت أني أصرخ يا الله، وكأنّ صوتي جاء من بعيد إليّ، جاء من غير زمن ومن غير مكان، كأنّه صوت أبي في وادي الدموع يصرخ يا الله، يا الله حين تركوا الذئاب تنهش لحم أخي وهو حي، سمعته هكذا، ثم تردّد في رأسي صوت طفل يقول: "لماذا تحملني إلى الجبل يا أبي، هل تريد ذبحي كما النعجة؟"، ثم تداخلت الأصوات في رأسي كزوبعة، صار الصوت عويلاً بدون نهاية ممتداً كطول ليل ونهار، فسقطتُّ.

بستان الحور كله أجساد عارية مذبوحة ومعلقة على الأغصان.

خطفني هذا القتل من نفسي ورماني في الغيبوبة.

رأيتني أجلس في كوخ عند سفح في ضحى يوم ربيعي وكنت في مقتبل العمر، وحدي أجلس في الكوخ

لا أدري لماذا أنا هنا ومن جاء بي، فقط وحدي وهناك قطيع لا متناهٍ من الخيول البيض تعدو في السهل وتجتاز النهر نحوي ويزبد ماء النهر ويفرّ الطير، فردت يداي على طولهما ورحّبت: "ياهلا يا هلا يااااا هلاااا"، الخيول تعدو باتجاهي بيضاء لم أعد أفرّق بين بياضها وزبد النهر، وحين أشرفت طلائعها على الوصول صحوت.

نعم صحوت، وجدت نفسي محمولاً على فرس يجرّه موسى وتتبعنا مريم وابنها والطفلة نجاة كلٌّ على فرس. أربع أفراس انضمت للمسعى، لا أعرف كيف. "أنا صحوت يا موسى، إلى أين تحملنا؟"، قال لي موسى بعد قليل: "سنصعد الجبل الغربي، سأعمل بوصيتك، في منقلب الجبل سنبات وفي الصبح نبني البيت"، لم أعد أعرف إذا كان ما قاله موسى هو جزء من منامي أم أنّني صحوت فعلاً. سكت، لم أعلّق، استسلمت لوقع حوافر الخيل وهي تطحن الحصى، ذكّرتني برحلتي الأولى مع أهلي يوم تركنا وادي الدموع في الشتات وركبنا البغال وصعدنا جبالاً وقطعنا أودية وعلّمني والدي أسماء الشجر والطير.

بعد قليل بدأت الفرس تصعد الجبل، عنّ ببالي أن أسأل موسى: "كيف أصبح لدينا خيل نركبها؟" ولكن بدا صوتي واهناً ولم تعد لدي قوة إضافية لطرح هذا السؤال، أو ربما لم يعد عندي رغبة كافية للقيام بأي شيء، حتى جسدي كان محزماً على السرج كسرج إضافي. فككت الحبل واستقمت في الجلوس فصرت كفارس جريح عائد من الهزيمة، لم أعد بحاجة لشرح معنى الفارس الجريح هو أنا تحديداً، مجسّداً في موكب يحمل حطاماً بشرياً، لا لست في المنام في هذا الجزء من الرحلة، لأني تذكرت ما توارى خلفنا في الحرائق وفي البساتين لذلك وجدت الصمت هو خيمتي فيما تبقى من الرحلة، يا إلهي حين يصبح الصمت خيمة للنفس! سمعت رندحة خلفي، رندحة موجعة وخافتة كضوء القرى النائية في بالي، اختلطت بوقع حوافر الخيل فتقت في روحي حنيناً حارقاً وذكّرتني بماضٍ شبيه حدّ التطابق لولا فرق السنين الهائل، يوم ركبنا البغال في شتاتنا من وادي الدموع وغنّت جدتي وهي تتمايل فوق السرج كخيمةٍ صغيرة:

يا نجم الصبح يا غاوي وين الصحاب
ركبنا يوم الشتات أربع دواب
وحدة مزيّني بنجمة عالجبين وحجاب
ووحدة مشنشلي بطوق خرز وكتاب
واحدة محنجلي مدبلي الهداب
يا مين يردّن لهلن بعد طول غياب،
آآآآآآآآآآآخ يايماااااااااااا.

أذكر أنّ جدتي غنّت يومها ثم وقع الصمت وكانت تكسره حوافر البغال وهي تطحن الحصى في الدرب الجبلي في غابات السنديان نحو ذلك المجهول الذي صار بلادي الثانية، تلة سليمان.

سلام لأيامك بلدتي.

ما زلت أسمع الرندحة خلفي كانت تعبر كالغيم وتعتصر قلبي، هي رندحة أم أدركتْ كم أصبحت وحيدة، هي مريم، التفتُّ نحوها كانت مائلةً على ظهر الفرس كرايةٍ منكّسة، وفي حرجها ابنها في شرشف محكم إلى وسطها وقد عُقد إلى ظهرها بشكل بدت فيه كأنّها حبلى.

"يا دني شو بعاد الولاد/ اللعبو عالعتمة وما ملّوا/ ملّوا الدني ضحكات/ وملّوا البيت وفلّواااا/ آه آآآ يا دنيييي...".

شقّ قلبي صوتُها، ذبحني، وعلقت آهها في حنجرتي، شعرت بها كغصة، كحلقة مقفلة سدّت الهواء، ليس عندي ما أفعله في هذا الليل الذي قمره يتابع رحيلنا سوى أن أبكي ولكن دمعي سقط من عين واحدة، كانت الثانية تنظر إلى قمة الجبل الذي ينتظرني، عين تبكي وعين تنظر إلى القمة التي تنتظرني من زمان.

تابعت مريم رندحاتها وزاولت ذهابي وإيابي بين عمرين ومكانين في مسافة طويلة هي هذا الحزن الباقي الدائم كالأزل.

البنت نجاة هي أيضاً مائلة فوق الفرس كحكاية لم تُحكَ، هكذا شعرت وأنا أتأملها، وفرحت بهذا الوصف الذي أعادني قليلاً إليّ، أعاد إليّ صيغة ضائعة أو أنّها غفت في تلك الروح، هي بعضي الذي أسعفني على منازلة الصحراء بمفردي كشجرة على تلّ تعريها الريح. أحب نفسي حين يعلو فيها منسوب التأمّل والشعر. كانت عيناها تبرقان في ضوء القمر كنجمتين في سماء بعيدة غير التي يتوسطها البدر الآذن بالاكتمال فوق قمة الجبل، كأنّ الله جعله لنا وحدنا في هذا الليل. ناديتها كي أخرجها قليلاً من صمتها، أو من غيابها عن نفسها، سميتها نجاتي، قلت لها: "أنت نجاتي، هل يعجبك أن تكوني نجاتي؟"، قالت: "ما بعرف، حاسي كأنّي مش أنا يا عمو". مبحوح صوتها من كثرة الصراخ، وتلك البحّة لوت رقبتي، قلت لها: "لا تخافي، أنت في أمان ما بقيت حياً"، أكمل موسى وبقيت أنا أيضا، قلت: "موسى هو قائد القافلة وحاميها". كنت أحاول أن أشعل الأمل وبعض الفرح في قلبها، قالت: "الناس اللي مذبوحين بالبستان هودي أهلي وأهل بلدي"، ثم ناحت، ناحت، ناحت، فاض كلُّ الحزن والخوف دفعةً واحدة، كأنّها الآن أدركت ما حلّ بها، أو أنّها انتبهت إلى ما صارت إليه، كأنّها كانت في خدر واستفاقت. رأيتها تهمّ بالنزول عن الفرس فناديت موسى، قفز موسى باتجاهها كالسهم فارتمت بين يديه، جفلت الفرس وراحت تعدو نزولاً على السفح، صهلت الأخرى التي أمتطيها، هدّأتها، طلبت مريم من الله أن يتدخل كي لا نصاب بمكروه، بكى الطفل، فرّ من خلف الصخور سربٌ من الطير جافلاً من الجلبة المباغتة، ترجّلت على مهل عن الفرس، أمسكت برسن الأخرى التي تركبها مريم وناديت على الثالثة أن تعود، سمّيتها "فرح"، هو الاسم الذي سمّيت به الفرس التي جاءتني في المنام، ناديتها: "فرح تعالي يا وش الخير تعالي..."، كانت على آخر السفح، مالت بعنقها والتفتت، برقت عينها ثم صعدت نحونا على مهل، يا إلهي! كيف عرفت أني أقصدها بهذا الاسم؟ هي الطاقة التي حملها صوتي وصلتها دون نقصان، هي اللهفة، الخوف من أن تضيع في الليل ويقتلها الرعاع الذين يطلقون رصاصهم على أي شيء يتحرك، بشر وحيوان وشجر وطير. تقدّمتْ حيث أقف ونظرت في عينيّ كأنّها تعتذر، غمرتها وقبّلت وجهها ومسدت غرتها. "أنت فرحي، لا تتركيني مرةً أخرى، أموت لو فعلت ذلك"، اقتربتُ وهمست لها: "أحبك" فبرقت عيناها وتنهدت، غمرني شعور بالألفة، ورغبت في مطرح كالبيت، وراء الجبل، أصله وأطرق بابه الذي من جهة الشرق يتوسّط نافذتين خشبيتين سقفه من تراب وجدرانه من حجر، يد تفتحه لي وتغمرني وأشعر بدفء لم أعهده منذ ستين سنة، أشمّ فيه رائحة الألفة والحبق والحنطة والعشب اليابس وصمغ الصنوبر والعطرة والخبز وبقايا موقد، يا الله من أنا حتى تجعلني في هذا التجاذب بيني وبيني؟

همد البكاء واستقرّ الحزن في القلب، كنّا قد جلسنا خلف لسان صخري يحجبنا عن السهل، فوقنا قمر كأنّه مستقر فوق القمة ينتظرنا، يخاف علينا كي لا نضيّع معالم الدرب إلى البيت تلك التي سلكها الرعاة والحطّابون القدماء والسابلة الباحثون عن الله في القمة العالية، هي درب وعرة متعرجة تخيط السفح

صعوداً حيث لا أدري على ماذا يمكن أن نطّل.

كانت نجاة تقف على بعد أمتار مع مريم تتأملان السهل بعيداً حيث تلوح بقايا حرائق، وتنوص أضواء هزيلة. كان موسى بجانبي يتأمل النجم كفلكي حائر، قلت له: "لا تنسَ يا موسى أن تكتب هذا الرحيل، وتروي عن الطيور القتيلة في الدرب، كنّا ندوس على بعض الطيور التي يبدوا أنهم تسلوا بقتلها، بعضها كان لا يزال حياً لكنه لا يقوى على التحليق، هل انتبهت؟"، هزّ موسى رأسه بحسرة كأنّه يوفّر الكلام لوقت لاحق، "لا تنسَ أن تكتب عنها وعن شجر العراة المذبوحين. هذا شيء صعب وصفه، يذكّرني برواية عن غابة من المصلوبين في الجليل في زمن توراتي بعيد قرأتها في تلك السفينة التي حملتني قبل سنين من بيروت إلى تونس، يومها أيضاً ضممت مصيري إلى مصير أناس لم تربطني بهم سوى فكرة غامضة.

شجر العراة المذبوحين، إنها مخيّلة قاتل محترف يتلذذ بتعذيب الأرواح، أعرف هذا الصنف من البشر في سجني، أعرفه جيداً، هناك كانوا عباقرة في جعلنا أي شيء يشتهونه، ماشية أو كلاباً أو أشياء جامدة، يحصون عديدنا عراة كما خلقنا، نغطي عورتنا بأكفٍّ مرتجفة، ضامري الأبدان كماعز في القحط. كان اللعين آمر السجن يقف على شرفة غرفته المطلّة على الباحة، ويرمي لنا تفاحةً من يلتقطها يفوز بها، وهذا ليس خياراً بل أمر يجعل الجميع يتدافع ويقفز كي يلتقط التفاحة، تخيّل تلك الأجساد العارية المتدافعة التي تتساقط فوق بعضها كحطام ليفوز واحد بتفاحة لا يأكلها بل يحملها بكلتي يديه والآخرون ينكسرون على أجسادهم ليخبّئوا أعضاءهم.

القتل يا موسى دفعة واحدة رحيم، لا يوجد هذا الصنف من القتل في قاموس هؤلاء، غداً ستروي لك هذه الفتاة كيف علّقوا أهلها أحياء على أغصان الشجر من أقدامهم لساعات وقد كُبّلوا كي لا يقووا على ردّ الضربات على الرأس بالحجارة والعصي، كانوا يرجمونهم معلقين وليس في حفر كما فعلوا بالمجدلية قبل ألفي عام. كأنّي أرى ما فعلوا بهم، لقد جرّبوا بي هذا النوع من التعذيب أو القتل البطيء، كي أعترف بشيء لم أفعله، بل بأكثر منه فظاعةً وعذاباً، شيء مستحيل، كي أعترف بأني رجل آخر غيري، تخيّل، كيف لي أن أوافق على أني لست أنا؟ ووافقت، نعم وافقت، ليس أمامي من خيار سوى أن اقول نعم، كي أعيد رأسي إلى موضعه من جسدي بعد أن تخزن فيه دم متخثّر وضجيج استنفدت كل ما أملك من قدرة على احتماله، كنت أصحو وأغيب وأرى السقف والجنزير الذي يحملني من قدمي كذبيحة يعدّونها للسلخ.

حتى الآن تراني أقع في الالتباس بيني وبين آخر، كأنّي غالباً على البرزخ بين نفسين لولا أن جسدي ينبهني إلى الأصل الذي كنته وأزاوله ويحمل وجودي وأحمل أوجاعه وندوبه، هو هذا الذي يمشي معك في هذا الليل، هذا الجسد المعطوب الذي لم يعد يقوى على حمل عقلي وجنوني وهذياني ورغباتي وآمالي والحمل الكبير من أحزان ورثتها كعقار جبلي وعر، وحِمْل والأحزان الأخرى التي سبّبتها المهانات والذل والفقدان.

لا تنسَ يا موسى، لا بدّ أن يروي أحدنا لأن الكتّاب لا يكتبون ما عشته، لا يكتبون ما رأيناه، ولا الرواة ولا المؤرخين. غداً حين نصل سأروي لك سيرتي كاملةً من مسقط رأسي في وادي الدموع في العراق إلى مسقط حبي في تلة سليمان حتى هذه اللحظة التي صرنا فيها صحبة ليل وطريق، وأتلو عليك وصيتي بدقة، كي يكتمل الكتاب الذي بين يديك.

إذا كنت ارتضيت صحبتي فهذا أنا وهذه أوجاعي أضفها إلى أوجاعك. المسرّات لا مكان لها في هذه

الطريق، المسرّات اجعل لها كتاباً آخر، حين تنهي مراسم حرقي على القمة فوق، تحت تلك النجمة التي ترانا من ذلك القصي المجهول".

بكى الطفل في حضن مريم، هددهدته أرضعته من حليبها، لا بدا أنّه شحيحٌ، ناديتها تناولت من حملي حبات خوخ: "خذي كلي هذه الحبات كي يأكل الطفل، غداً سنتدبر الأمر حين نصل".

كنت أردد هذه العبارة على غير عادة، "غداً حين نصل"، "هل تلاحظ ذلك يا موسى؟ كأنه في سابق علمي أني أقصد مكاناً واضحاً هو تلّة سليمان حيث البيت ونبع الماء وبستان الرمان، أو مدينة ساحلية هي بيروت حيث شارع وحي كان اسمه وادي أبو جميل وبيت في الطابق الخامس مفتاحه في عهدة جارتي، حبيبتي هدى، البيت الذي احتله الأمن في غيابي يوم خرجت مع المقاومة الفلسطينية من بيروت، سبق أن قلت إني ضممت مصيري إلى مصيرهم، كان ينبغي أن أفعل ذلك، أنا الغريب الذي لا يملك أوراقاً تثبت مصدره.

أذكر ليلة عدت بعد أن استقبلتني هدى في بيتها المقابل، قلت لها: أحبّ أن ألقي نظرة على البيت، قالت لي: لا أنصحك، عرفت أنه صار غير بيت، لكنّني أصرّيت أن أتفقده، أخذت مفتاحه ودخلت، لم أجد فيه شيئاً سوى صورة عملاقة على الجدار لحافظ الأسد، كانت على الجدار المواجه لمدخل الصالون يبدو فيها مبتسماً ابتسامة ترحيب ماكرة، هم يعرفون أين يضعون الصور بدون تخطيط، هذه صارت عادة كالتنفس، أمّا بقية الغرف فكانت جدرانها ملطخة بآثار الدماء وكتابات من النوع الذي يملأ جدران بيروت "أسد إلى الأبد"، "بطل تشرين"، "بطل التحرير"... لم أفكر بإزالة أي شيء من آثار جرائم تلك العصابة، كأنّي في قرارة نفسي أدركت وأنا أقفل الباب أني سأفعل ذلك للمرة الأخيرة، كانت هدى تنتظرني أمام بابها المواجه لباب بيتي، أعدت لها المفتاح ودخلنا لنكمل ترجمة الأشواق كما كنت أقول لها، ولكن في تلك الليلة تحديداً تحقق حدسي، جاؤوا، نعم، جاءت تلك العصابة واختطفتني، على كل حال هذه الحادثة مرّ عليها الكثير من السنين لكنها لم تبهت كأنّها حدثت ليلة أمس.

كنت أقول: "غداً حين نصل"، صارت هذه الجملة محط كلامي، عليها تهبط عبارات قادمة من غيم بعيد، ونسيانات وبلاد وأحداث وصحبة، وتؤلف تاريخاً لهذا الرحيل... هو الأمل الرغبة التي شحنتها هذه الصحبة.

نعم لا أريد أن أستسلم قبل الوصول. كأنّي أفكّر على هذا النحو.

تابعنا الصعود مشياً، كلٌّ يجرّ فرسه، هكذا دون كلام، وجدنا أنفسنا نسحب الخيل خلفنا تحاشياً للانزلاق. كنت في المقدمة وموسى في المؤخرة وبيننا مريم ورضيعها ونجاة، وقع الحوافر إيقاع يستحضر غناءً عتيقا في البال، هو ذاك الذي يعتصر القلب، حداء قادم من ألف عام غنته قافلة في طريق الحرير في الهناءات العابرة. تخيّلت البيت الذي تحيك فيه الشرنقات حريرها تلك الغابة البيضاء، كم كنت أتسلّل في طفولتي إلى القبو حيث كان أهلي يجمعون أغصان شجرة صغيرة يسمّونها الشيح يوضبونها رفوفاً رفوفاً يتسلّق عليها دود القزّ من معالفه التي تمتلئ بورق التوت ليبدأ رحلة حياكة بيته على نفسه شرنقته، وقبل أن يكمل الدورة بقليل يقطفونه كالثمر من على العيدان ويزنونه ويأتي ذلك التاجر ويحمل المواسم على بغال إلى مكان غامض خلف تلك الجبال. كانت أمي تقول لي: "سيصنعون منه الحرير"، "والدودة التي في داخل البيضة يا أمي ماذا يفعلون بها؟"، "تموت حين يضعون الشرنقات في الماء الساخن...".

وكان يخنقني خيط لا أراه كخيط الحرير وأبكي.

تابعنا الصعود، وقعُ الحوافر يأخذني إلى فلوات سنين بعيدة ويعيدني، حين يفرقع تحت النضوة أحياناً حجر صواني يشرقط ناراً. أحياناً يتدحرج حجر في السفح نحو النهايات ينبّهنا للانحدار الخطر.

نبتٌ عابق برائحة تشبه البخور،
شجرتان في الأعالي متباعدتان كالخصام،
سوداوان كأنّهما ليلان صغيران في السفح.
عنّ على بالي غناء من مقامات العراق التي غنّتها لي جدتي، لكنّ صوتي غائر في أودية نفسي السحيقة.
كنّا نشعر أنّ الهواء يدخل مسام أرواحنا. في السهل خلفنا صغرت الأشياء التي كانت تظهر تحت ضوء القمر، بساتين وقرى مهجورة صارت من هنا أكثر حزناً وهجراً، حتى تلك الطريق البعيدة التي تفلق الجبل أقفرت من الحافلات، تظهر كجرح طويل هدأ نزفه.
رافقنا الصمت في الصعود إلى القمة، فقط حوافر الخيل تفضّه، معلنةً العزم على الوصول، سمعت نهنهةً خلفي، التفتّ، كانت نجاة تبكي على درجة الأسى الذي يؤجّجه الفقد، تمسح بكمّها دمعة استقرت على عظمة الخد، حرّكت في قلب مريم جمر الشوق وفي قلبي، فتدافعت في أعماقنا الحسرات... شعرت الخيل بأحوالنا فاتّسعت أحداقها ومالت بالأعناق كخاطر مكسور، وزفرت كأنّها تنهّدت من حمل في القلب.
ليس أجمل من صحبة الخيل.
كلما اقتربنا من القمة كان شعوري يزداد أنّني أغادر الأرض إلى مكانٍ بعيد في الكون، وأشعر بكثافة من الضوء في داخلي، هذا شيء غريب، تمنيت لو أنّ هذا الشعور مشترك مع صحبتي، سألت مريم الأقرب إلي: "هل تشعرين بالضوء يا مريم؟"، قالت: "اللي في السما أم اللي في القلب؟"، التفتُّ نحوها، لمعت ابتسامة على شفتيها، هذا ما يفعله بعض الرضا والشعور بالأمان، فكّرت بذلك ورفعت وجهي نحو القبّة المقمرة، رأيت سحابة شفيفة كخمار حريري تجلس على حافة القمر، يا إلهي كيف تحتشد في النفس الواحدة كل هذه التناقضات من المشاعر؟؟؟
وصلنا القمة في أول الفجر الذي تورّد في الأفق، رسم حدّاً جمرياً متدرجاً فوق السلسلة الشرقية التي ضاع وراءها كلياً نصف عمري، وحين تقدمنا خطوات والتفتُّ غرباً بدا لي كأنّنا وصلنا النهايات. صهلت الخيل كأنّها جفلت من الأبيض، خفق قلبي حين شاهدت هذا الأبيض، لم نرَ شيئاً سوى بياض يمتد، يمتد حتى الأفق، لا شيء سوى الأبيض، بياض كأنّه يتنفّس فيعلو وينخفض على مهل كأنّه بياضٌ نائمٌ ينتظر الشروق لينهض واقفاً ويمشي، كأنّها صحراء من ثلج تمتد نحو النهاية، رأيت مريم مشرقة وتلك الفتاة بقربي زائغة في الفراغ الأبيض، وموسى ممسكاً برسن الفرس كفارس عاد من الحرب. "من يصل إلى هنا يكتشف معنى الله"، هكذا كان يقول أستاذي الذي أظنّه عبر من هنا كما كل الذين يصابون بمس الرحيل.
حين أطلّت الشمس أول بقعة أضاءتها هي القمة التي نقف عليه كأن أحداً ما هناك خلف الجبل الشرقي سلط علينا الضوء ليتفقّدنا، ذكرتني هذه اللحظة بتلك الحزمات من الضوء التي دخلت من الكوى والشقوق والنوافذ التي أحدثها القصف في السجن كأنّ يد الله سلّطت كشّافات كونية ليتفقّد ساحة الجريمة، هكذا ظننت آنذاك ربما، وأنا أتململ بين الركام لأتدبر أمري.
المكان الثاني الحافر في بالي هو الجبال الغربية في تلة سليمان التي تتألف من سبع قمم متفاوتة الارتفاع حيث كانت تضاء تدريجياً واحدة تلو الأخرى كأن يداً ترشّ عليه الضوء مع بدء الشروق. كنت أسمع صوتاً كعزف على سلم الموسيقى عندما كانت تضاء تلك القمم، هكذا كنت أسمع رنيناً وهي تضاء كأنّ

أحداً يعزف عليها الضوء "دو ري مي فا صول لا سي دو"، كنت أسمع ذلك وأقول لأمي فكانت تقول لي: "صحيح، وأنا أسمع أيضاً"، لكني بعد حين أدركت أنها كانت تجاريني في تهيؤاتي، ربما كنت أتخيل ذلك في وقت لاحق حين بدأت أكتب الشعر، هي مخيلتي أو هي نفسي المهيأة لهذا الجنوح منذ كانت بكراً.

الوصول

وماذا بعد؟

بدأ الأبيض ينسحب مع صعود الشمس على قوس الضحى، لاح في السفح برج دير في الأسفل وبدأت تتكشف أودية كوديان طفولتي لكنّها أكثر غوراً ووعورةً وانحداراً كأنّها لا تنتهي إلى قاع. شيءٌ في قلبي قال لي: "هذا هو البيت الذي تسعى إليه، هذا هو الوصول الذي كنت تقوله لموسى"، شيءٌ في القلب تململ كجنين في رحم.

بدأ يعلو عندي غيم شفيف، هو الشوق الذي أعلمه يقيناً، تركته يفيض وأنا ساهم في فلول الضباب الذي خبّأ ليل الغابة والوادي والصمت، كأنّه ينزاح عن عرض سنكون جزءاً من لاعبيه.

"يا موسى، اكتب يا موسى ما نراه، أخرج دفترك من المزود، مزودك يا موسى يذكّرني بمزود خاطته لي أمي لأضع فيه دفتري الأول وكتابي الأول وقلمي الأول، حملته معي من وادي الدموع إلى تلّة سليمان وحملت فيه صمغ الصنوبر من الغابة التي عبرناها وأهلي يوم الرحيل، أشمُّ رائحته الآن ربما يتصاعد من السفح هناك، وحملت فيه وردة جورية ذبلت في الكتاب ولم أرمها، كنت أشعر أني لو رميتها سأرمي الطفل الذي كنت وأضلّ الطريق إلى البيت... واحتفظت ببرعم في المزود، لم أقدّر أنّه سيصبح قصيدة لشاعر جاء من "البروة" اسمه محمود درويش تعرّفت عليه في بيروت.

أما الصرّة التي كان يحملها الراعي في عصاه على كتفه ويتبعه قطيع الماعز في غابة السنديان نحو الجرود العالية فقد ظننتها التاء المربوطة في الأبجدية، شممت فيها الزهر البري، لاحقاً صارت صرّة الحروف وسرّ الله، فتحتها في بيروت على مائدة الشعراء في المقهى، ضيّفتها كالبن...".

يا لهذا الحنين!...

اعذروني هذا لست أنا، هذا ما فعله بي هذا الغمام الذي كان يغطّي نوم الشجر في هذه السفوح... فضت كلاماً كثيراً ثمّ سكتّ، كانوا يتأملون هيئتي كأنهم عثروا عليّ الآن، بان على ملامحهم شيء كأنّه الحزن المتولّد من الحسرة، كأنّهم نسوا ما بهم ومن أين جاؤوا... بقينا لوقت في الصمت نتابع فلول الغمام، كأننا الطير هبطنا من جديد من سماء عالية إلى الأرض، عدنا إلى الواقع.

"أرأيت يا موسى، التاريخ لا يكتب بالمجاز والإستعارة، كما أقول الآن فيض مشاعري، اكتب ما تراه"...

كانت نجاة تنظر في عينيّ مباشرةً لا أدري ماذا ترى فيهما، شعرت أن الشيء الوحيد العظيم الذي فعلته أنّني خلصّتها من شلعة الذئاب البشريّة التي كانت تتناتش لحمها الطري، أعظم من كل القصائد التي كُتبت والتي كتبتُ، بانَ وجهها في هذا الشروق خمرياً كثير الندوب الطريّة، عيناها خضراوان كعمرها لكنّ كمّ الأسى الذي وقع عليه دفعةً واحدة أضاف إلى عمرها سنوات لم تعشها بعد... غمرتها، قبّلتها في جبينها، كنت أحتفظ في المزود بحبات بلح وخوخ، خيّرتها بين البلح والخوخ، اختارت البلح.

الدرب نحيلة كفكرة تخيط السفح نزولاً، نتبعها قلت في سّري، نصل أو تعيدنا إلى الأول. كأننا نحيك مصيرنا كدودة القز ولكن ليس من قطف للموسم في هذا الرحيل... سنخرج من الشرنقات فراشات تضيع في هذه الغابة. نزلنا في الدرب قافلةً صغيرة، أربعة وطفل وأربع أفراس، أيضاً كنا نسحب خلفنا الخيل كي نتحاشى الانزلاق.

أذكر، في طريق البياض في قرية تلة سليمان تلك الفرس التي سقطت من رأس درب البياض عند بدايات المنحدر حيث تضيق الطريق في كعب القمة بشكل مفزع وتصبح كالخيط فوق وادي الصوان، كنت وأمي نجرّ الحطب، شاهدتها وهي تهوي ويقفز عنها صاحبها الذي كان من الطفّار، ثم راحت تتخبّط بين الصخور البيضاء إلى قعر الوادي، تحايل صاحبها في النزول باتجاهها إلى أقرب نقطة، لم أعد أتبينه بين الهشير والصخور، سمعت طلقاً، قالت لي أمي: "فعل ذلك لكي يريحها"، "يعني قتلها؟"، سألت أمي، قالت: "إذا ما قتلها ستتعذب وتتألم لأيام قبل أن تموت ما في منا نوى". علمت لاحقاً أنهم هكذا يفعلون بالخيل إذا استحال شفاؤها، لكن الناس يتركون للألم يأكلهم ببطء لسنين ولا أحد يتجرأ على أن يريحهم، أو أنهم يقتلون أصحاء في السجون والمعتقلات تتسلى بأجسادهم نفوس حاقدة مريضة أو ينفقون كالقطعان في مطحنة الحروب يصبحون قطعاناً تعدّ للمسالخ.

مرّت هذه الذكرى سريعاً، عدت إلى الدرب، الدرب التي تنزل بنا إلى حيث لا ندري، كانت نجاة متمسكة بطرف قميصي عند الخاصرة، تتعثّر بالحصى، نقلت عكازي إلى اليد التي تمسك برسن الفرس، وأمسكتها من يدها، كانت يدها بحجم إجاصة في قبضتي، طرية باردة، عبر منها إلى روحي خيط من الحنين وكثير من الشوق إلى الطفل الذي كنت، إلى يد رفعتني لأطال حبات البلح من نخيل الدار في وادي الدموع... احتفظت بيدها في يدي، شعرت أنّها لي، يد ابنتي التي ولدت وكبرت في غيابي، كما حدث مع شاكر، الذي ولدت ابنته زانة في غيابه، وكان رفيقي في السجن، وصلته صورة لها وهي في الرابعة عشرة من عمرها، مع رسالة من زوجته سمية تقول فيها إنّها لا تعلم ما إذا كانت رسائلها تصل أم لا، مع كلّ رسالة كانت ترسل صورة لزانة كي يراقب من سجنه نموّها، وهذه معادلة إضافية للتعذيب وإن كانت تحمل في عمقها الأمل فيما لو تمّت، هو لم يرها إلا مرتين قبل هذه الصورة، هي الأخيرة كانت، بعدها صار يستحيل ذلك، لأنه بقي هناك تحت حطام السجن مع تلك القصائد التي كان يكتبها لابنته، ربما كلّ الرسائل دفنت تحت الحطام أيضاً لأن البريد كان يتكدس في غرفة مجاورة لمدير السجن، كان يتسلى بالرسائل، يقرأها كأنّها موجهة إليه شخصياً ويعيدها إلى مظاريفها، لذلك كان يعلم امتداد حياة كل واحد منا، كيف تسير خارج الجدران في مدننا وقرانا وبيوتنا، كان يعرف كلّ هذه التفاصيل، أسماء من يولدون من أبنائنا ومن يموتون من أهلنا، يتتبع أخبارهم كأنّهم سجناء آخرون أو مشاريع سجناء، وكانت هذه الرسائل وسيلة تعذيب نفسي يمارسها علينا.

كان في حالات سأمه يتسلى وينادي على أصحاب الرسائل بالأسماء وليس بالأرقام: شاكر بلال نوري عامر حسان جرجي جبران بكداش زيدان طرابلسي بغدادي أسدي شمران بدران دمشقي... يجمعنا في الباحة وينادي على الأسماء، يكون في مكان مرتفع عند البوابة التي تعلو بضع درجات.

عندما يبدأ بتعداد الأسماء كنت أقع بين رغبتين: أن أكون واحداً من الذين وصلتهم رسالة وبين رغبة أن لا أسمع اسمي كي لا أواجه هذا الإذلال الذي يمارسه على من تصله رسالة، لكن عندما ينتهي من تعداد الأسماء وأكون خارج القائمة أشعر بالمرارة والحزن، في الحقيقة تمنّيت لو تصلني رسالة واحدة خلال كل هذه السنين، لكن لا أحد يعلم أين أنا ممّن هم أهلي وأحبتي، لذلك كنت أبدو بدون مصدر أو نسب أو جذور، كان هذا يؤلمني أحياناً بشكل قوي وأحياناً أجدني متخففاً من معرفة مصير أمي وإخوتي وهدى التي كانت آخر وجه شاهدته ممن أحب وآلف، قبل أن أُخطف من قبل هذه العصابات التي تتصرف بالأرواح والبلاد كأنّها مزرعة للدواجن.

حزني كبير، يوازي هذه الجبال، وقهري أعظم.

شعرت بهذا الثقل وأنا أتذكر ما كان يفعله ذلك الرجل الذي كان أقصى طموحه أن يقلّد رئيس البلاد، كان يدخن السيجار ويضع على رأسه تلك القبعة، قبعة رعاة البقر في الغرب الأميركي، ويحمل المعدّلة في يده ويصوّب على سرب الحمام الذي كان يقتنيه ويمضي أوقاته في التسلية بأرواحنا وليس لنا خيار سوى القبول والانتظار.

كتبت رسائل كثيرة في السجن وقصائد بقيت تحت الركام، كنت أكتب الرسائل إلى الأهل والأصدقاء وهدى ومريم التي ماتت بالسمّ وإلى أمي ووالدي الذي قتل، وكتبت أيضاً إلى قاتله، أكتب الرسائل فقط لا لكي أرسلها، بل لكي أسلمها باليد حين خروجي للأحياء وأقرأها على قبور الذين ماتوا، وهذا بحد ذاته كان يشحنني بالأمل، ولكن خرجت بدونها، نجوت وحدي، تماماً وحدي، وصار الذي صار.

حين يصعد أحد من المساجين نحوه ليستلم رسالته كان يمدّ له حذاءه كي يقبّله قبل أن يأخذ رسالته، وكان صريحاً في هذا النوع من الإذلال والمقايضة، من لا يريد تقبيل الحذاء هو حرٌّ، لا يؤذيه بل كان يمسك الرسالة يقرأ منها بعض السطور ويتوقف عند بداية خبر مثير تحمله، ثم يشعل عود ثقاب بنعل حذائه، وهو متمرّس في ذلك ويتباهى بهذه المهارة، قَدْحُ عود الثقاب بالنعل، وعلى مهل يقرّب الشعلة الصغيرة المتراقصة بين أصابعه من طرف الرسالة، أحياناً عند هذه اللحظة تضعف النفوس حدّ القبول بالذلّ، فكان بعضنا يقبل تقبيل حذائه لمعرفة أحوال الأحبة والأهل، وأحياناً تمنع البعضَ كرامتُه، فيحرق الرسالة بتلذذ ويحترق معها القلب وتتفتّت في الهواء رماداً ويتفتّت العمر وتظهر على ملامحه علامات نشوة كالتي يحدثها الانتصار.

تعرّض شاكر لهذا الموقف مراراً، تارةً يقْبل وتارةً تأبى كرامته تقبيل حذاء هذا اللعين، لكنّ الصور هي التي تجعل الأغلبية يقبلون المقايضة، أكثر من الرسائل، تصبح قبلة الحذاء هيّنة أمام الصورة التي كأنّها إعلان شامل بالعفو، أو أغلى من ذلك حين تكون صورة البنت التي كبرت والصبي الذي دخل الجامعة والحبيبة التي ما زالت تنتظر هناك... قبل أيام من الغارة التي دمّرت السجن جمعنا في الباحة وراح كعادته ينادي: "وصل البريد، الذي يريد يرفع يده"، رفعنا جميعاً آيادنا، ومن منا لا يريد معرفة ما حلّ بالأهل والأحبة والبلاد، ورفعت يدي فقط لأرفعها بحكم العادة وليس أملاً بوصول رسالة.

نادى من على منصته: "أبو حيان"، وهذا لقب شاكر ما قبل دخوله السجن، سمّى نفسه أبو حيان، ولعلّ هذا الاسم كان سبباً من الأسباب التي أدخلته السجن، نادى من على منصته، تقدم شاكر أبو حيان، مدّ له الحذاء ورسالة مختومة، فكّر شاكر قليلاً، ليست لديه أكثر من ثلاثين ثانية كانت تمر بسرعة هائلة عكس زمن السجن البطيء، قال شاكر: "اقرأ لي وبناءً على ما أسمعه أقرر"، كان يسمح لنا بهذا القدر من المساومة التي يتلذذ بها أيضاً، يشعر كأنه تاجر أو عارض بضاعة ويحق للزبون أن يساوم ويتفحص البضاعة رديئها من أجودها، فيقهقه اللعين ويقول لك: "الحق يا خوي شلون تريدني أساوي انتو زباين خوش زباين مو هينين هههههه"، ويقهقه ويدخل في اللعبة ويدخلنا فيها، ونصبح في بازار حقيقي، يا إلهي كيف تروّض هذه النفس وتختلط المهازل بالمآسي! قرأ السطر الأول من الرسالة: "حبي، أشتاقك وتشتاق إليك وردتك زانة، لا أدري لماذا لا تصلني منك أجوبة، سألت ربيع الذي كان نزيلاً في فندقك"، توقف عن القرأة وقال: "شفت شلون يا قوّاد! جالسين بفندق ومش عاجبكن، شو تريدوني أساوي أجبلكن حور العين وساويلكن باربكيو... على كل حال يبدو ربيع مدري شو قايل لمرتك، تحب تعرف إدفع"،

انسحب شاكر، أي أبو حيان، وقال: "لا، لا أريد أن أعرف"، "أنت حرّ لكن الرسالة بعد فيها يتبع، هذي"، ولوح له بالصورة، "هذي الوردة، مالك؟ تحبّ تشم الوردة؟" وأشعل عود الثقاب بنعله وقرّبها من طرف الصورة، صرخ شاكر: "لا أرجوك أبوس إجرك"، صادق من قال في هكذا موقف: "أبوس رجلك"، كلنا في مواقف من هذا القبيل نقول للمعتدي الذي سيمضي في الأذية: "أرجوك أبوس إجرك"، "إجري وقفاي يا وغد"، قال وهو يقهقه، أجابه شاكر: "اللي تريدو" واكتفى بقبلة الحذاء وضمّ الصورة إلى وجهه ثم إلى صدره ونشج طويلاً...

تشبه نجاة، وردة أبو حيان، قلت لها: "لي صديق اسمه ابو حيان بنته تشبهك تماماً ومن عمرك، وعيناها خضروان مثل عينيك، وشعرها كستنائي مثل شعرك"، سألتني: "وينهن هلأ؟"، أربكني سؤالها، هل أروي لها الحكاية؟ تساءلت ثم أجبتها وكذبت: "هم في بيروت حيث كنت أعيش، "أنا أعرف بيروت، قالت، بابا كان يشتغل هناك بالعمار، أخدني أنا وماما، حلوي بيروت"، لا أعرف ما إذا كان علي أن أحدّثها أم أبقى صامتاً، يبدو أني تمنيت لو لم أقل لها ما قلت لأنها ستجرّني إلى تأليف شيء آخر غير الحقيقة، فتحت على نفسي باباً لا أدري أين سيفضي.

ما زالت يدها في يدي ملمسها كملمس طير، لكنها أصبحت أكثر حيويةً وحرارة، كأنّها كانت خارج الحياة تلك اليد الصغيرة التي اصطحبها في هذه الدرب إلى حيث لا ندري، خلفنا مريم والأفراس وموسى، وخلفنا زوبعة نحيلة من الغبار المتصاعد من حوافر الخيل، سألت موسى لأتجنب المزيد من الكذب فيما لو تابعت أسئلتها: "أين عثرت على هذه الخيل يا موسى؟"، وبالحقيقة لا أكذب، كنت أريد أن أعلم من أين جاء موسى بالخيل وأجّلت ذلك، أجابتني نجاة أنَّ هناك مزرعة في البستان مليئة بالخيول، كنت أعرفها كان عمي يعمل فيها، "جيد"، قلت، أضاف موسى: "هذا من حظك، لولا الفرس التي تسحبها لما كنا وصلنا إلى هنا"، وتمعّنت في الخيل الذي معنا فوجدت أنّنا بصحبة حصانيين وفرسين، سألت موسى: "هل تقصدت أن يكونا ذكرين وأنثيين؟"، أجاب موسى أنها صدفة. "رائعة هذه الصدفة، تبدو الخيل في مقتبل عمرها، ثم أنت تحب الخيل والكلاب"، أضاف موسى، "صحيح، قلت، ينقص هذه الصحبة كلب، ليس أجمل من هذه الألفة، أنا أحبّ الكلاب". أخذت نجاة طرف الحديث: "كان عنّا زمهرير، لونه بني، كان كلما شاهدني ينتفض ويقفز على صدري، سمّيته زمهرير لأنّه حين ينتفض يظهر كأنّه بردان بس..."، سكتت لم تكمل، شعرت أن شيئاً أرخى بحمله عليها وعلينا ثانيةً، هو ما بدا لنا لدقائق كأنّه صار في النسيان، هو تماماً الذي صار خلفنا في المنقلب الآخر للجبل هذا، لهذه الحدود التي كأنّها الفاصل بين الموت والحياة، علمت أن كلب نجاة لم ينجُ كما الأهل، هكذا قال صمتها، وهكذا قال الدمع في عينيّ مريم التي كلّما بكت تهدهد ابنها كأنّه هو الذي يبكي.

بعدنا عن القمة، صرنا في منتصف السفح نتبع معالم الدرب، نحن على كتف وادٍ يبدو أنّ الذين جاؤوا قبلنا ومرّوا من هنا أمضوا بقية أعمارهم ممسوسين بهذا السحر، توقفنا في متسع من الدرب، يبدو أنّ أحداً منذ زمن بعيد مهّده كمحطة للاستراحة أو هو تأليف كوني، أرض منبسطة في السفح تتوسطها بضع أشجار من السنديان كأن هناك مقاماً لوليّ أو قدّيس، ثمّ سمعنا صوت جرس في البعيد هو جرس كراز الماعز، هو باقٍ في بالي كما القلب الذي يخفق في صدري، ردّني إلى أوّلي، طيّرني إلى سفوح تلّة سليمان. "هذا أجمل ما سمعت"، قلت لنجاة. "أنا أحب صوت جرس الراعي"، قالت، "وتحبين حليب الماعز؟"، سألتها، "أحبه"، قالت دون إضافة، مقتصدةً في الأجوبة كما في الحزن.

اقترب صوت الجرس ونبحت الكلاب، شمّت رائحتنا، جفلت الخيل، هدّأتها وربطناها إلى الجذوع النحيلة لشجيرات تبدو حديثة الولادة في هذه العائلة الشجرية، هما كلبان لا أكثر يتناوبان على النباح التحذيري، من الواضح أنّهما يجريان باتجاهنا من مطرح في الأسفل جهة الشمال غير بعيد. وصلا قبل الراعي، كلبان متوثّبان كلمتهما بالودّ الذي تعلمته من صحبتي مع فرند، فرند كلبي، بعد قليل بانَ الراعي ومعدّلته على كتفه، وصلت رائحة الماعز قبله، هدّأهما وهو يتفحّصنا وكأنّه معتاد على زيارات مماثلة لهذا المكان، جلس على حجر، كذلك الأمر بالنسبة إلى الكلبين الذين تمددا قربه كحرسين منهكين، وطلّت طلائع القطيع متراخيةً تزفر وتعطس والجدايا تثغو، يتبعهما بغل على ظهره عدّة الراعي وخيمة من الشعر وزاد وقربة ماء، رقبة البغل مزينة بالخرز ذكّرتني بموال جدتي يوم خروجنا من وادي الدموع...

عبق الغبار والرائحة، تمدّد القطيع في السهلة كأنّه بسط سوداء فرشت الأرض، بسطت فوقنا خيمة من الأمان، هكذا شعرت وهي تتمدّد بكامل سوادها.

سألنا الراعي الذي عرّف بنفسه أيّوب، وعرف بكلبيه الريح والردّاح، لا أدري كيف نختار أسماء كلابنا، دائماً نسعى إلى الأسماء الموحية بالشدّة، على كل حال أعجبتني نهاية الاسمين الريح والردّاح، هذه الحاء فيها ريح وبرد. "جايين توفّو ندر؟"، سألني دون علمه بما أفكر، وحتى لو قلت له عن سبب إعجابي بأسماء كلابه لا أظنّ أن تحليلاتي الألسنية ستضيف له شيئاً أو تحّرف سؤاله عن مبتغاه أو تعدّل فيه، وجّه سؤاله إليّ مباشرة، هي هيئتي التي أملت عليه لمن يتوجّه بالكلام، قلت له: "نعم، أتينا لنفي بندر"، وضممت نجاة إلى صدري كي أوحي له أنها هي المعنية وأتينا لنفديها هنا، ثم سويت لها مطرحاً قربي، وضعت لها قميصاً من أسمالي على حجر. أدركت أن أيّوب إضافةً للرعي يقوم بخدمات إضافية وهي أن يبيع جدياً للذين يأتون للإيفاء بندر قوامه ذبيحة يشارك أيضاً في أكلها ويحمل منها للفقراء في قريته التي في أسفل الوادي، التي اسمها "مراح السد"، قلت له: "الندر هو أن أبادل هذا الرشاش بجدي تختاره أنت"، نظر إلى معدّلته وقال: "معي واحدة، لشو عازة التنتين، شو بدي أفتح معركة؟ هههه، هيدي المعدّلي صرلي سني ما قوصت ضرب فيها، تخريع، تخوف وحش..."، قلت له: "هذا هو الندر يا سيد أيّوب"، هزّ رأسه حيرةً، واضح أنه لا يريد هذا النوع من المقايضة، فقلت: "أنت أدرى، لازم نوفي الندر بشرطه".

الحقيقة كنت أقصد ما أقول وليس تهّرباً أو تحايلاً على الراعي، رغم أنّي لا أؤمن بهذه العادات، ولكن وجدت أن أفدي نجاة ومريم وابنها على هذا النحو، أريد التخلص من آلة القتل، آلة القتل التي أرهقتني فعلها أكثر من حملها. قلت له: "بكل الأحوال خذه، أنا لا أريده بعد اليوم"، رفضه أيوب، كما لو أني أطلب منه أن يقتل به أحداً عزيزاً عليه: "لالالا أرجوك أبعده من وجهي لا أحبّ هذا السلاح أكرهه من زمان، يذكرني بما لا أريد أن أتذكره، وإذا كنت لا تملك ثمناً للجدي أنا أفدي هذه البنت بجدي من قطيعي، اختاري واحداً". قلت له: "لا، فداك يا أيوب لا نريد دون مقابل"، أقسم أيوب أنه لا يقبل إلا أن يذبح لنا جدياً، قلت له: "نقبل ذلك ولكن بدون أن تذبحه"، كأنّي قلت ما تمنته نجاة، قالت: "نعم، أريد أن أحمله معي" واختارت واحداً له نجمة على جبينه، قال أيّوب: "هذا أجمل ولادات هذا الموسم".

تمنيت لو أني أستطيع أن أشتري أنثى لهذا الجدي، كي أبدأ من جديد الحياة الأكثر نقاءً في هذا العالم، سرحت عيناي في القطيع وهو يجترّ بسعادة عدتني، سألت موسى: "ماذا في مزودك يا موسى غير الدفتر؟"، عرف موسى مقصدي، "أريد أنثى لهذا الجدي"، سألت الراعي: "نريد أنثى"، موسى يدفع لك ثمنها... وهكذا أصبح لدينا نواة قطيع، صرنا عائلة رعوية، فرحت كما لو أني طفل عثر على أمّه التي ضاع

منها في الأحراش، فرحت وصرت أداعب الجديين كطفلين. تناول أيوب عن ظهر البغل وعاءً، اختار واحدة من الماعز وحلبها، "هذا الحليب يقوي العزيمة ويشفي من الحمى، ليكن بيننا خبز وملح"، ودار الدلو علينا، شربنا وبقي في الدلو فقام بدورة ثانية لأن الحليب يفسد إذا بقي ولا يجوز أن نرميه. أعطيته حبة بلح من كيسي، "هذه تضاعف عزيمتك، طيبة مع الحليب، ذقها"، فعل موسى وهمهم وهو يمضغها بلذة وشهية: "وين بيزرعو شجرتا هيدي الثمرة؟"، قلت له: "هناك" وأشرت وراء الجبل وتركته يقدّر المكان أو يتخيله.

نهر أيوب القطيع، تململ وانتفض القطيع، تثاءب الكلبان ونهضا لمزاولة المهمة، عبقت الرائحة والغبار، ثغى الجديان، كان أحدهما في حضن نجاة والآخر في حضني، تململا ليلتحقا بالقطيع، بدا ثغاؤهما كالبكاء، اعتصرا قلبي، "يا الله! ليس من شيء كامل"، قال أيوب، "هما مفطومان من زمان، يأكلان كالتنايا أطراف السنديان، لا تخافوا سيتعودان، ثم أنا في الجوار هنا حتى نهاية الخريف، أستطيع أن أضمهما إلى القطيع إذا كنتم في مطرح قريب". بّرد كلامه لهيب قلبي، غاب القطيع، ابتعد رنين جرس الكراز، قطفت طربوناً من سنديانة فتية وأعطيته لنجاة، أطعمتهما فأكلا. خفّت الغصّة التي في حلقي عليهما، ارتسمت ابتسامة على فم نجاة كحبة كرز. مريم تهدهد الطفل وترندح.

عجيبٌ أمر الزمان يا موسى، وجهك خير علي وصحبتك ذهب، لم أكن أتوقع نهاية حياتي كما بدأتها، أن أعود راعياً، أجمل الكتابة هي التي تعيشها، اكتب يا موسى أني عدت إلى أولي، ما رأيك يا نجاة؟، سألتها، وأجدها دائماً تنظر في عينيّ، ليتني حملت مرآة الكولونيل تلك التي تركتها في الصومعة مع القنديل، كي أرى ماذا ترى في عينيّ، "جميلة أنت يا ابنتي وحبيبتي، أنت أجمل شيء عثرت عليه في رحلتي، في حياتي كلها. أوصيك يا موسى بهذه الحبيبة في غيابي وأوصيك بمريم وبابنها وبالخيل وبقطيعي المؤلف من جديين... ساتلو عليك الوصية كاملة حين نصل البيت". ضحك موسى من تكرار هذا الوعد فقال لي: "أعلم يا معلمي" وضحك، جميلة ضحكتك يا موسى.

أظنّ أنّ موسى يعلم تماماً أنّ البيت الذي أقصده ليس كالبيت الذي نولد ونعيش فيه، وفيه تلك الأشياء التي نجمعها ونقتنيها وتصبح عبئاً علينا بعد حين، لكن لا أعرف شكل البيت في مخيلته، هل هو غامض مثل الذي في مخيلتي، أو ضبابي، أنا لا أعرف تماماً أين هو ومتى أصله وكيف سأصله مع صحبتي هذه التي زاد عديدها في الطريق، وقد تكبر أكثر كلما طالت الدرب وبعد البيت. كنت وحدي كل هذه السنوات، خلال نهار وليل صرت عائلة رعوية ترتحل مع الفصول، طربت لهذه الفكرة، فرحت كثيراً أنّه صار لي هدفٌ أسعى إليه وكنت سابقاً أمشي دون غاية واضحة أو هدف مستسلماً للتّيه ككتلة من العشب تتقاذفها الرياح في تلك الصحراء التي قطعتها وتأملت الكثير من تلك الكرات العشبية الحائرة في هبوب الهواء.

بعد القطيع بقيت بعض رائحته عندي وبقي منه الجديان، رأيتهما ينظران إلينا في ريب، هما مثلي لم يتوقعا أن ينفصلا عن قطيعهما ويصبحا في غير حال ومصير. "اطمئنا، قلت لهما، ستكونا سعيدين بصحبتنا، نحن مثلكما جمعتنا الصدف فأصبحنا عائلة بدون عقد، ما يؤلف بيننا الود والكرامة والحب بدون كلام أو مساومات أو غاية، جمعتنا الحاجة للأمان". كان الجديان يصغيان إلى خطبتي كطفلين يدرّبهما أب على منازلة الحياة، ضحكت نجاة حين وجدتني أحدّثهما كأنّهما يفهمان ما أقول، هي خصلتي تعلّمتها من السجن كنت أحدّث الطير الذي يعبر والأشياء وكلبي، بالطبع هما لا يفهمان ما أقول، يشعران بالذي أقوله... وهذا ما أريد وقلت ذلك لنجاة.

لم تهدأ عين مريم، كلما نظرت إليها أجد دمعة تكرج على خدّها، رأيت واحدة تلمع تحت أشعة الشمس

التي تتسرب من بين أغصان السنديان، وصلت حدّ غمازة على طرف فمها، قلت لها: "أعطيني هذا الطفل لأحمله قليلاً، سأختبر هاتين اليدين في ضمّ الحياة". حملته بين يديّ، لم أقرّب منه وجهي خوف أن تزعجه لحيتي، لكنّي قرّبت قلبي، أو هو الذي اقترب منه ففتح ضلوعي واستقر، يا إلهي كيف تولد المشاعر كالأجنة! يمكن لي أن أكون أباً وإن لم تكن مريم زوجتي، أصلح أباً ولكني لا أصلح كزوج.

كان صمت مريم حاداً يقطع القلب وهي تتابع احتضاني لوليدها، تلفتت نحوي كأنّها سمعت ما فكرت به وابتسمت، خفق قلبي وسمعت جريان ماء غزير يتدفق في داخلي، أعطيتها الطفل، كان نائماً، ترى هل الأطفال في عمره يحلمون؟ لم أسألها، فكرت فقط. بدأت الشمس انحدارها نحو المغيب، تذكّرت برج الدير الذي شاهدته من على القمّة، كان موسى يدوّن وقائع ليل مضى ونصف نهار، اكتب يا موسى أننا تابعنا جهة الدير. ومشيت وتبعتني القافلة.

سمعت صوت جرس الكراز يدندن والراعي يغنّي، وهذا يجعلني كاملاً في الحنين دون نقصان، طواني الصوت قليلاً، سألتني نجاة: "لماذا انحنيت؟ هل يؤلمك ظهرك يا عمو؟"، قلت لها: "يؤلمني غناء الراعي يا نجاة، يكسرني هذا الصوت، يحنيني هذا الصوت"، هزّت نجاة رأسها، لا أدري ماذا قال لها جوابي، سمعت موسى من الخلف يقول: "ستقتلك العاطفة يا معلمي، سيقتلك الحنين".

أعلم يا موسى أنّ حنيني سيقتلني.

الدير

كنّا ننزل الدرب كرعاة عائدين بدون قطعان، وكانت الشمس تواجهنا وتصبح مرّة عن يميننا ومرّة عن يسارنا حسب تعرجات الدرب التي تحيك السفح نزولاً نحو الدير الذي ظهر أمامنا على لسان صخري فوق الوادي، شبيهٌ هذا المكان بتلك الصخرة التي تمتد فوق النهر في تلة سليمان حيث كانت زينب تستحم في الضحى وكنت صغيراً وشقياً أتلصّص عليها من الدغل خلف الصخور، لكنّه هنا يبدو كأنّه من أعاجيب الدنيا. من عمّر هذا الدير على هذه الصخرة في هذا السفح! تملكتنا الدهشة مضاعفةً عن دهشة الصبح، كأنّ الغمام عند الصبح هو غطاء لنوم هذه الوديان. تدرّجنا في الدرب يشدّنا خيط من سحر هذا المكان الغامض، ويشدّني خيط من الحنين إلى شيء يشبه الضوء يلمع في بالي ويغيب، يجذبني كالسحر. ترى هل من أحد هنا في هذا الدّير أم أنّه مهجور مثلي قبل هذه الصحبة وينتظر من يقرع جرسه؟ أول شيٌ خطر ببالي حين أصله أن أدقّ الجرس حتى الإنهاك... أشتاق لهذا الصوت كاشتياقي لأمي.

صهلت خلفي الفرس وحرنت، توقفت القافلة، لا بدّ أنها فزعت من شيء، ثمّ سمعت طلقاً نارياً أجفلها أكثر، هدّأتها، تمسّكت نجاة بخصري بيديها الاثنتين، شاهدت رجلين ملثَّمين يعترضان الطريق، "من أنتم؟" سألنا أحدهما، سارعت على الفور وقلت له: "هذه أسرتي، نحن رحّلٌ من البدو لا وطن لنا ولا بيت، بيتنا هذا" وأشرت إلى صهوة الفرس، "شو حاملين معكن؟" سأل، "كما ترى، لا شيء سوى ما نقتات به ونشربه، حيث نحط الرحال نتدبر أمر العيش من الرعي والزراعة"، "وأين قطيعك؟"، "هذا قطيعي"، أشرت إلى الجديين، ثم استدركت، "هذا ما تبقى منه، قلت لك من نحن، لم تقل لي من أنتم؟"، لم يجب بل تابعا صعوداً في الدرب، تبدّد الخوف، لكن ليس تماماً، قال موسى: "أظنّ أن مثلهم مثلنا هاربون من مكان ما وجائعون"، خفت أن يعودا ويأخذا جدياً، لكنّهما واصلا المشي بسرعة، لعلّني قدّرت من لهجتهما أنّهما من تلك القرى التي تحترق خلف الجبال، بدون شك لقد خرّبا هذا القليل من الصفاء الذي رافقنا ونحن نسعى جهة الدير، لكنه بدأ يعود ببطء، كأن الصفاء أيضاً حذرٌ ممّن يعكره.

اكتب يا موسى أن لا أمان حيث يسلك البشر.

تابعنا نحو الدير ودائماً نسحب الخيل خلفنا، كأنّ الدير يغيّر موقعه أيضاً ونحن نحيك الدرب، أحياناً نضّيعه فيعود ويظهر حين نكمل الدورة.

حين وصلنا المفرق الذي قدّرت أنه الطريق إليه بان الجانب الشمالي منه والدرب إليه عبارة عن جسر خشبي نحيل يمتدّ فوق وادٍ فرعيّ سحيق يلتقي بالوادي الكبير، حتى بدا واضحاً أنّه قائم على جبل بين واديين يمتدّ منه لسان صخريٌ يشكّل ساحة الدير المشرفة على الغرب.

خفنا أن لا يحملنا الجسر إليه لذلك قررنا أن نقطعه على دفعات واحداً واحداً وكلٌّ مع فرسه، وبادرت أن أكون أول العابرين، أن أختبره، حملت جدياً وسحبت فرسي، طقطق الخشب تحت حافر الفرس واهتزّ الجسر، لكن ليس بالمقدار الذي يخيف أو الموحي بأنه قد ينهار، كلما تقدمت كنت أشعر أكثر بالاهتزاز وبخيط من الخوف، الخوف من أن أسقط وأموت، كنت لا أريد الموت بهذه الطريقة، ولم أعد أرغب فيه كما كنت قبل يومين ليس أكثر، لأنني شعرت بمسوؤلية عن الذين صاروا بعهدتي، ثم أني أحببتهم وأريد أن أحبهم أكثر وأطول وقت ممكن وأبقى معهم إلى الأبد، ألفت هذه الصحبة وصرت أسيرها، ملكها ولست

ملك نفسي فقط، أنا ملك نجاة وموسى ومريم وابنها الذي لا أعرف ما اسمه وملك الخيل والجديين، علي أن أعيش بعد كي تكتمل الصورة ويكتمل كتاب موسى.

خفت من رغبة العيش الملحاحة لأنها تعني ما تعنيه، حدسي يقول لي أنّ الأفول قد دنا، نظرت إلى الأسفل نحو القاع شاهدت غزالين يقفزان، يا الله، كأنّني في منام، رأيت مشهداً من هذا النوع في كتاب أو في فيلم قديم شاهدته في بيروت...

نظرت خلفي بانت الصحبة تتابع تقدمي كفاتح للمجهول كمغامر نازل مباشرةً الخطر وامتحنه كي لا يقع فيه الآخرون، لوّحوا لي بالأيادي، لوّحت لهم بعكازي، منذ زمان لم أرَ يداً تلوّح لي، آخر مرة لوّحت لي هدى على المينا يوم ضممت مصيري إلى مصير أناس لا أعرفهم وركبنا البحر، أمّا في ليلة اختطافي من بيتها في بيروت فقد لوّح لي القلب...

أحببت أياديهم، صرت ألوّح بعصاي وأتقدم وأسرق النظر إلى الخلف، الجسر يهتزّ وقلبي يخفق، سألت فرسي: "أنت خائفة يا أصيلة؟"، رأيت وجهي في حدقة عينها الواسعة طويلاً بلحية بدت كخيط، ضحكت من مظهري، وغالبت خوفي... قطعت مسافة طويلة في الجسر الذي بدا أكثر طولاً من موقع الانطلاق من بدايته، تضاعف لمرات حجم الدير أمامي، أصبح أكثر رهبةً وغموضاً وضخامة. بقي ربع الجسر وأصل. خلفي تزاول الصحبة وقائع العبور، بدوا صغار الحجم من هذه المسافة وقليلين... خطوت آخر خطوة من المسافة ووضعت قدمي السليمة على التراب وعببت قسطاً كبيراً من الهواء، شعرت أنّ الفرس أيضاً كانت تحبس أنفاسها، والجدي الذي كان يتابع المشهد الذي يراه في السفح لعلّه كان يظنّ أن الدنيا تمشي به.

سمعت هيصة خلفي، كانوا يبتهجون بوصولي، أومأت لهم بالعكاز ورفعت شارة النصر، للمرة الأولى أرفعها في حياتي، ثم شاهدت موسى يحزم الجدي على سرج الفرس، تقدمت نجاة وأمسكت الفرس من رسنها وسحبتها وبدأت رحلة العبور، فكرت أن أغمض عينيّ كي لا أراها تعبر الجسر، أردتها أن تعبره دون أن أراها لكنّني لم أستطع، أكلني خوفي، حين رأيتها تسحب الفرس، المحملة بالجدي، خفت أن تجفل الفرس، ناديت على موسى أن لا يفعل لكنه لم يسمعني، اكتشفت أن صوتي قد خسر الكثير، فالمسافة بيني وبينه ليست بالبعد الذي لا يصل فيه الصوت. كان صوتي يعود إليّ بعد حين، أحب هذه اللعبة، لعبة الصدى، ولكن ليس وقتها الآن... كنت ألوّح له بالعصا لكنه واصل ما يريد فعله، ربما يسمعني لكنّه قرر هذا التوزيع بحيث قدّر أنّ وزن البنت مع الجدي يساوي وزني، لعلّه أصاب، وقدّر أنّ الجسر يبقى آمنا تحت هذا الحمل، لا بأس، ارتضيت بواقع الحال. بدأت نجاة رحلة الألف ميل، كأنّها في كل خطوة تدوس على قلبي، أغمض وأفتح عينيّ، أريد أن أرى ولا أريد، بعد وقت بدا لي بطول نهار غائم وصلت منتصف الجسر وفجأةً توقفت الفرس، حرنت هناك وسط الجسر، شعرت أنّ قلبي هبط إلى أسفل بطني، ناديتها بما أوتيت من صوت أن تتركها وتواصل التقدم... اتركيها يا نجاة وتعالي، لا أعرف إذا كانت تسمعني كأنّ الصوت هنا يسقط إلى القاع قبل أن يواصل مساره، كان صوتي يعود إليّ، سمعت موسى يطلب منها أن تترك الفرس وتتابع نحوي، لكنّ نجاة أصرّت أن تجرّها، والفرس معاندة، صارت تبكي، كان صوتها يصل نحيلاً جارحاً وهي تنهر فرسها وترجوها أن تمشي، فكرت أن ألاقيها لكني خفت أن أشكّل حملاً زائداً ولو خفيفاً لكنّه قد يكون كافياً لسقوطنا. اتركيها يا ابنتي أرجوك، لا أدري ماذا خطر ببالها، رأيتها تحاول أن تمتطيها، كيف ستتدبّر ذلك؟ كيف سيتسع لها السرج والجدي محزم وسطه؟ رأيتها تفكّ الجدي وتنزله ثم

حملته وتركت الفرس وتابعت نحوي، كنت خدراً مذهولاً كأنّي لا أصدّق، عندما صارت في الربع الأخير من الجسر تبعتها الفرس، شيء عجيب، وصلت، حملتها شممتها ضممتها، وصلت الفرس أيضاً، قبّلتها، لا أدري لماذا حرنت هناك، للخيل طباع كمزاج الناس، ربّما لم ترد أن يمتطيها غير الإنسان، أو أنها شعرت بخطر ووقفت، وهذا ما قدّره موسى أيضاً، لحظات مماثلة من الخوف تكررت حين عبرت مريم بطفلها تسحب خلفها حصاناً أسود له خط أبيض على ظهره وغرّته خليط من الأبيض والأسود وله نجمة على حبينه، بدا يشبه القصيدة التي كتبها الشاعر محمد العبد الله في وصفه لدونكيشوت:

فاضي المدى وما في حدا/ عم يلحقو خيالو/ عحصان ماشي على/ وخايف عخيالو/ عطول بترشق حكي/ وموسوس بحالو/ ولمّا طواحين الهوى/ بتطحن هوا قبالو/ بعنّ عبالو الهوى/ وبتتأل حوالو/ وبيصير يطعن بالهوا/ ويلعب على حبالو.

كنّا نغنّي هذه القصيدة في ليالي بيروت زمن الهناءة المسروقة... كأنّ الحصان قلبه على مريم كان ينقل خطوته خلفها بحذر وعلى مهل.

جميل حصان مريم، يليق بحزنها، أسود حصان مريم، يليق بانكسارها.

وصلت مريم وخلفها "الليل"، سمّيته "الليل"، صهل واتكأ بعنقه على الفرس البيضاء فاشتعل اللونان في عقلي. أمّا موسى فقد رأيته يركب حصانه الأشهب ويمضي صعوداً، وقف على المرتفع، لوّح لنا بيده، شعرت كأنّ شيئاً طار من روحي نحوه، وقف هناك لدقائق كأنّ الزمن توقف، لا أدري ما الذي جعله يفعل ذلك، ثم ترجّل وجّر حصانه نحونا، لم أخف على موسى لسبب أنّ الجسر يحتمل هذا الثقل وموسى له خبرة في الخيل، لكنّي حرت في قراره بالتخلي عنا. حين وصل قال: "فكّرت أن أعود إلى حيث تركت الفرس الجريحة، لكني لم أستطع".

تجمّعنا على كتف أرض الدير، غمرتنا لحظات فرح كأننا التقينا بعد شتات طويل. أوقفت لحظة العبور أحزاننا، أو أجّلتها، كان الخوف والترقب والفرح بالوصول هو ما يطغى على المشاعر، ثم سلكنا الدرب نحو ساحة الدير، ليست بعيدة لكنّ التوجس جعلها غير قريبة، مررنا بمحاذاة جدار يرتفع نحو القمة قبل أن نطل على الساحة حيث يصبح الدير كأنّه جزءٌ من الجبل، بعضه محفورٌ في الصخر وبعضه فوق لسان صخري بدا منصةً كونية حطّ عليها هذا البناء الأسطوري بكل بهائه. البرج هناك على يمين الدير يعلو، كان وحده يخترق السحاب حين لاح لنا من على القمّة عند الصبح. لا يوحي هذا المكان أنّ أحداً يقيم فيه حتى تلك اللحظة التي كنا نستكشف فيها المعالم، من جهة الغرب سور مرتفع يلفّ الساحة تقدمنا نحوه، شاهدت في الأسفل السحيق كالنسيان مرجاً يتوسّط الوادي على جنباته بيوت رعاة ومزارعين، كأنّ هذا المكان هو قطعة من غير زمان وكوكب، جُعلتْ هنا لسبب لا أحد يعلمه.

"هذا هو البيت؟"، سألني موسى، أجبته: "هذا هو البيت نعم لكنّه ليس الذي كنت أريد الوصول إليه، بظني أنّ الذي كنت أسعى إليه لا وجود له إلا في بالي، هو هناك جهة الروح...".

ومشيت باتجاه البرج، الجرس عالٍ في القبة، هائل في صمته بجانبه جرسان أصغر منه حجماً، يتدلى الحبل من الحلقة كرغبة، كنداء، اتضح أكثر خيط الحنين عندما صرت قريباً منه، عنّ ببالي أن أدقّ الجرس في هذا الوقت قبل الغروب، الشمس تماماً على نهايات الوادي في البعيد حيث لا نرى إلا الأزرق يمتدّ، صحبتي تقف عند السور تتأمّل القاع السحيق، والخيل على طرف الساحة في المرج الذي يفضي إلى

جلول تبدو كسلّم نحو السماء، مشى خلفي الجديان، اشتما فيّ رائحة راع قديم، فرحت بهما، ما أجمل هذه الكائنات!

أمسكت الحبل سحبته نحو الأسفل فرفعني قليلاً، سحبته أكثر رفعني أعلى، في المرة الثالثة لمس الناقوس الجرس خفيفاً، طنّ صوت كأنه وقع من السماء، حرّك شيئاً نائماً في قلبي غفا منذ غادرت تلة سليمان، طار زوجٌ من الطير كانا في البرج. سحبت الحبل بعزم في المرة الرابعة، صدح الصوت النحاسي فوق ثم سقط إلى قعر الوادي، ردّه السفح للسفح المقابل ككرة ضوء كأنّي شاهدتها سمعت ثلاثة أجراس تدقّ، ثمَّ ضاعفتُ عزيمتي لأضاعف ضربات الناقوس فصرت أسمع زغاريد أجراس، يبدو أنّ الجرسين الصغيرين أصيبا بعدوى الصوت فأخذا دورهما في الرنين، كانت الأصوات تتدفق ككرات نحاسية تتساقط على أرض رخامية وقلبي تتسارع دقاته كأنّه يعدو بدوني، رأيت الطيور تهبّ من السفوح وتحلّق عالياً، ووجدتني أطير وقلبي يطير، كان الحبل يحملني إلى فوق والصوت يحملني إلى مكان قصيّ، كنت أسمع ألف جرس وطنين، كانت الوديان تشارك دق النواقيس والجبال تردّ الصوت، كنت أرى أنّني أتأرجح في الهواء صعوداً وهبوطاً، بعد حين لم أعد أشعر ببدني، أُصبت بنشوة من الخدر، ثم شاهدت نفسي أطير خفيفاً فوق الوادي كريشة عصفور، تحيط بي صنوف من الطير بألوان قوس قزح كأنّها تشيّعني نحو الشمس الغاربة... مرّ وقت طويل وكنت أعلو أعلو محاطاً بأسراب من الطيور، ثمّ سمعت صوتي أتلو على موسى وصيتي، نعم سمعت صوتي يجيء من بعيد:

"لا تنسَ يا موسى أن تحملني على دابة تحمّلها وزني حطباً، اصعد بي إلى القمّة وعدَّ لي محرقة لا تبقي مني إلا الرماد، لا تدع النساء يرافقنك في رحلة الحريق، قل لهنّ إني أحمله إلى بلدته تلة سليمان جهة الشمال لدفنه حسب الوصية قرب الولي إسماعيل، اكذب عليهنّ لا بأس أن تكذب قليلاً كي لا يتألمن من مشهد النار تأكل هذا البدن الباقي من رحلة طالت بي، قلْ لهنّ الدرب بعيدة، دعهنَّ ينتظرنك هنا، هناك باب في الدير من جهة الجنوب افتحه تجد حجرة وأسرّة وسلّماً نحو القبو، هناك مؤونة ونبيذاً دلّهن على الباب وعلى المؤونة، قمح وطحين وزيت ورمّان وعدس وشعير، واحمل معك بعض النبيذ إلى القمة، واحمل كأسين من خشب السنديان تجدهما على رفّ فوق الخوابي.

حين تبدأ النار بالتهامي اشربْ نخب الأيام التي جمعتني بك، نخب البلاد التي ستزهّر حقولها بعد رمادي، ونخب أهلي في الشتات نخب تلك الامرأة التي جمعت تبعثري في بيروت، هدى، أشاهدها الآن تكتبني هناك في شقتها في وادي أبو جميل، تكتب عن ليلة العشق والموت، اشرب نخبها يا موسى ونخب بيروت، مدينة الولادات والرحيل، اشرب نخب الزمان كاملاً في صفائه واعتكاره، وأعطني كأساً، سأخرج من ناري وأشربه، أوصيك يا موسى بالبلاد، لا تنسَ أن تكتب ما ترى يا موسى، كما أوصاك أستاذك حامل اسمي وشريك حزني، لأن الكتّاب لا يكتبون يا موسى، الكتّاب يؤلّفون أوجاعهم ومسرّاتهم، يهربون في المجاز كي لا يقعوا في المباشرة، قلت لك ذلك وأكرره، اكتبْ يا موسى عن مريم وهي تفرّ من النار إلى النار لتخلّص وليدها، اكتبْ دموع البنت نجاة ابنتي وحبيبتي، اكتب كلّ ما رافقنا في صحبة الشتات هذه ونحن في طريقنا إلى البيت، وقلْ البيت بعيد ولكنّنا مشينا، مشينا وصار لنا صحبة من الخيل النبيل والماعز البهي، ألّفنا حياةً في هذا المسعى يا موسى، أتسمعني يا موسى؟ لقد ألّفنا حياةً، اكتب يا بني عن حبات البلح في كيسي هي التي أبقتني حياً، اكتب عن كل ما رأيته في دربي من السجن إليك، عن صحبة الطير، عن الكلب الذي وددت وضاع مني، سمّيته فرند، وفيّ حتى الموت، أشتاقه كما أهلي.

يا موسى، لم أخطط لهذا المسار ولكنّي هكذا بدأت من النسيان الكامل إلى التذكر إلى صحبة العدم فالشجر في شجرة السدر التي احتميت بها في ظهيرة القيظ وقطفت منه طربوناً لردِّ الهجير، فصحبة الحيوان في الكلب الذي آنس وحشتي ورويت له فصولاً من عمري من شقواتي وشقائي، فالطير الذي كان يعبر السماء ويرسم لي مسار الحنين والشعر والأمل، فالإنسان الذي فيك وفي مريم ورضيعها ونجاة إلى العشرة الكاملة مع الجديين والخيل.

ابحثْ عن كلب يا موسى ليكتمل الودّ.

تجد في كيسي صورة لابنة أبو حيان شاكر رفيقي في السجن، احفظها كما الودّ، وصوراً للذي سمّيته حامد المقدسي، القتيل الذي دفنته هناك في الصحراء، تجد صور بناته وامرأته، هذه الصور ضمّنها الكتاب، اكتب عنها شيئاً، أعلم أني أثقل عليك، هذا محزن حد الاختناق، ولكن يا موسى هذي حياتي، تريدني أن أزوّر حياتي وأروي ما لم أعش، هذا أنا يا موسى وهذه أوجاعي، ليت المسرّات تدوم، اكتب يا بني يا موسى، ولا تنسَ مدخل الكتاب، اجعله لائقاً بهذا الرحيل".

كنت في الهواء أطير وأسمع صوتي يتلو وصيتي.

سمعت موسى يقول لي: "لا ليس الآن يا معلمي أرجوك ليس الآن، لا أملك الجرأة في أن أحرقك ولا علم لي بهذا الطقس، عد وعلّمني أسماء الشجر والطير كما فعل أبوك وعلّمك، علّمني أن أرعى الماعز درّبني على الوعر، كي أكتب أجمل، ألم تقل لي ذلك أن اليد التي تعرف الشجر وصخور الجبال وتراب الحقل تكتب أجمل، حين تكتب تشمّ في اللغة الزهر البري ورائحة التراب وتسمع فيها جريان الماء وعصف الريح وغناء الرعاة، ألم تقل لي ذلك؟ علّمني لأكونك يا أبي يا معلمي، ليس الآن... انتظرني كي يكبر الجديان ويصبح لنا قطيع وتكبر نجاة وتصبح امرأتي ويكبر طفل مريم ويصبح باستطاعته أن يعبر الجسر الذي عبرنا نحو الدير، نحتاجك، تحتاجك البنت نجاة التي قتلت لأجلها، تحتاجك مريم هي تنتظرك هناك... ليس الآن يا معلمي، أحتاجك بعد، ثم لم ترِوِ لي الحكاية كلّها كي أختم الكتاب الذي بدأته بحكاية الفرس الجريحة".

صار صوت موسى يبتعد وأنا أبتعد: "علّمني لأكونك يا أبي".

ثم رأيتني محمّلاً على دابة يجرّها موسى، تتبعها أخرى محمّلة بالحطب، كنت أتفرج على جنازتي من على القمّة أتابعها كأنّها لغيري، كان رجل هناك شبيهي يدقّ جرس الدير، يعلو ويطير ويهبط مع الحبل، ومريم تحضن وليدها ونجاة مكوّمة على العشب كفكرة أمٍّ صغيرة، صغيرة، قربها الجديان يقضمان من يدها طربوناً أخضر، رأيت فرسي سوداء كحصان مريم، رأيت جمعاً من الناس يصعدون خلفي يلبسون الأبيض كنساك هنود، ورأيت أمّي تركض في طريق البياض في تلة سليمان خلف الصبي الذي كنت وترجوني أن لا أغادر وأتركها وحيدة، حزنت على أمي حزنت حزنت.

ثم رأيت مريم الأولى تطلّ من نافذة البيت الذي بجوار بيتنا في تلة سليمان، تطلّ عليّ وأنا أستعد لعناقها، أقف على حجر تحت النافذة لأوازيها طولاً ونصبح متقابلين وأقبّلها خطفاً كي لا ترانا أمها، صغيرين كنّا كالجدايا التي تطعمهما نجاة خلف الدير هناك. رأيت أختي الطفلة التي لم تكبر تحمل الرسالة التي تركتها على السرير في القبو الذي بقي من البيت، كأنَّها تفهم ما كتبت وليس بعلمي أنها تعرف القراءة، لعلّها تقرأ المعنى وليس الكلام.

سلام لعينيك أيتها الطفلة الباقية من سلالتي.

كان موسى يصعد بي نحو القمة يجرّ الدابة التي تحملني، ندمت أني أوصيته بذلك، لا خوفاً من النار بل وجدتني أعذّبه بالطريقة التي اخترتها لفنائي، لفناء هذا الجسد الذي تحمله دابة أراها تخاف علي من السقوط لذلك تنقل الخطوة بحذر في الدرب الوعر.

لو قلت لموسى أن يدفنني حيث التقينا بالراعي أيّوب لهوّنت عليه أكثر ختم نهايتي، القمّة عالية عالية والدرب صعبة ووعرة... ناديته أن يعيدني إلى المقام، أهون عليك يا موسى، ادفنّي حيث التقينا الراعي أيوب، أهون عليك من هذا الصعود، لكنَّه لم يسمعني ولن يسمعني. شاهدته يبكي، أعرف هذا النوع من الفراق يا موسى، موجع. ثم شاهدت أهلي في تلة سليمان يقفون على السطوح يلوّحون بأياديهم لي! كيف عادوا؟! سألت نفسي الميتة، وكأنّ الأموات يعودون حين يلحق بهم من تركوا في الدنيا ليشاركوا في وداعه ولكن لا أحد يراهم سواه، هم هناك على سطوح وادي الدموع وتلة سليمان يلوّحون بالمناديل البيض. الكثير منهم لا أعرفه، هم آلاف كثيرة، منهم عارٍ ومنهم من يلفّ جلد حيوان على وسطه ومنهم من يلبس الخيش ومنهم الصغير ومنهم الكبير، هم السلالة التي طواها الموت منذ بدء الخليقة. شاهدت أخي الذي أُعدم في وادي الدموع وأبي على هيئة نبي، شاهدت نفسي طفلاً في وادي الدموع تحملني جدتي لأطال حبات البلح من نخلة الدار.

من هنا يا موسى أطلّ على عمري كاملاً، لا يسمعني موسى، رأيته يسعف الدابة التي تحملني في تسلق الدرب، آسف يا بني، ليتني لم أوصِك بذلك. رأيت الرجلين المقنعين يخرجان من بين الشجر ويعترضان جثماني، سأل أحدهما عني: "من هو الميت؟"، أجاب موسى: "أبي"، "من قتله؟" سأل الثاني، أجابه موسى: "لم يقتله أحد، مات من العمر، من التعب، مات دون أن يَقتُل أو يُقتَل، كان يقرع الجرس وتوقف قلبه، لم يحمل قلبه دق الجرس"، سررت بطريقة وصف موسى لموتي، "وأين تاخذه؟ ليس من مقبرة قريبة هنا؟ هل تريد أن نساعدك في دفنه؟"، أجاب موسى: "لا، أريد أن أصل به إلى بلدتنا قبل الغروب، ما زال هناك وقت، نهار كامل يكفي"، "وأين كنتما؟"، أجاب موسى: "كنا نرعى الماعز هناك، تركت القطيع مع أحد الرعاة"، "ولماذا تحمل حطباً؟"، أجابهما موسى: "هذه وصيته، أن أحمله على دابة مع وزنه حطباً".

كان موسى يكذب مثلما كذبت مرة على العصابة الملتحية التي خطفتني وقلت لهم "ضيعت القطيع وأبحث عنه"، ليته يسمعني لأقول له: "دعهم يساعدونك في دفني وعد إلى النساء، أخاف عليهنّ يا موسى من الحزن أن يفتك بهنّ". لكن موسى لا يسمعني ولن يسمعني بعد اليوم.

من هؤلاء الطفّار؟ من قتلوا؟ ممن فروا؟ أعرف أمثالهم من زمان، هم لا يؤذون من لا يؤذيهم، هم من صنف الصعاليك من سلالة مالك بن الريب أو الشنفرى. عجبت مني، حتى في موتي قادر على التخمين والتحليل أو أنّ بعضي لم يمت بعد، والذي مات مني هو بدني الذي أُهين أكثر مما يحتمل جسد، أراه من هنا أقلّ من جسد رجل هو بقية إنسان محمّل على دابة، لا أبدو ميتاً، أبدو نائماً أتارجح على ظهر الدابة. لقد جعل لي موسى ما يشبه سرجاً منحنياً إلى الخلف وجعل رجلي في الركابين كفارس قُتل واتكأ على نفسه وأعادته الفرس إلى البيت لأنها تعرف الطريق إلى البيت.

غادر المقنّعان، تابعا سعيهما في الهروب، وتابع موسى دفع الدابة صعوداً نحو القمة، منها أرى حياتي كما لو أني أرى وجهي في مرآة، بكيت علي وأنا أشاهد تأرجحي على ظهر الدابة حملاً خفيفاً، بكيت ورأيت دمعةً تسقط على وجهي كأنّها قطرة مطر سقطت على وجهي النائم بدون منام، سقطت من غيمة عابرة، شاهدت غيمتين تعبران السماء فوقي من كل غيمة سقطت نقطة ماء فوق وجهي، قلت: الغيم يودّعني

أيتها البلاد، من هما الغيمتان يا عبد الجليل؟ هل هما مريم ونجاة ابنتاي في التيه؟ هل هما أمي وهدى اليدان اللتان غمرتاني حتى همد الشوق، غيمتان رافقتاني حتى القمّة وتابعتا الرحيل.

واصل موسى صعوده بي حتى بلغ القمّة، أنزلني عن الدابة، أنزل الحطب وأعدّه لي كما أوصيته، وضع تحته طبقة من القش اليابس السريع الاشتعال، شعرت بفرح حين حملني ومدّدني فوق كوم الحطب اليابس المشقق، حملني كأنّه يحمل ولداً، ضحكت من هذه الخفة في وزني، علماً أنَّ الميت يصبح ثقيلاً، لكنَّ موتي يبدو أنَّه نقض هذه النظرية. مددني موسى بتأنٍّ فوق الحطب، شممت فيه رائحة الصنوبر والبلّوط والسنديان وشممت رائحة الشيح، تلك الأشجار الصغيرة النحيلة الأغصان التي تحيك عليها دودة القز شرنقتها، كانت تحملها أمي من الغابة في موسم القز وتعبق الرائحة في القبو وتختلط بروئح التبن والحبق والعطرة، وتبدأ رحلة البذرة السوداء الصغيرة على أطباق تُعدُّ من الطين وروث البقر تقتات من نتف التوت وتنمو على مهل لتصبح دودة تُنقل إلى تلك السقالات المصنوعة من شجيرات الشيح لتحيك على نفسها بيتها كسجن، قد تنجو وتخرج منها وتصبح فراشة أو تقطفها يد لتحيك قميص حرير كالذي كانت ترتديه مريم في زمن الشقوات، وتموت.

شممت رائحة التوت، شممت الغابة التي قطعها والدي وهو يعلّمني أسماء الطير والشجر والنبت، كنت أشمّ الأشياء وأراها، أتفرّج عليها وعليّ، أتفرّج على حياتي.

حين أشعل موسى عود الثقاب ووضعه في كوم القش اليابس تحت الحطب وهبّ، شاهدت بلال الدمشقي في باحة السجن يحترق ونحن ندقّ الأبواب بقبضاتنا ونصرخ بالحراس: بلال يحترق يا حراس، بلال يحترق يا حراس، ندقّ ونصرخ والحرس يزاولون نوباتهم مجيئاً وذهاباً في الممرات لا يسمعون صراخنا، بلال يحترق يا حراس، بلال يحترق يا حراس، بلال يحترق يا الله،... واحترق بلال وتحوّلت ناره شهباً صعدت نحو السماء وانطفأت أصواتنا خلف الجدران...

تأججت النار في البدن، رأيتني في النار أنتفض وأجلس مستقيماً، وكنت أعلم أنّ الجسد الميت حين يحترق يستوي جلوساً في النار لتتمكن منه وتصعد في الجسد عالياً، خفت أن يراني موسى ويظنُّني حيّاً ويقع في الندم الأبديّ، لكنّ موسى جعل ظهره للنار كي لا يرى احتراقي، خيراً فعل موسى لأنه لو شاهدني أجلس في اللهب لجنّ.

وحين تمكنت مني النار سمعت صوتاً يفجّ السماء: "إلهي، إذا كان في سابق علمك أن الجحيم يوجد فوسّع خلقي فيه حتى لا يسع معي أحداً غيري". ما زال موسى لا يراني، كان ظهره للنار ووجهه للبلاد لكأنه سمع الصوت الذي سمعت، شاهدته يفتش في السماء عنه، من هنا حيث أنا أرى وجهه، أرى كل شيء على هذه الأرض التي أنجبتني، شاهدت في عين من عينيه فرساً بيضاء تعدو في السهل، وفي العين الثانية دمعةً تلمع في الشمس التي صارت على قوس الغياب، أحبّها هناك منذ ولدت، لا أدري لماذا! أحبّها وأحبّ سرب الطير الذي يعبرها في الهجرات، هو يعبرها الآن لعلمه أنّني أحب هذا السطر المتعرج على قرص الشمس. عبر الآن عكس الهجرات ليودّعني لذلك كنت في صحبته في ذلك التيه، جميلة صحبة الطير.

تجمّرت النار، أكلتني وأكلت كل ما فيّ، لم تعسّ في بدني، كان هشّاً يابساً كحطبها المفلع من الجفاف، كلانا رحم الآخر في الاحتراق وهذا نادر في الزمان، صرت والحطب كوم رماد. شاهدت موسى يعود الدرب نزولاً يجرّ الدابتين نحو الدير، كانت مريم تهدهد ابنها وترضعه ساهمةً في سربٍ من الطير يعبر المساء، هو الذي أراه من هنا، ونجاة تطعم الجديين طرابين خضراء.

في الليل هبّ الهواء طيّرني وطيّر رمادي نحو الغابة، تساقطت على الأغصان كنفناف، تساقط بعضي على أجنحة طيور هاجعة في الشجر، لم تشعر بهذا الرماد... زاولت غفوتها، وزاولت فنائي.
رأيت يداً تطويني ككتاب.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

بريد الغروب سيرة امرأة وسيرة مدينة: كلاهما يُهتك ويُغتصب من أهله.
كتاب في الحب والفقدان، ونهاية لرحلة التيه التي عاشها عبد الجليل الغزال سجين السجن الصحراوي.
هدى التي أصيبت بالعماء بعد اغتصابها، تروي وتسجّل وقائع ما عاشته وسمعته في عتمتها، وما شاهدته حين عاد الضوء إلى عينيها بعد ليلةٍ من العشق جمعتها مع عبد الجليل الغزال قبل اختطافه وسجنه. وتروي عن بيروت في زمن الحروب، عن حيٍّ وبيت في "وادي أبو جميل"، مخزن أسرار أهل ومدينة وبلاد، عن أختها اليهودية وعن الحب الذي صنع أعجوبةً بعد سنوات من العتمة والموت.
بين الضوء والعتمة تزاول هدى سرد وقائع أيامها، ويتابع عبد الجليل مسعاه نحو البلاد التي تلتهمها الحرائق وكأنها مصابة بلعنة الخراب الأبدي، فيضم مصيره لشتاتٍ جديد على أمل الخلاص والوصول إلى البيت...
تتابع هذه الرواية مسارات ومصائر بلاد، وتغوص في العمق لتروي عن الخراب والاستبداد والظلم عبر مسارات شخصيات كانت ضحية وشاهدة تسعى إلى الانعتاق والحرية.

قيل في الكتاب

رواية ذات نفس ملحمي في تصويرها الأحداث، والدخول في أعماق النفس المظلومة والمعذبة. (الحياة)

نبذة عن المؤلف

أحمد علي الزين إعلامي وروائي لبناني

كتب أخرى للمؤلف

"حافة النسيان"، صحبة الطير"،